المنظمة العربية للترجمة

روبير مارتان

مدخل لفهم اللسانيات

ترجمة

د. عبد القادر المهيري

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

مدخل لفهم اللسانيات

لجنة اللسانيات والمعاجم:

بسّام بركة (منسقاً)
حسن حمزة
سعد مصلوح
الطيّب البكّوش
علي أزرياح
سامي عطرجي

المنظمة العربية للترجمة

روبير مارتان

مدخل لفهم اللسانيات

إيبِستيمولوجيا أوليّة لمجال علمي

ترجمة

د. عبد القادر المهيري

مراجعة

د. الطيّب البكّوش

الـفـهـرسـة أثـنـاء الـنـشـر ـ إعـداد المنـظـمـة الـعـربـيـة لـلـتـرجـمـة
مارتان، روبير
مدخل لفهم اللسانيات: إيبستيمولوجيا أوليّة لمجال علمي/ روبير مارتان؛ ترجمة عبد القادر المهيري؛ مراجعة الطيّب البكّوش.
239 ص. ـ (لسانيات ومعاجم)
ببليوغرافية: 227 ـ 233.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-0-1046-5
1. اللغة واللغات. 2. اللسانيات. أ. العنوان. ب. المهيري، عبد القادر (مترجم). ج. البكّوش، الطيّب (مُراجع). د. السلسلة.
410

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة»

Martin, Robert
Comprendre la linguistique:
Epistémologie élémentaire d'une discipline

المنظمة العربية للترجمة
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2090 1103 ـ لبنان
هاتف: 753031 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2407 2034 ـ لبنان
تلفون: 750084 ـ 750085 ـ 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، أيلول (سبتمبر) 2007

المحتويات

قائمة الرموز

⇐ اقتضاء منطقي

⇔ تكافؤ منطقي

★ تركيب خاطئ

؟ تركيب مشكوك في صحّته

ج جملة

ق قول

ز^{0} زمن التلفظ

مقدمة المترجم

شهدت علوم اللسان منذ حوالى قرن تطوراً عجيباً، إذ تعاقبت النظريات، وتباينت الاتجاهات، يحدو أصحابها الطموح إلى الفوز بمنهج علمي يمكّن من وصف نظم الألسن وصفاً علمياً بالاعتماد على منهج يضاهي منهج العلوم البحتة ضبطاً ودقّة وموضوعية، ويسمح من ثمّ باستنباط قوانين وكليات تتوافر في كلّ الألسن مهما كانت الفصائل اللغوية التي تنتمي إليها.

تعاقبت النظريات ابتداءً من التي تقصي كلّ ما يعتبر حائلاً دون تحقيق صرامة المنهج العلمي من معنى ومقام، وكلّ ملابسات الاستعمال مروراً بالتي تأخذ المعنى بالاعتبار، إلى التي تعير كلّ الاهتمام إلى المقام وسائر ملابسات الخطاب، إلى التي تبحث عن علاقة النشاط اللغوي بالذهن.

وقد سعى صاحب هذا الكتاب إلى أن يستخرج من النظريات المتعددة وتطورها ما يمكن أن يعتبر من قبيل الثوابت، مثل غاية اللسانيات، وموضوعها، والقضايا التي تتناولها، والمسالك التي تتوخى لدراسة اللغة والألسن، وكذلك ما أصبح لهذا الفنّ من فروع وتطبيقات.

لذا رأينا ترجمة الكتاب إلى العربية، علّ القارئ العربي يجد فيه ما يمهّد له معرفة ماهية اللسانيات وقضاياها ومناهجها.

وقد حرص المؤلف على أن يوضح المفاهيم التي ينظر فيها، والمناهج التي يصفها، ومختلف فروع اللسانيات بواسطة أمثلة أغلبيتها الساحقة مستمدّة من اللغة الفرنسية من كلمات وتراكيب وصيغ جاهزة وعبارات متكلّسة ومقولات نحوية.

ومن البديهي أن ترجمة الأمثلة الفرنسية إلى العربية لا تسمح في أغلب الحالات بتجسيم الظواهر التي أراد المؤلف عرضها وتوضيحها لما بين اللسانين من اختلافات ناجمة ـ فضلاً عن انتمائهما إلى فصيلتين لغويتين مختلفتين ـ عن تباين تحليلهما على مستوى الكلمات للتجربة البشرية، وعن عدم التوازي بينهما في ما يتعلّق بالمقولات النحوية. بالإضافة إلى هذا، إن تعويض المثال الفرنسي بمثال عربي غير مترجم لا يسمح دائماً بالالتزام بنص التعليق عليه في النصّ الفرنسي، لذا تنقلب الترجمة تأويلاً أو تلخيصاً لما جاء في الأصل، وهذا يخرج بنا عن تصورنا لعمل المترجم.

من هنا عالجنا الأمثلة بحسب الطرق التي بدت لنا ملائمة لمقاصد المؤلّف، تجنباً للانزلاق في التأويل والابتعاد عن النصّ الفرنسي.

في الحالات التي لا تبتعد فيها العربية عن الفرنسية، من حيث الكلمات وبنيتها والمقولات النحوية، التزمنا بترجمة الأمثلة الفرنسية كلما كان تعليق المؤلف على المثال الفرنسي صالحاً أيضاً للمثال العربي لأن الظاهرة نفسها متوفّرة في كلا اللسانين.

وفي الحالات التي تؤدي بنا الترجمة الأمينة إلى الخروج عن مقاصد المؤلف اضطررنا إلى إقحام النصّ الفرنسي في النصّ العربي

مشفوعاً بترجمته إلى العربية ليفهم القارئ العربي معناه، لكن ترجمة التعليق تظلّ مرتبطة بالمثال الفرنسي، وقد أوردنا في الهامش، كلما أمكن ذلك، تقديم مثال عربي يجسّم ظاهرة في لغتنا قريبة بعض الشيء من الظاهرة الفرنسية المعنية. ومن ذلك مثلاً الشواهد التي يوردها المؤلف لتضمنها مقولة نحوية لا وجود لها في العربية فيعلّق على مختلف استعمالاتها المقبولة والمرفوضة. وقد سعينا لأن نبيّن في الهامش معنى المقولة ووظيفتها في الفرنسية...

ومن الأمثلة ما لا تفيد ترجمته الحرفية المعنى الذي تفيده في الفرنسية، وذلك من قبيل الأمثال وسائر التعابير الجاهزة التي لا يستفاد معناها من مجموع مكوناتها وإنما من تاريخ استعمال اللسان الفرنسي وعادات مستعمليه أو معتقادتهم. وقد اضطررنا أيضاً إلى إثبات صيغتها الفرنسية في النصّ المترجم، وأوردنا ترجمتها الحرفية مع المعنى المقصود منها، وتقديم مثال عربي يوضح الظاهرة كلما أمكن ذلك.

أما في ما يتعلّق بالمصطلحات فتوخينا المصطلحات التي تعتمد في وحدة المعالجة الإعلامية للمعجم (تونس)، ومخبر المعاجم والقواميس والإعلامية (جامعة باريس 13).

وأخيرا لا بدّ أن نشكر الأستاذ الطيب البكّوش الذي راجع هذه الترجمة، إذ إليه يرجع الفضل في اجتناب عدد من المزالق وتحقيق التناسق على مستوى الآراء والمصطلحات ومن ثمّ مزيد إحكام النصّ العربي. ولا يفوتني أن أشكر البشير الورهاني ولطفي شقير اللذين رافقاني في الجلسات التي عقدت مع الأستاذ الطيب البكّوش وسهّلا علينا عملية المراجعة، وكان للبشير الورهاني دور كبير في إخراج النص وضمان تناسق مكوناته ومصطلحاته وطريقة رسمه. فإلى الجميع عبارات الشكر والامتنان.

المقـــــدّمة

إنّه تصنيف متواضع هذا الذي نقترحه هنا؛ ليس هو نوعاً من التدريب على اللّسانيات (التدريب يقتصر على أبسط المسائل)، ولا هو مصنفاً مختصراً (فالمختصر يوضع لمن يعرفون الموضوع)؛ إننا نروم فقط أن نقدّم الأهداف التي يحدّدها اللساني لنفسه، أو أنماط الأسئلة التي يطرحها (حتى أصعبها)، ومختلف المسالك التي يتوخّاها ليجيب عنها بما يجيب، كل ذلك لمن يريد أن يهتم بالموضوع من دون أن يتطلب الأمر معرفة مسبقة، نقدّمه باللغة المألوفة لدى الجميع(*). إجمالاً سنسعى إلى تقديم أصحّ فكرة ممكنة عن مادّة متشعّبة وأهدافها ومناهجها؛ هذا ما يسمى بتعبير مختص «عُلومية اللسانيات»؛ تفصح العُلومية عن هدف العلم وكيفية مباشرته، لكنها هنا عُلومية بسيطة، بمعنى أنّها صيغت في لغة يتكلمها الجميع، ميسورة إلى أقصى حدّ ممكن، ولو أنها تسعى إلى

[يُشار، لاحقاً، إلى الهوامش التي وضعها المؤلف بـ (*)، وإلى الهوامش التي وضعها المترجم بأرقام تسلسلية].

(*) سنقحم بحسب أبواب التصنيف أنواعاً من المفاهيم تحدد بكل عناية؛ وباعتبارها قليلة إلى أقصى حدّ فإنّه يمكن أن يُعاد استعمالها من دون التذكير بتحديدها، لكنها ستجمع في الفهرس ما يمكّن من تذكّرها عند النسيان أو التّردد بشأنها.

بلوغ أقصى ما في استطاعة المؤلف بلوغه.

الواقع أننا جميعاً لسانيون إن قليلاً أو كثيراً. من الأكيد أنّ ملَكة استعمال اللغة لا تكفي لذلك؛ يمكن للمرء أن يتحكّم بلسان من الألسن فيوفَّق في استعماله نادرَ التوفيق (على غرار الكاتب الكبير)، ويمكن أن يتكلّم بإتقان لسانيْن بل عديد الألسن، ولا يكون مع ذلك لسانياً؛ فاللّساني هو الذي اكتسب معرفة عن الألسن وعُني وظيفة اللغة؛ ومع ذلك فإن نشاطنا اليومي يمتُّ بصلة إلى نشاط اللسانيّ. هذا هو الشأن عندما نفتح معجماً (أيّ «معجم لغوي» موضوعه الكلمات لا الأشياء التي تحيل عليها الكلمات كما هو شأن «المعاجم الموسوعية»)، أو عندما نرجع إلى كتاب نحو. ما معنى هذه اللُّفاظة؟ كيف نعبّر عن الشيء الفلاني؟ هل يجوز هذا التعبير في الإنجليزية ـ أم هل هو تعبير منسوخ من الفرنسية؟ هذا مما يُلقيه اللساني من الأسئلة. نمارس جميعاً أيضاً عندما نتكلّم ما يسمى «رقابة على ـ لسانية»، إذ نحن نراقب طريقة تعبيرنا عن الأشياء، ونتساءل عن مطابقة كلامنا لما نريد التعبير عنه، [مثال ذلك قولنا]: إنها معجزة إن صحّ التعبير، معجزة إن جاز التعبير، ضرب من المعجزة، معجزة حقيقية: من المفارقات أنّ حقّاً وحقيقيةً معناهما هنا أنه لسنا في حقيقة الأمر أمام معجزة. فشعوري بالحاجة إلى إثبات صحة «المعجزة» المعنية راجع إلى أن وجاهة استعمال هذه المفردة قد يثير ضرباً من الشكّ، فـ «حقاً» أو «حقيقية» لهما هنا صبغة «على ـ لسانيّة» (ليس هذا شأن جوهرة حقيقية المقابلة لـ جوهرة زائفة أو جوهرة اصطناعية). ما أكثر ما يتضمنه الخطاب (أي ما نقول) عبارات اعتراضية لتقييم مطابقته اللغوية، من نوع: إنْ أمكن لي التعبير. . . إن كانت الكلمة ملائمة؟ . . . فهذا بتعبير بسيط وجهة نظر عادية يعبّر عنها اللساني، نحن نُبدي رأياً لا في شأن الأشياء، ولكن في الكلمات المعبِّرة عن الأشياء. فمن لم يصطدم أبداً بعقبة لسانية؟ وهل

تنطق الصلاوة [الصلاة] أم [الصلوات]، هي [الصلاة]، ولم ترسم «الواو» تحت الألف إلاّ لتشير إلى أنها تتأخّر في النطق نحو الضمّة[1]. فانظرْ إلى هذه المسألة اللسانية: إنّ الكلمة [في اللسانيات] «غير شفافة» لا تحيل إلى العالم وإنما تحيل إلى ذاتها، ففي كل معالجة لسانية سواء أكانت من قبل عامّة الناس أم من قبل من يُعتبر لسانياً يفقد الدّليلُ بصفة وقتية «شفافيتَه»، وينقطع عن كل إحالة سوى إحالته على ذاته، وبمجرّد أن نعالج الدّليل باعتبار انعدام الشفافية نقف موقفَ لسانيٍّ.

على أنّ بعض الناس «لسانيون» أكثر من غيرهم. لكن من الذي يحقّ له أن يعتبر نفسه «لسانياً»؟ السؤال أشد دقة مما يظن، فالحدود هنا كما هو الشأن في مجالات أخرى شديدة الضّبابية إلى أقصى حدّ. لننتقل إلى ميدان آخر. إنّ العازف على آلة البيانو هو الذي يعرف العزف على هذه الآلة. لكن ما هي الكفاءة اللازمة التي تخوّل اعتبار المرء محترفاً العزف على هذه الآلة؟ هل هو الذي يعزف بإصبع واحدة أو بإصبعين نغمة على ضوء القمر (Au clair de la lune)؟ هذا لا يكفي؛ أم هل هو الذي يحاول عزف رسالة إلى إيليز (Lettre à Elise) («جارتي لا تعرف إلاّ عزف هذه النغمة . . .»)؟ أم هل هو الذي يؤدي سوناتة يمكن أن تُنسَب نسبة مبهمة إلى موزار؟ أم هو

---

(1) المثال المعتمد في النصّ هو gageur (مراهنة)، والترجمة الحرفية هي (gajur) أم (gajoer)؟ هي (gajur) لأن الـ e رُسمت لاجتناب نطق g قبل u كما تنطق قبل a. والملاحظ أنه كلما وجدنا في العربية مثالاً نظيراً أو شبيهاً للمثال الفرنسي المعتمد في النص عوضنا هذا بذاك مع ما يقتضيه ذلك من التصرف في النص لاختلاف وجه التفسير والتحليل؛ وكلما تعذّر ذلك لما بين الفرنسية والعربية من اختلاف في الأبنية أو المفاهيم والمقولات النحوية، اضطررنا إلى الاحتفاظ بالنص الفرنسي مع ترجمة المثال في الهامش.
في رسم المصحف توضع الألف فوق الواو، ونظراً إلى تعذّر ذلك في الطّباعة وضعنا الواو بعد الألف.

الذي يعزف عزفاً مرضياً اثنتين أو ثلاثاً من السّوناتات، أو عدداً آخر منها، أو قائمة صغيرة منها؟ أمّا إذا كان الأداءُ أداءَ عضوٍ في جوقة فالأمر لم يعد موضوع شكّ. لكن متى يمكن للمرء أن يعتبر نفسه «متخصصاً في العزف على البيانو»؟

بهذا نطرح ـ وكأننا لم نفعل ـ سؤالاً ذا صبغة لسانيّة أساساً: ما هي الشروط اللازم توافرُها حتى يتسنى تطبيق التسمية على مسمّاها؟ يتبادر إلى حدسنا أنّ هذه الشروط متكوّنة عادة من مجموعات ضبابية الحدود؛ وهل يجب أن نعجب من ذلك إذا ما علمنا أن الواقع يكاد يتجلى دائماً في مظهر استرسالي. انظر إلى ما في أشكال الكائنات الحيّة من صبغة الاسترسال (ننتقل من عالم النبات إلى عالم الحيوان من دون أن نشعر بذلك)، وإلى استرسال الأعمار البيولوجية (متى تصبح النُطفة جنيناً؟)، وإلى استرسال الطّيف الشّمسي . . . إنّ اللغة تُقابل بين اللّيل والنّهار، لكن متى ينبثق النّهار؟ يتعذر البتّ في ذلك، فالكلمات تنطبق على الأشياء من دون حدود دقيقة لأن الأشياء ذاتها ليس بينها حدود فاصلة. انظر أيضاً إلى المثال الشهير المتمثل في الطائر، فمن الطيور ما هو، إن جاز التعبير، «طير» أكثر من غيره. فالدوري طير أكثر من الدجاجة «نمطيّاً» (التي لا تطير)، والدجاجة أكثر من البطريق (الذي يقتات فضلاً عن ذلك من الأسماك). لا شكّ في أنه يمكن لعالِم الطيور أن يصطلح على توخّي مقاييس دقيقة لتحديد صنف الفقريات التي يتناولها بالدرس، لكن ليس هذا مجرى اللّسان، فهو متّسم بمرونة مدهشة، قابلة لكلّ أنواع الانزلاق ولكلّ الاستعارات (حتى أنه يمكنني القول إنّ الغزال من الطيور، لأنه سريع حتّى كأنه يطير. . .)، وهو ينطبق على الأشياء انطباقاً فيه من المهارة والابتكار ما يبعث على الدّهشة.

لكن لنعد إلى صاحبنا اللّساني المنتمي إلى صنف الفقريات؛ لا

شيء يمنع من تعريفه اعتماداً على خصائصَ مقبولة اصطلاحياً، وليكنْ ذلك، كما يقال في الطبيب؛ على كلّ إننا جميعاً أطباء إن قليلاً أو كثيراً، نعرف كيف نعالج ما يصيبنا من طفيف الآلام المتنوعة، وتختلف المعارف الطبية ككل المعارف من شخص إلى آخر اختلافاً لا يبرز للعيان. لكنّ المصطلح عليه أنّ الذي يُسمّى طبيباً هو الحامل شهادة الدكتوراه في الطب (مهما كان اعتبارنا لقيمتها العلمية بشرط أن تكون اعترفت بها لجنةُ مناقشة)، والمسجّل بعمادة الأطباء؛ بل إنّ مهنة الطّب قد عرفت كيف تحمي نفسها: فالأطباء الأجانب ليسوا أطبّاء في ديارنا. حقّاً لا يوجد شيء من هذا القبيل في شأن اللسانيّين: فلا وجود لممارسة غير شرعية للسانيات، بل الأمرُ على عكس ذلك، فاللّساني يبتهج بقدر ما تتسع معرفة اللّسانيات وممارستُها. لكن توجد هنا أيضاً شهادات مناسبة (بما فيها شهادة الدكتوراة، الضّحلة أحياناً، والفائقة القيمة أحياناً أخرى)؛ ويعمل لسانيّون محترفون في الجامعات (حيث تدرَّس اللّسانيات بخاصة في أقسام اللسانيات والآداب ـ وقليلاً جدّاً ـ أحياناً في أقسام الإعلامية). وتُقبِل بعض المؤسسات الاقتصادية على اللّسانيات التطبيقية ـ وسنرى في ما بعد أهدافها الممكنة. وباختصار، للّسانيّين وجودٌ ولو كان حتماً بتكلّف اصطلاحي.

إنّ هذا الكتيّب من وضع «لسانيّ» بهذا المفهوم، وبقدر ما يتقدّم المرء في اللسانيات يدرك مجالات جهله وأنّه لا يعرف قطّ من الأشياء إلاّ جانباً زهيداً جدّاً من المعرفة. وما يقضّ مضجع الباحث في اللسانيات أنّ آلاف «الألسان» تُعرَض عليه: ألسُن وطنية، وألسن «جهويّة»، وألسن دارجة (أي ألْسان يختلف بعضها عن بعض اختلافات طفيفة من منطقة إلى أخرى، فيتميّز بعضها عن بعض تميّزاً غير ملموس من دون أن تنشأ الحاجة إلى محاولة التوحيد بينها كما هو شأن «الألسُن» باعتبار أن التفاهم ممكن دائماً على أساس التقارب

التدريجي)، وسَبيرات (أي ألسان مَزيجة مبسّطة تسمح بالتخاطب في وضعيات خاصة كالوضعيات التجارية)، وكَرْوَليّات (أي سَبيرات أُثرِيت فأصبحت لسان طائفة تامّ شروط التداول). ولسنا بحاجة إلى التصريح بأنّ الميدان الذي تشمله كفاءة اللساني لا يكون إلاّ محدوداً. بالإضافة إلى هذا، تقع اللسانيات في ملتقى اختصاصات متنوعة شديدَ التنوّع؛ فكيف يمكن دراسة النطق من دون الإلمام بمعلومات فيزيولوجية (الأصوات التي نسمعها ناتجة بواسطة الهواء الملفوظ ـ وأحياناً بلا صلة بالتنفس، كما هو شأن «التمرطُق» (Clics) في بعض الألسن الإفريقيّة ـ عن نزيز الأوتار الصوتية وانقباض أدنى الحنَك وحركات الفكّين والشفتين واللهاة وبخاصّة اللسان بطبيعة الحال)؟ وأنّى للمرء أن يفهم شيئاً من ذلك من دون أن يكون سمعيّاتياً بعضَ الشيء؟ فالدّفق الصوتي يمكن تحليله (مثلاً بواسطة مقياس الرّسم الطيفي والرسم الذبذبي) إلى مشَكّلات وبحسب تغيّر السَّعة، وبحسَب خطوط التنغيم. كيف يمكن الاهتمام بما لا حصْرَ له من أنواع اللّفاظ التقني وتكوّنه وتطوّره مع الجهل التام بالمجالات العلميّة المعنية؟ فالحديث عن لُفاظ الإعلامية أو البيولوجيا يقتضي الإلمامَ بمعارف حول الإعلامية والبيولوجيا. كيْف يمكن للمرء أن يحلّل تحليلاً لسانياً عبارات وجملاً ونصوصاً إذا لم يكن قادراً على فهمها؟ هذا يتطلّب كفاءات موسوعية! أحياناً تلتقي اللسانيّات بعلم الأعصاب، فاللّسان مسجّل في الدماغ وهو عُرضة لاضطرابات (كالحُبسة) من شأنها أن تكشف عن كيفية اشتغاله أيّما كشف. وأحياناً أخرى يجب أن يكون اللساني متضلعاً بعلم الاجتماع لأن اللّسان هو أساساً إنتاج اجتماعي أيضاً ـ أو كذلك في علم النفس لأن الإنتاج اللّساني يعتمد الملكات النفسانية كلها (من تذكّر لموضوع الفكر، وتداعياته وتنظيمه) التي هي المجال الأهمّ لعلم النفس.

هكذا يجب الأخذ من كلّ شيء بطرَف، والواقع أن اللسانيات مؤهلة أكثر من كل العلوم الأخرى لتضافر الاختصاصات، فتتأسّس مجالات تضافُرها: اللّسانيات العصبية، واللّسانيات الاجتماعية واللّسانيات النفسانية، وتنبعث ميادين جديدة وبخاصة ميدان العلوم العِرفانية (المنطق والإعلامية وعلم النفس والعلوم العصبية واللسانيات). لكن يجب على المجال العلميّ في الوقت نفسه، وحتى لا تُسلَب روحُه، أن يعرف، وهو يتفتح على غيره، كيفَ يصون في كلّ وقت وجهات النظر الخاصّة به. هي إذاً حركة جاذبة من ناحية وحركة نابذة من ناحية أخرى. هذه الحركة الثانية هي المقدَّمة في كلّ ما يلي. فقصدنا هو محور اللسانيات لا أطرافها، وسنبيّن ما هو خاصّ بها لا ما تشارك فيه غيرَها.

إنّ اللّسانيات هي قبل كلّ شيء مجال علميّ اختباري، فهي تتناول مادّةً ـ الألسنَ واللغة ـ وجودها سابق لدراستها، فلا شبَه من هذه الوجهة بينها وبين الرياضيات أو المنطق: لغة الرياضيات أو المنطق لا توجد من دون الرياضي أو المنطقي. وليس للّغة العادية (وتسمى أيضاً «الألسن الطبيعية» كالفرنسية والإنجليزية واللينقالا . . .) حاجة إلى اللّساني لتوجَد؛ وهكذا، غاية اللساني الأولى هي «وصف» ما يعرضه الواقع عليه.

لكن يجب أن ندرك بادئ ذي بدء أن اللّسان (الفرنسية، الإنجليزية . . .) لا يمكن رصده بصفة مباشرة، فما يمكن لنا رصده إنتاجات لغوية وجُملاً بالفرنسية أو الإنجليزية لا الفرنسية أو الإنجليزية في حدّ ذاتها، أي النّظام الذي يجعل هذه الإنتاجات أمراً ممكناً؛ فاللّسان مرسوم في دماغ متكلّمه، ولا نفاذَ إليه إلاّ من خلال نتائجه. معنى هذا أنّ اللّسان لا يمكن، لاستعصائه عن الرصد المباشر، أن يكون إلا موضوعاً لبناء «نظري»، فاللسانيات هي حتماً علمٌ تنظيري.

ويجب أيضاً تجاوزُ تنوع الألسن للوقوف على وظيفة اللغة ذاتها، ومسلك اللسانيات إلى ذلك (بعيداً عن علم النّفس، وأشدّ بعداً عن العلوم العصبية) يتمثل في البحث عمّا تشترك فيه الألسن، ونذكُر في هذا الصدد الكليات اللغوية، والحقل المعني هنا هو حقل «اللّسانيات العامة».

وهل من حاجة إلى القول إنّ الكلّيات اللغوية لا يمكن أن تكون إلاّ أشد صبغة نظرية من الألسن التي تكمن فيها؟ فهل لها وجود حقيقي؟ هذا يؤدي إلى انزلاق لا نحسّ به نحو ماورائيّة اللغة، فالمواضيع المذكورة هنا هي من مجال الفلسفة، وبهذا تختلط اللّسانيات بـ«فلسفة اللغة».

والألسُن، فضلاً عن هذا، تتطور بالضّرورة. ومن المعلوم أن الفرنسية متولدة، كغيرها من الألسن الرومانية، من اللاتينية، وقد لزم ليتحقق ما بينهما من فرق جذري أن تحدُث تغيّرات مرحلية شاسعة. لماذا وكيف تتغيّر الألسن؟ هذه هي المسألة المركزية في «اللّسانيات التاريخية».

لكن من الخطأ الظن أنّ ليس للّسانيات جانب تطبيقي، فالأمر عكس ذلك تماماً؛ فتعليمية الألسن والتهيئة اللسانية وبخاصة اللسانيات الآلية (ولو لمجرّد الحوار مع الحاسوب باللغة العادية) كلّ هذا راجع إلى «اللّسانيات التطبيقية».

هكذا يلوح للنّاظر تخطيطُ هذا التّصنيف بحسب ستّة أقسام[2]، متمثلة في ستة فصول، وسنتناول على التوالي:

(2) أضاف المؤلّف في الطّبعة الثّانية ملحقاً خاصّاً باللّسانيّات الأسلوبية عنوانُه «من اللّسانيّات إلى الأدب».

- اللسانيات الوصفية (الفصل الأول): ما معنى الوصف في اللسانيات؟

- اللسانيات النظرية (الفصل الثاني): ما معنى التفسير في اللسانيات؟

- اللسانيات العامّة (الفصل الثالث): ما هي المفاهيم التي يمكن التسليمُ بها باعتبارها صالحة لكلّ الألسن؟

- فلسفة اللغة (الفصل الرابع): ما هي العلاقات التي تصل اللغةَ بالواقع والفكر والحقيقة؟

- اللسانيات التاريخية (الفصل الخامس): لماذا وكيف تتطوّر الألسن؟

- اللسانيات التطبيقية (الفصل السادس): ما هي الفائدة العملية من كل هذا؟

الفصل الأول

اللسانيات الوصفية

أوّلُ أعمال اللساني المعاينةُ والوصف: ولمّا كان ما يدرسه شيئاً من أشياء الكوْن يوجد قبل التّصدي لفحصه، فإنّ هذا الشّيء قابل بمقتضى طبيعته لمعالجةٍ اختباريّةٍ؛ لذا سنتساءل عن كيفية الوصف؛ والواقع أنّ هذا السؤال يستلزم طرحَ سؤال آخر: «ماذا نصف؟»؛ «ما هي الظواهر القابلة للوصف وكيف تُجمَع؟» ومن ناحية أخرى كيف نحقق ـ على افتراض أننا نمارس في شأن هذه الظواهر وصفاً سليماً ـ تأليفاً وصفيّاً؟ يجب ليكون الوصف وصفاً متماسكاً أن يخضع لمنطق يُهيكِله، ومجمل القول إنّ ثلاثة جوانب تُعرض على تفكيرنا:

- ما هي الأشياء التي نجمعها؟
- ما هي إجراءات وصفها؟
- ما هي الهياكل الكفيلة بتنظيم وصفها؟

ما هي الأشياء التي نجمعها؟

للمسألة الأوليّة في الحقيقة جانبان، إذ يجب أن نتساءل لا عن ماهية الظاهرة اللسانية فحسب، وإنّما كذلك عن المادة التي يمارَس الجمعُ عليها.

ما هو الحدث اللساني؟

إنّ المقاربة الساذجة قد تبعث على الظنّ أن الواقع يفرض نفسَه قبل اختباره على من يروم وصفَه، وأنّ الأشياء تبدو بذاتها للعيان بكل وضوح. هكذا قد يروم اللساني مثلاً وصف كلمات لسان من الألسن، ونحوَ لسان آخر، وكيفية نطق هذه المجموعة أو تلك . . . هذا وهمٌ غريب، فلا وجود لشيء من هذا خارج نطاق السّعي إلى تعريف الأمور بكامل الدقّة.

لنفترض أننا نهتم بكلمات لفيظ مبتذل كاللَّفيظ التالي: *Il a épluché les pommes de terre*[1]؛ ما هو عدد الكلمات التي يجب إحصاؤها فيه؟ هل هو عدد الرّسوم المفصولة ببياض (سبعة)؟ أليس في هذا ثقة عمياء بطريقة الرّسم؟

أوّل صعوبة مصدرُها المجموعة المتكوّنة من *pommes de terre*: هل يجب أن نعتبرها متكوّنة حقّاً من ثلاث كلمات؟ أفلا تدلّ على بقْل شأنها في ذلك شأن *carottes* (الجَزَر) و*navets* (اللفت)؟ أفلا تؤدي في اللّفيظ وظيفة الاسم (*éplucher les carottes, les navets, les pommes de terre*[2]؛ ولنفرض أن البطاطا المعنية فاسدة من سوء

---

(1) قشّر البطاطا. تجدر الملاحظة هنا أنّ المؤلف يعتمد بطبيعة الحال أمثلة من الفرنسية يستحيل في أغلب الأحيان وجود ما يطابقها في العربية معنىً وتركيباً ومقولات نحوية. فالاسم المترجم بكلمة بطاطا يتكوّن من ثلاثة أجزاء، اثنان منها من الأسماء ولكليهما معنى مستقل لا صلة له بمسمّى العبارة (pomme اسم للتفاح وterre اسم للأرض). أما الجزء الثالث فهو من الأدوات النحويّة. قد يمكن تعويض الاسم الدال على البطاطا باسم مركب في العربية من نوع «قوس قزح»، لكن زيادة على ما يقتضيه تبنّيه من عدم الالتزام بالنصّ الفرنسي، فإنّه لا يتسنى التصرّف فيه لبيان صعوبات التحديد على غرار تصرف المؤلّف في كلمة *pomme de terre*. لذا رأينا أن نلتزم بترجمة النصّ الفرنسي مع الاحتفاظ بالمثال وترجمته في الهامش أو تفسيره كلما تعذّر أن نجد في العربية أمثلة موازية تماماً للأمثلة الفرنسيّة.

(2) قشّر الجزَر واللّفت والبطاطا.

الحظّ: فهل نقول: *des pommes pourries de terre*★ أو *des pommes de terre pourries*[3]؟، فهل يمكن التردد في اختيار [الصيغة الصحيحة] (تدلّ النجمة في اللسانيات على الاستحالة)؟ ذلك أنّ النعت يحمل على المجموعة بأكملها، والبنية المتكوّنة من «الاسم + الأداة + الاسم» توجد في *médecin de campagne* (طبيب الريف)، *Chien de berger* (كلب الراعي)، *Oeuf de caille* (بيض السمانى)... لكنّ طبيب الريف هو طبيب، وكلب الراعي كلب، وبيض السّمانى بيض. أمّا *pomme de terre* فليست تفاحة؛ يمكن تقليص مجموعة هذه الكلمة في *pommes frites* (بطاطا مقليّة) و *pommes vapeur* (بطاطا مطبوخة بالبخار) (تُستعمل كلمة *pommes* هنا في الجمع حتماً) لكن لا مجال للخلط بينها وبين ثمرة شجر التفاح، فهي تطلق على شيء آخر من أشياء الكون. هذه مجموعة من المعطيات تجعلنا نرى في *pommes de terre* ما يسمى «كلمة مركّبة».

لكننا لم نذلّل بعد هذا كل ما يعترضنا من عقبات ولا شيء من هذا في غاية الوضوح؛ أفلا نفضّل صيغة Un médecin de campagne consciencieux[4] على صيغة Un médecin consciencieux de campagne (تدل نقطة الاستفهام السابقة للمثال على التردد)؟ هل يجب أن نرى في *pomme de reinette* (نوع من التفاح الكندي) ثلاث كلمات مختلفة بسبب أن هذا النوع هو أيضاً من التفاح؟ وبما أن كلمة *reinette* (أو *rainette*) يمكن استعمالها

---

(3) بطاطا فاسدة يجسم المثال استحالة إقحام النعت بين أجزاء الاسم المركب.

(4) طبيب ريف مخلص في عمله؛ في المثال الثاني أقحِم النعت بين الاسمين؛ على سبيل المثال في العربية مع اختلاف نظامها عن الفرنسية: الباب الكبير للكلّية أو باب الكلّية الكبير، ولا شك في أننا نفضل الصّيغة الثانية لحداثة الصّيغة الأولى التي لا مفرّ منها في حالة اللّبس.

لتسمية التفاحة المعنية، فالحلّ أن نعتبر المجموعة كلمةً مركّبة. لنعترف على الرغم من كلّ شيء بأن المقاييس متداخلة تداخلاً مقلقاً. وما الحلّ مع *pomme d'arrosoir* (مصبّ المسقاة)؟ لا تدلّ كلمة *pomme* هنا على التفاحة، ولا مبرر لاستعمالها إلاّ للشّبه بين شكليْ المسمّييْن، لكنّ هذه الطريقة شديدة الإنتاج للكلمات في كلّ ألسُن العالم. فانظر من بين استعمالات «*pomme*» من هذا النمط إلى *la pomme de pin* (الكرز)؛ *la pomme d'amour* (الطماطم)، *la pomme de chêne* (عفصة)، *la pomme d'églantier*[5] . . . وأيضاً *la pomme de douche* (مصبّ المِرشّ)؛ هل يجب اعتبار كلّ هذا كلمات مركبة؟ يُخشى في هذه الحالة على مفهوم الكلمة المركّبة من الانفجار. لكن أليس للبَطاطا استدارة التفاحة، وإذا بمشكلنا الصّغير ينقلب شيئاً فشيئاً إلى مُدعاة للهوس. فما العمل يا ترى؟ هل هي كلمة واحدة أم ثلاث؟

يجب بخاصّة أن ندرك أن الظّاهرة اللسانيّة لا تعالَج بمعزل عن قرارات اصطلاحية إن قليلاً أو كثيراً، فللأشياء اللسانية حدود غير ثابتة، وهي تصنّف إلى مجموعات فرعيّة ضبابية طبقاً لحُزمة من المقاييس لا تتساوى في الالتزام بها؛ فللّساني أن يصطلح على الحدود التي يُسمح بالوصف في نطاقها، لا يوجد في اللّسانيات شيء خام، وبمجرّد أن يأتي المحلّل حتى يتلاشى الشّيء الخام، والمهمّ أن نعتمد قرارات معلّلة ومفسَّرة تفسيراً واضحاً، وعلى اللساني أن يكون في كلّ لحظة واعياً بما يفعله، فالغاية متواضعة، ولكنّها هي وحدها المعقولة.

---

(5) زهرة النسرين؛ المثال القريب من هذا في العربية كلمة آذان، الواردة في الكثير من أسماء أنواع من النبات: آذان الأرنب، آذان الجدي، آذان الدّب، آذان الفيل.

لنعُد إلى لفيظنا الأوّل؛ ليست الصّعوبة في *pomme de terre* فقط، لنقابل بينه وبين *Il épluchera les pommes de terre*[6] فاللفيظ *épluchera* المتمثّل في كلمة واحدة يعبّر عن المستقبل، كما تعبّر *a épluché* عن الماضي. لذا أفليس للفعل المساعد avoir دور شبيه بالإعراب[7]؟ فهل نعتبره كلمة؟ وما العمل مع *il* (هو)؟ ليس من الممكن فصله عن الفعل (لا نقول *il qui*★ خلافاً لـ *lui qui*[8]؛ فهل هو كلمة حقّا؟ أفليس هو أداة من أدوات الفعل؟ كما أنّ *les*[9] هي أداة من أدوات الاسم؟ هكذا يعتري الغموض مرّة أخرى أفق البحث. وباختصار، فإن لفيظنا يتكوّن، بحسب ما نتوخاه من معايير، من سبع كلمات (أي على قدر عدد أشكال الرّسم)، أو من كلمتين فقط؛ فعل متمثل في *il a épluché*، واسم في *les pommes de terre*؛ مرّة أخرى من يتجاسر فيعتبر أنّ الأشياء اللّسانيّة تفرض نفسها بمقتضى حقيقة لا جدال فيها، ولا يظُنَنّ أحد أنّ المثال اختير للغرض عمداً؛ لا توجد مقولة تُحدَّد تحديداً لا يخرج عنه شيء. حاوِلْ أن تقول ما الرّديف[10]، أو ما هي

---

(6) سيقشّر البطاطا. هل تعتبر «سيقشّر» كلمة واحدة على الرغم من حضور السين وحرف المضارعة في أولها.

(7) الفعل *avoir* يصرف كسائر الأفعال، ويقوم بحسب السياق بدور فعل حقيقي بمعنى حصل على، له...؛ وبفعل مساعد يسبق أفعالاً أخرى للدلالة على الماضي، وصيغة المسند إلى المفرد الغائب هي *a* الدالة في المثال على الماضي؛ أما *ra* فهي علامة المستقبل.

(8) بمعنى أن هذا الضمير لا يمكن أن يفصل بينه وبين الفعل بالاسم الموصول *qui* في وظيفة الفاعل، في حين أنه يمكن أن يرد الموصول الفاعل بعد صيغة ضمير الغائب الخاصّة بالمفعول.

(9) أداة تعريف ومقابلها في العربيّة ال ...

(10) Adverbe، لا يوجد في العربية ما يناظر هذه المقولة، ويتمثل دورها في بيان وجهة وقوع الحدث من حيث السرعة أو البطء مثلاً، أو الشدّة واللين ... ويمكن ترجمة استعمالاتها أحياناً بالمفعول المطلق وأحياناً أخرى بالظّرف.

الأداة[11]، في *voter contre* (صوّت ضدّ): هل هي رديف أم أداة؟)، وما هو المبتدأ (Sujet)، وما هو الخبر (Attribut) (زيد هو الرئيس/ الرئيس هو زيد)، وما هو البدل (Apposition)، والمفعول الظرفي (Complément circonstanciel)، والعبارة (Locution)؛ فما يُثار من قضايا تحديدية رهيبة أحياناً هو على قدر هذه المفاهيم، ومفهوم الكلمة كان وحدَه موضوع آلاف البحوث تكفّل كتاب ببليوغرافي بإحصائها.

على أنّ الأشياء اللّسانيّة تندرج ضمن صنفين:

ـ الأشياء اللّغوية: «الصّوت» /ب/ في العربية (بلد، برَز، باب...، ثبّت، استبدّ...؛ سنعود إلى فكرة «الصّوت» باعتبارها في حقيقة الأمر غير ملائمة)[12]، وكلمة فِعْل أو اللاّحقة « ـ ية» في إنسانيّة[13]. تنتمي هذه الأشياء إلى السّلسلة الصّوتية أو سلسلة الرّسم.

ـ أشياء ورلسانيّة، فالأداة (Préposition) وصيغة الاحتماليّ (Subjonctif)، والمفعول به (Complément d'objet) تتجسّم في أشياء لغوية، وهي ليست أشياء تدرَك مباشرة، فالوَرَلسان يستعمل للكلام على اللّسان، والأشياء التي يتناولها تُستنبَط من الملاحظة، ولا يمكن معاينتها بصفة مباشرة.

والواقع أنّ الأشياء اللغوية هي أيضاً من المجرّدات على غرار

---

(11) Proposition ومقابلها في العربية بعض حروف الجرّ والظروف.

(12) الأمثلة العربية ليست ترجمة للأمثلة الفرنسية التي اختيرت لتجسيم المواضع التي يظهر فيها صوت /p/، وقد اخترنا أمثلة عربية يختلف فيها أيضاً مواضع /ب/. والأمثلة الفرنسية هي: ظهر، بان (Apparaître)، طبّ نفساني (Psychanalyse)، أخذ، حمل (Prendre)، أب (Père) نضّد، كدّس (Empiler).

(13) كومة أغصان (Branchage)، مال أو خير (Bien).

الأشياء الورلسانيّة، فما يلاحظ في الأمثلة المذكورة هو توارد /ب/ أو /فِعْل/ أو كذلك /ية/، ففي قولنا: «هي تتكلّم الإسبانية فِعلاً»، تمثّل «فعلاً» تواردا من تواردات «فِعْل»، وفي المثال «هي تتكلّم الإنجليزية فِعلاً» يوجد توارد آخر. فكلمة «فِعْل» هي المشترَك في هذه التواردات، إنّ كلمة فعل هي عبارة عن «نمط»، أي عنصر لسانيّ مجرّد يتجسّم في صورة تواردات في ما ننجز من الخطابات، وما يبحث عنه اللّساني هو النّمط. أمّا الشّيء الورلسانيّ فهو أكثر تجريداً، ويحدّد كمجموعة من الأنماط، أو إن أردنا كشيء «وَرَنمَطي».

إنّ ما يمكن أن يعايَن من الأشياء هي توارُداتها فقط، ومن ثمّ يمثل التأويل الجيد للتواردات شرطاً ضروريّاً يتوقّف عليه الوصف، بل يمكن من زاوية نظر معيّنة الاكتفاء بالتواردات، وهذا هو شأن فقه اللّغة (Philologie) الذي يهدف إلى حُسن فهم النّصوص وتوضيح صعوباتها؛ وهو يهتمّ خصوصاً بالنّصوص القديمة (نصوص لاتينية أو يونانية، نصوص الفرنسية القديمة أو الوسيطة). إلاّ أنّ المقاربة الخاصّة بفقه اللّغة الرّامية إلى تفهّم معطيات خاصّة ـ أي تحقيق النّصوص اعتماداً على المخطوطات ورصد الاختلافات والتعليق على الفقرات التي تتطلّب شرحاً بمقتضى ما فيها من صعوبات ـ تندرج ضمن علاقة جدلية مع مقاربة الوصف اللساني، وهي مقاربة أعمّ. إنّ فقه اللّغة واللّسانيات تخصصان علميّان متكاملان، ويمكن للمرء أن يشعر بأنه متخصص في فقه اللغة أو اللسانيات، لكن لا يمكن للواحد أن يكون بمعزل عن الآخر.

ما هي مواد الدراسة؟

لنفرض الآن أنّي أعرف بشيء من الدقّة الحدث الذي أروم

وصفَه؛ لا يمكنني أن أتناوله إلاّ انطلاقاً من موادّ جُمعت بحسب ما يقتضيه البحث، وتصنّف هذه الموادّ صنفين.

ـ مُدوَّنات.

ـ موادّ موضوعة وضعاً، لكنّها خاضعة لرقابة «متكلمين أكفاء» (وهم بصفة عامّة متكلمون لسانُهم الأم هو اللّسان المدروس ـ أو على الأقل لسانُهم يمثل «أحسنَ لسان»).

المدوّنات (*Les Corpus*)، ليس اختيار المدونة غير ذي بال، فهو رهين الحدث الذي يُراد درسه: إذا كان الوصف يتعلّق بلغة الإعلامية، لا تكون النتيجة هي نفسها إذا كانت المدونة المختارة مجموعة من النّصوص التقنية، أو المصنفات الرّامية إلى تبسيط المعارف أو مجرّد نصوص الصّحافة اليومية؛ فلكي تكون المدونة ممّا يمكن استغلالُه يجب أن تكون «ممثلة» ـ ممثلة على سبيل المثال للغة الإعلاميّين، أو لغة جمهور مستعملي الإعلامية الذي يتكاثر. لنفترض مدوّنة متكوّنة من تأمّلات (*Les Contemplations*) فيكتور هوغو، وملفّ تقني خاصّ بالطائرة آر باص (*Airbus*)، وبعض مجلّدات الصّحيفة **لو كانار أنشينيه** (*Le Canard enchaîné*)[14]؛ فماذا يمكن أن نعمل بهذا الخليط؟ فالمدونة يجب أن تعكس واقعاً متناسقاً قليلاً أو كثيراً: اللّغة الأدبيّة أو لغة تقنية من التّقنيات أو لغة صحف هزلية... اللّهم إلاّ إذا كان للمدونة من الاتساع (مثل القاعدة الحاسوبية المسماة فرانتاكست (FRANTEXT)، ما يجعلها تعرض صورة لما في اللّسان من تنوّع عجيب. في الطّرف المقابل تقتصر المدونة على «لهجة فردية»، أي لغة شخص واحد، فالمعارف

(14) Le Canard enchaîné، الترجمة الحرفية لهذا العنوان هي: «البطّة المغلولة»، والمعنى المجازي المقصود «الجريدة المغلولة».

اللسانية والعادات اللغوية تختلف من شخص إلى آخر، ولكلّ فرد نغمة صوتية خاصة به، ومفردات نشيطة (أي المفردات التي نستعملها) ومفردات كامنة (أي المفردات التي نفهمها)، فبقدر المتكلمين هناك لهجات فردية؛ فما هو إذاً لُسُن المجموعة؟ هل هو تقاطع اللّهجات الفردية؟ هذا يعني أنّ المجموعة تنضوي تحت لواء منْ هُم أقل معرفة به. هل هو مجموع اللّهجات الفردية؟ هذا يعني أن يوضع في باب واحد الرّصيدُ المشترك والظّواهر النّادرة، فضلاً عن المخترعات التي لا مستقبل لها، أو الأخطاء الفادحة. كلّ مدوّنة تتضمّن ظواهرَ هامشية من تعابير جريئة أو لا جدال في خطئها، ومخترعات ذات صبغة عبثيّة إن قليلاً أو كثيراً، وتتضمن أنواعاً من التّلاعب بالألفاظ، وتعابيرَ قديمة احتُفظ بها احتفاظاً مصطنعاً، وأسماء لعلامات المصنوعات تبدو كأنّها أسماء جنس (قدّم نسكافيه، وضع فيلوكسات. . .) (*servir un nescafé, poser des vélux...*)، وعثرات متفاوتة البروز للعيان (*des ennuis pécuniers; elle s'est permise de...*)[15]. ينبغي ألاّ نتصوّر أنّه يمكن قبول كل شيء من دون نقد، فتدخّل المحلّل ضروري. كما أنّه لا يمكن أن تبقى المدوّنة كشيء خام، ولنقل بهذه المناسبة إنّ للشفاهي صعوبات إضافية خاصّة به، ويجب، ليكون قابلاً للدّراسة، أن يتسنّى إثباته وهذا ما يتيحه التّسجيل، لكن تكمن الصعوبة في المحافظة على

---

(15) des ennuis pécuniers; elle s'est permise de ....، الخطأ هنا نتيجة ما قد يحدث للمتكلم من التباس، فيتوهّم بالنسبة إلى المثال الأوّل أنّه توجد صيغتان لكلمة pécuniaires، إحداهما للمذكّر، وأخرى للمؤنّث، في حين أن لها في الواقع صيغة واحدة. أمّا في المثال الثاني فالصفة الفعلية «permis» تؤنث ولكن في غير سياق المثال المذكور الذي جاءت فيه الصيغة متبوعة بفعل مقترن بأداة. وشبيه بالمثال الأوّل في العربية ما شاع استعماله في الوصف بالمصادر من نوع حق وبحق فالأصل أن تلازم صيغة واحدة فنقول القول الحقّ والصداقة الحقّ.

صبغته التلقائية، فإذا ما علم المتكلّمون بتسجيلهم وتصويرهم فإنّهم يُخضعون كلامهم ـ ولو عن غير وعي ـ لمراقبة (على ـ لسانيّة) يمكن أن تحرّف معطياته، وإذا ما سُجّل كلامُهم من دون علم منهم، فلا بدّ من الحصول على موافقتهم، أو إزالة كلّ سمة من كلامهم قد تفضي إلى التّعرف إليهم؛ زِد على ذلك أنّ المدوّنة الشّفوية تعُجّ بأنواع مختلفة من «الضّجيج» كالتّردد والانقطاع والتّداخل ما يمكن أن يجعل الكلام غير مفهوم. . . لذا سرعان ما يصبح نسخها ضروريّاً: يقتضي هذا قواعد دقيقة مما يتطلب عملاً ضخماً. هكذا فالمدوّنات الشّفوية المنسوخة، مهما كان لسانها، لها من الحجم والتنوع ما للمدوّنات المكتوبة.

المواد الموضوعة (*Les Matériaux construits*)، إنّ المدوّنة ـ مهما اتّسعت ـ لا تستوعب كلّ التوليفات الممكنة لأنها لا متناهية، فالجمل التي بصدد تحريرها ـ مهما كانت درجة ابتذالها ـ لم تُصغ قطّ من قبل على هذه الصورة، وعلى الرغم من هذا القارئ يفهمها، ومن أبرز خصوصّيات اللغة العادية إمكاناتها اللامتناهية، فالمدونة لا تجسّم، نظراً إلى صبغتها المحدودة، إلاّ جانباً ضئيلاً مما يمكن تجسيمه، ولا يتسنى حتى للضخمة منها أن تضبط، بما تقوم شاهداً عليه، حدودَ مجال الممكن، وبحسب نظرة صارمةِ الدقّة فإنّ النّحو الموضوع انطلاقاً من مدوّنةٍ ما، لا قيمةَ له إلاّ للمدوّنة المعنيّة.

إنّ المنهج الفيلولوجي البحت يقتصر على ما قامت الحجّة على استعماله؛ فاللساني يرفض في هذه الحالة أن يقدّم شيئاً، إذا لم يتمكّن بالاعتماد على شواهد محددة المصادر، من إقامة الدّليل على ما يزعم: فالشّواهد وحدها هي التي لها قيمة الحجة. وإذا ما اعتمد مدوّنةً مغلقة، والتزم وصفها بالظواهر الواردة فيها، فإنّ حقيقة الظواهر المرصودة تؤيّدها المدونة نفسها. ولهذا النوع من الأعمال

مِزيّةُ التحديد الواضح للمجال المدروس والبيان الأمين لحدود مساهمتها، وتكون هذه المساهمة مهمّة بقدر ما تكون المدونة متسعةً، هكذا تُوفّر بعض البحوث، اعتماداً على مدوّنات ضخمة، أوصافاً ذات غنىً رائع.

لكنّ اللّساني لا يمكن له ألاّ يبالي بلامتناهي اللّفيظات الممكنة، فالقواعد النحوية يجب أن تكون صالحةً لإنتاج لفيظات تنوّعُها لامتناهٍ، وفي الوقت نفسه لطرح التركيبات اللاّمقبولة.

لنفرض في مجال الفاعليّة اللاّمحدّدة نحْواً ينتج ضمن ما ينتجه اللّفيظات التالية[16]:

1 ـ لقد نُشرت كلّ أنواع الحماقات حول الموضوع.

(16) نظراً إلى اختلاف نظام الفرنسية عن نظام العربية فإن الترجمة لا تعكس نظام اللّسان المصدر فصيغ المبني للاضمير في الفرنسية لا توافق صيغة المبني للمجهول في العربية، ولئن احتفظنا في الترجمة بمعنى الأمثلة الفرنسية فصيغتها العربية لا تعكس الأبنية الفرنسية:

1 ـ On a dit toutes sortes d'inepties sur le sujet: تلفّظوا بكل أنواع الحماقات في الموضوع.

2 ـ Il a déjà été dit toutes sortes d'inepties sur le sujet.: لقد تُلفظ بعدُ بكل أنواع الحماقات في الموضوع.

3 ـ Il s'est déjà dit toutes sortes d'inepties sur le sujet.: لقد تمّ بعدُ التلفظ بكلّ أنواع الحماقات في الموضوع.

4 ـ On a déjà fait allusion à ce problème.

5 ـ Il a déjà été fait allusion à ce problème.

6 ـ ★Il s'est déjà fait allusion à ce problème.

7 ـ On est déjà parvenu à une solution.

8 Il a déjà été parvenu à une solution.

9 ـ ★Il s'est déjà parvenu à une solution.

أمّا الأمثلة من (4) إلى (9) فقد تُرجمت في صلب النصّ.

2 ـ لقد نشروا كلّ أنواع الحماقات حول الموضوع.

3 ـ لقد تمّ نشر كلّ أنواع الحماقات حول الموضوع.

4 ـ لقد أشاروا إلى هذا المشكل.

5 ـ لقد تمّت الإشارة إلى هذا المشكل.

6 ـ ★لقد قِيم بالإشارة إلى هذا المشكل.

7 ـ لقد توصّلوا إلى حلّ.

8 ـ ؟لقد تُوصِّل إلى حلّ.

9 ـ ★لقد قِيم بالتوصّل إلى حلّ.

من البديهي أنّ مَرفوضيّة المثالين(6) و(9) ـ المتعلّقين بالمبني للمجهول اللاّضميري ـ والشكّ البالغ في مقبوليّة المثال (8) يجبران اللّساني على إعادة النظر في النّحو المعني، فعمله يتمثل في الذهاب والإياب المتواصليْن بين القواعد والنتائج الناجمة عنها، وفي تكييف غير منقطع لصياغة القواعد بتجاوز ما أقرّته الشواهد حتى تلائم ما يُعتبر ممكناً، فالقاعدة تكون ملائمة إذا ما تكهنت تكهناً صائباً بكلّ ما هو ممكن ولا شيء غير الممكن. إنّ وجهة النظر هذه تجبرنا حتماً على عدم الاقتصار على المدوّنة وحدها.

وهكذا تُطرح قضيّة موضوعيّة الوصف، فمن هو الضّامن لمقبولية اللّفِيظات المنجزَة وبخاصة عند التّردد في شأنها. فإذا كان الضامن فيها اللساني نفسه فالطريقة تصبح موضوعَ أخذ وردّ، باعتبار أنّ الواصف هو منتج مواد وصفه؛ واجتناباً للدّوْر والتسلسل فلا مناص من الرّجوع إلى «مُخبِرين»، فتُدعى مجموعاتٌ من «المتكلمين الأكفاء» إلى إبداء أحكام حول مدى مقبولية اللّفيظات المنجزة («غاية المقبولية»، «ترجيح المقبولية»، «مشكوك فيه»، «لامقبول تماماً»). إنّ

مقبولية التركيبات قابلة لأنواع من الدّرجات يحيط بها شيء من الميوعة[17]:

نُقل إلي أنّ

؟ قُصّ لي أنّ

؟؟ تمّ النقل إلي أنّ...

★ تمّ القصّ لي.

إنّ طريقة اعتماد «المخبرين» تمكّن من قياس هذه الأمثلة قياساً موضوعيّاً وإفساح المجال لا للقواعد المتأكّدة فحسب (أعطانيه، لكن لا يجوز أبداً أعطاهني)[18]، ولكن أيضاً لما يخترق النحو من كلّ أنواع النزعات المختلفة (أعطِنيه، ولكن أيضاً نسمع من يقول أعطني إيّاه ولو كان هذا الاستعمال يُعتَبَر خاطئاً في التّراث النّحوي[19]؛ أحاط علماً أو أُحيط علماً[20]، لنعترف هنا بأنه يجوز التردد حول صحّة الاستعمال الثاني).

تظهر هنا فائدة الطريقة التي تسمح بتجاوز الحدود بالغة الضيق للمدوّنة والشواهد، لكن يجب أيضاً الانتباه إلى ما ينجم عنها من شِراك.

---

(17) حاولنا هنا ترجمة الأمثلة الفرنسية ترجمة حرفية.

(18) المثال الفرنسي: ★il le me donne; il me le donne، ويتمثّل خطأ المثال الثاني في تقديم ضمير الغائب على ضمير المتكلّم بحسب ما يفرضه الاستعمال. ولا يختلف الأمر في العربيّة.

(19) المثال الفرنسي: ★donne moi le donne le moi, خلافاً للمثال السابق فإنّ ضمير الغائب المفعول به يتقدّم ضمير المتكلّم مع فعل الأمر.

(20) المثال الفرنسي هو: tenez-le vous pour dit, tenez-vous le pour dit، وقد توخينا مثالاً عربياً لا صلة له به.

ـ فالخلط ممكن دوماً بين اللفيظ اللاّمقبول والمقول المُحال؛ يحصل أن يدّعى المُخبر أنه لا يُقال فرس أحمر لأنه لا وجودَ لفرس أحمر. والواقع أن [عبارة] الفرس الأحمر مفهومة تمامَ الفهم، وصياغتها سليمة نحوياً ودلالياً: فنحن نرى كما يجب، ماذا يجب أن يتوفّر ليكون الفرس أحمرَ اللّون (أي أن يكون لونه كلوْن الدّم أو الطماطم...)، والأمر مختلف بالنّسبة إلى صمت فقَري، إذ ماذا يجب أن يتوفّر ليتسنى القول إن الصّمت «فقريّ»؟ فمجموعة كهذه سَقيمة التكوين دلاليّاً.

ـ قد يُدخل نوع آخر من الخلط الاضطرابَ على الحكْم: فقد يمكن ألا يُفكّ اللّفيظ من أجل تعقّده مع أّن صياغته النحوية سليمة، فانطلاقاً من:

ـ عيَّن رئيسي زميلاً.

ـ هذا الزميل أعدّ ملفاً.

ـ هذا الملفّ ضاع.

يعسر قبول دمج هذه الجمل بعضها في بعض على النحو التالي:

إنّ الملف الذي أعدّه هذا الزميل الذي عيّنه رئيسي ضاع[21].

وهذا، على الرغم من التطبيق السّليم للقواعد النحوية، إذ لم

---

(21) النص الفرنسي: Mon patron a désigné un collègue - ce collègue a constitué un dossier - ce dossier a disparu.

ينتج عن إدماج هذه الجمل بعضها في بعض: ★Le Dossier que ce collègue que mon patron a désigné a constitué a disparu.

والواقع أن الترجمة العربية للنصّ الفرنسي المدمج لا يستعصي فهمُها ولكنها تتسم بالثقل لورود اسميْ موصول متعاقبين.

يقع الإخلال هنا بأيّ قاعدة، لكنّ الدمج يتجاوز ما يمكن أن تتصرّف فيه الذاكرة.

- يوجد مصدر آخر للخلط راجع إلى اختلاف المعايير: فهل تتّسم أعطني إياه بسلامة التركيب؟ كلاّ بحسب معيار الفصاحة؛ نعم بحسب معيارٍ أكثر مرونة. لذا يجب الاتفاق من البداية على المعيار أو المعايير التي يُرجى قبولها.

كلّ هذا من شأنه أن يعقّد العمل تعقيداً شديداً؛ على أنّ الحكم في شأن المقبولية يكوّن للوصف معطىً لا يعوّضه شيءٌ إذا ما تمّت السيطرة عليه السيطرةَ اللازمة، وقد أفادت منه اللسانيات بعداً تجريبياً: تُصاغ القواعد، وتقود اللفيظات المتولّدة عنها، أمقبولة كانت أم مرفوضة، إلى إعادة صياغتها، ويتجدد العمل إلى أن تتمّ أحسنُ ملاءمة ممكنة.

إنّ هذا المنهجَ أقلّ بعثاً على التجديد مما يُظنّ، فالتصانيف النحوية والقواميس تخصّص دوماً مجالاً واسعاً «للأمثلة الموضوعة»، وقليلةٌ هي التي ترفضها باسم الموضوعية الفيلولوجية على غرار **قاموس أكسفورد الإنجليزي** (*Oxford English Dictionary*)، أو **مكنز اللّسان الفرنسي** (*Trésor de la langue française*). يمكن أن يكون للمثال الموضوع فائدة كبيرة: فعادةً ما تصطدم الشواهد المأثورة بعقَبَة التعقيد، إذ تتداخل فيها ظواهر عدّة؛ ومن ناحية أخرى فإنّ تأويلها مرتهن شديد الارتهان بالسّياق الذي أنتجت فيه، فهي موسومة تاريخياً وحتى إيديولوجياً، ولذا يمكن أن تظلّ مُلغزة لمن يجهل الظروف الحافزة لها، وكثيراً ما لا تنكشف دلالتها إلاّ بتمام النّص وكماله، بل بآثار المؤلّف الكاملة أو التيار الفكري الذي تندرج فيه. ففي مدخل (*Déracinement*) «انبتات» الوارد في **مكنز اللّسان الفرنسي** لا يفهم الشاهد الذي يذكره **مكنز اللّسان الفرنسي** للكاتب برّاس

(Barrès) إلا في ضوء تصوّر شامل للمحيط الاجتماعي والرسوخ اللازم في تُربة معينة، فمن المستحيل الفصل بين الشواهد والثقافة التي أنتجتها؛ خلافاً لهذا فإنّ الشاهد الموضوع والمستقل عن كلّ مقام واقعي يحصر الاهتمامَ في مجرّد الحدث اللّساني الذي وُظّف لتمثيله؛ فهو «ذاتيّ الدّلالة»، أي أنّه لا يحيلنا على العالم بل يحيلنا على نفسه، ويتجلّى شيئاً تمثيلياً، ويكشف الواقعَ اللّسانيّ ذاتَه فلا يكون له أي غاية أخرى؛ وعلى كلّ فكثيراً ما يصاغ الشّاهد الموضوع انطلاقاً من لفيظات أصيلة. إذا ما انطلقنا من المثال التالي: «قضى برينوزا يومين طويلين لينقل أثاثه». (دوهامال (Duhamel)، **مكنز اللّسان الفرنسي** (*TLF*)، مدخل déménager[22]) يمكن بحذف الاسم العلم والظّرفيّات[23] صياغة الأمثلة التالية: نقْل أثاثه؛ نقْل الأثاث[24]، نقْل شيء. بمثل هذه التبسيطات المتعاقبة والتي تجعل من اللفيظ نمطاً مجرداً، وتخلّصه من كلّ تأثير مقامي، يكون المثالُ الموضوع كفيلاً بالتّمثيل اللّساني أحسنَ تمثيل. وهكذا تتكوّن كميّة من وثائق ثانوية غير تلقائية بل موضوعة، من شأنها أن تُتمّم بصفة ناجعة المعطيات التي يكرّسها الاستعمال.

ما هي مناهج الوصف؟

من اليسير أن نتصوّر أنّ التقنيات الوصفية تختلف شديد الاختلاف بحسب ما يختاره المرءُ من الأغراض، وما يحدّده لنفسه

---

(22) déménager، نقل، انتقل.

(23) Les circonstants وهو في المثال ما يقابل المفعول فيه.

(24) صيغة الفعل المستعملة في المثالين الأخيرين هي ما يعرف في الفرنسية بـ l'infinitif، وهو الفعل غير المصرف بالضمائر، وأقرب صيغة منه في العربية هي المصدر، وإن كان يختلف عنه اختلافاً كبيراً.

من الغايات؛ على أنّ ما تختصّ به بعض المناهج من أُلفة الاستعمال والنّجاعة والتطبيق الكوني يجعلنا نسعى إلى أن نعرض على الأقلّ فكرة عنها.

ونصنّفها كالتّالي:

- المناهج الاستبدالية ومعايير الإفادة.
- المناهج التوليفية؟
- المناهج التحويلية.
- المناهج الدلالية والاستدلالية.
- المناهج الكمّية.

المناهج الاستبدالية ومعايير الإفادة

بيتي، بيتك، بيته، بيتنا[25]... كلّ من «ي»، و«ك»، و«ـه»، و«نا» يمكن أن «تُستبدل»، بمعنى أنه يمكن تعويض بعضها ببعض في محيط معيّن، وتكوّن هذه الاستبدالات (جريدا) «براديغم» (Paradigme)، وهذه التقنية قديمة قِدم النحو نفسه، لكن اللّسانيات أكسبتها صبغة انتظامية واستمدّت منها كلّ ما يمكن أن يُستمدّ.

تمارَس العملية بادئَ ذي بدء على وجهيْ الدّليل: بيت تتكوّن من سلسلة أصوات: /بـَ - ي - ت/؛ وتحيل هذه الأصوات على شيء من أشياء العالم، أي على صنف من المساكن. تمثل بيت دليلاً، ولها ككلّ دليل دالّ (تتابع أصوات، وبصفة أدقّ الصّورة التي

(25) ترجمنا المثال الفرنسي maison بمقابله العربي «بيت» ويعبّر في الفرنسية عن نسبة الشيء إلى صاحبه بواسطة المِلكيّات (les possessifs) وتعتبر من قبيل الصّفات ومقابلها في العربيّة صنفٌ من الضّمائر المتّصلة لا تنتمي بطبيعة الحال إلى المقولة النحويّة نفسها.

يستبطنها المتكلّم منها وتفضي على غرار النمط إلى تواردات) ومدلول (معنى بيت الذي يمكّن من الإحالة على بعض أشياء العالم).

في ما يخصّ «ي»، «كـ»، «ـه»، «نا»، يمارَس الاستبدال على دلائل دنيا (تسمّى «صياغم» (Morphèmes))، وهي في هذا الصدد صياغم الضمائر؛ وفي ما يتعلق بـ «بيتي» المقابل لـ «منزلي» يُستبدل بيت ومنزل باعتبارهما صياغِم أيضاً، وهما وحدتان دُنياوان على صعيد المدلول، ويمكن تعويض أحدهما بالآخر في بعض السياقات؛ وفي بُيَيْتي يكشف الاستبدال (على سبيل المثال مع ـه/ ومع طاولة / ومع وزْن التصغير) عن ثلاثة صياغم هي «ـي» (ضمير المتكلّم)، و«بيت»، و«وزْن التصغير» الذي له هو أيضاً معنى (أي معنى التّصغير).

ويمارَس الاستبدال أيضاً على صعيد الدّالّ: ليس لـ «بيت» و«زيت»[26] المعنى نفسه، فهما صيْغمان مختلفان، وما يميّز أحدهما عن الآخر على صعيد الدّال هو الصوت الأوّل (/بـ/ ـ /ز/)؛ وتسمى الأصوات ذات القيمة التمييزيّة صواتم (Phonème)؛ وليس لـ/بـ/ و/ز/ معنى في حدّ ذاتهما، وليسا من الدّلائل، فهما خاليان من المدلول، لكنّ لهما قيمة تمييزيّة فـ/بـ/ و/ز/ صوتمان في العربية.

هكذا نصل إلى مفهوم محوري أساساً، إجرائي في كلّ ألسن العالم، وحاسم في وصفها: هو مفهوم الإفادة. لقد ظهر هذا المفهوم تاريخيّاً خلال العشرينات عند علماء الصّوتمية من حلقة براغ (Prague). تُحدث أعضاء التصويت (الأوتار الصوتية واللّهاة واللّسان والشّفتان. . .) دفقاً صوتيّاً لا يمكن هيكلته إلاّ عن طريق تحليل

---

(26) المثال الفرنسي هو «raison» (عقل) المختلف عن «maison» بالصوت الأول.

وظيفي: «*Bien*» (خير أو متاع) تختلف عن «*chien*» (كلب) بالصّوت الأول: /b/ و/ch/ صوتمان؛ تختلف «*bien*» عن «*biais*» (منحرف) بالصّوت الأخير، فـ/ in/ و/é/ صوتمان؛ تختلف «*bien*» عن «*brin*» (قشّة ـ قذاة) بالصّوت الأوسط، فنصف الصّامت و/r/ صوتمان. لننظر الآن إلى نصف الصّامت من «*bien*» ومن «*chien*»، فهو مجهور في «*bien*» (تنزّ الأوتار الصوتية)، ومهموس في «*chien*»، وهذا ما تبرزه التّسجيلات السمعية بلا منازع، وتقترب في «*chien*» بالألمانية «Ich - Laut»: لكن لا يوجد في الفرنسية أيّ زوْج من الصّواتم يتمايزان بمجرّد المقابلة بين نصف الصامت المجهور ونصف الصامت المهموس، فنقول إنّ نصف الصامت غير المجهور ما هو إلاّ «بديل تعاملي» لنصف الصامت الذي هو مجهور عادة؛ فالصّوت الأول المُشأشأ (شَجْري غير طنان) غير المجهور من «*chien*» (خلافاً لـ/j/ من Jambe السّاق) هو الذي يؤخّر نزيزَ الأوتار فينزع الجهرَ عن نصف الصّامت؛ إنّ المقابلة بين تحقيق نصفيْ الصامتين ليست مفيدة في الفرنسية، وليس نصف الصامت الفاقد للجهر صوتماً، إذ ليس له قيمة وظيفية[27].

تخترق فكرة الإفادة كلّ التحاليل اللّسانية. هكذا يمكن أن نذهب إلى ما هو دونَ الصّوتم على صعيد الدّال، ودون الصيغم على صعيد المدلول، ويفضي بنا البحث إلى «السِّمات»؛ يتسنّى إعطاءُ فكرة عنها

(27) يمكن اعتماد المثال التالي في العربية: تختلف «تاب» عن «تاق» بالصوت الأخير، فـ /ب/ و/ق/ صوتمان؛ لكن لننظر الآن في الفتحة الطويلة في كلّ من تاب وطاب، فهي في طاب تنحو إلى الضمّة بتأثير الطّاء المفخّمة خلافاً لـ تاب. لكن لا يوجد في العربية زوْج من الصوائت يتميّز أحدهما عن الآخر بمجرّد التّفخيم؛ لذا نقول إنّ الفتحة الطويلة المفخّمة هي «بديل تعاملي» للفتحة التي هي في الأصل غير مُفخّمة. إن تحقيقيْ الفتحة الطويلة ليس مفيداً في العربية، إذ ليس له قيمة وظيفية.

بتقديم مثالين بسيطين[28]. لا يتمّ التقابل في العربية بين /ت/ و/د/، و/ت/ و/ف/ بالطريقة نفسها، فـ/ت/ و/د/ تشتركان في النطق بهما من حيز واحد، أي من غار الفم، فهما صوتمان من مغارز الأسنان، أمّا /ف/ فمخرجه من شفوي أسناني؛ يختلف /د/ عن /ت/ بأن الأوّل مجهور (تنزّ الأوتار الصوتية)، والثاني مهموس؛ هكذا تتجلّى السمات الصوتميّة: الشّفويّة الأسنانيّة والجهر. . . ويُبنى النظام الصوتمي للسان ما انطلاقاً من عدد ضئيل من السمات.

على صعيد المدلول تسمّى السّمات «سَيْمات». ما الفرق بين الرّهْمة (*ondée*) والغَبْية (*giboulée*)[29]؟ إحداهما مطر شديد والأخرى قليل الشدّة، فالشدّة هنا سيْم يميّز بين الرّهمة والغبية؛ وما الفرق بين الغبْية والرذاذ؟ الرذاذ كالغبية قليل الشدّة، لكنّ الفرق بينهما أن الرّذاذ مسترسل في حين أن الغبْية ـ وهي أشدّ منه ـ سريعة التوقّف، فالمقابلة بين الاسترسال وسرعة التوقّف مقابلة سيْميّة أخرى. والمقابلة بين الدّيمة والبسار مقابلة جغرافية، فالبسار مطر يدوم على أهل السند[30]. هكذا تتجلّى أمامنا أنواع مختلفة من المقابَلات، وتمكّن تقنية

---

(28) الترجمة الدقيقة للنص الفرنسي هي: يمكن إعطاء فكرة عنها بمثالين بسيطين. في الفرنسية لا يتقابل بالطريقة نفسها الصوتمان /t/ و/d/، والصوتمان /t/ و/p/ فـ /t/ و/d/ يشتركان في النطق بهما من مكان واحد هو الغار الفموي، فهما مغارزيان أسنانيان؛ وتنطق /p/ بالشفتين، فهي شفوية؛ تختلف /t/ عن /d/ بالجهر فـ/d/ مجهور (تنزّ الأوتار الصوتيّة)، وليست كذلك /t/، هكذا تتجلى سمات صوتية: الشفوية والجهر. . . .

(29) من العسير الفوز بمقابل دقيق للأمثلة الفرنسية الدّالة على المطر على الرغم مما توافره المعاجم العربية من أسماء للمطر ليست شروحها دائماً دقيقة وموحّدة (انظر: **المخصص**، لابن سيدة). ولا يبدو أن الأسماء الفرنسية أحسن حظاً، فالمؤلّف يقابل على سبيل المثال بين «ondée» و«giboulée» باعتبار أن الاسم الأوّل معناه المطر الشديد والثاني معناه المطر الخفيف اللّين، لكن لا نجد في معجم *Robert* مثل هذا التمييز الدقيق.

(30) يقابل المؤلف بين «bruine» (رذاذ) و«crachin» الذي هو مطر ينزل قرب المحيط، ولم نترجم ذلك حرفياً، وإنّما اعتمدنا مثالاً عربياً فيه السّيْم الجغرافي وهو المقصود من قبل المؤلّف.

الاستبدال ومبدأ الإفادة من هيكلة المعطيات في كلّ المستويات. لنأتِ بمثال آخر هو مثال الرّديف bien : *Il parle fort bien l'anglais* (يتكلّم الإنجليزية بشكل جيّد للغاية) يقابل *Il parle mal l'anglais* (يتكلّم الإنجليزية بشكل رديء)؛ لكن في *Il a bien perdu son portefeuille* (أضاع فعلاً حقيبته) لا وجه لاستبدال *Il a mal perdu son portefeuille*★ هكذا يتجلى للرّديف «*bien*» استعمالان اثنان: رديف يسمّى «رديفَ مكوّنٍ» (فـ *bien* أو *mal* تتعلّق بالمجموعة الفعلية)، ورديف يسمّى «رديفَ جملة» (تتعلّق *bien* بحقيقة الجملة: «هذا ما وقع: فقد أضاع حقيبته فعلاً»)[31].

لكن في مواطن أخرى يمكن أن يبقى الاستبدالُ غير إجرائي، ففي *Elle veut qu'il vienne* (تريد أن يأتي) لا تُستبدل الصيغة الاحتمالية بالصّيغة الإشارية (قارن بـ *Il cherche une personne qui connaît ses parents* (يبحث عن شخص يعرف أبويه) - من المفروض أنّ هذا الشخص موجود؛ *Il cherche une personne qui connaisse ses parents* (يبحث عن شخص يمكن أن يعرف أبويه) - هل لهذا الشخص مِن وجود؟). في *Elle veut qu'il vienne* فإن الصيغة الاحتمالية انجرّت آلياً بالفعل *vouloir* (أراد)، فالظاهرة هي هنا ظاهرة توليفيّة، وتمثل التّوليفيّة جانباً آخر من الوصف اللساني له الأهميّة نفسها[32].

---

(31) هذا مثال عربي يمكن أن يعين على توضيح الأمور، وهو مثال المصدر «حق»، فاللّفيظ «قال كلاماً حقّاً» يقابل «قال كلاماً باطلاً»، لكن لا يمكن أن نقابل قولَنا «أضاع حقيبته حقّاً» «أضاع حقيبته باطلاً» فلهذا المصدر استعمالان، استعمال يوصف به أحد مكونات الجملة واستعمال يتعلّق بكامل محتواها.

(32) هذا مثال عربي لتجسيم تأثير التّعامليّة في التركيب: ففي «طلب منّي صديقي أن أعينه» لا يستبدل المضارع بالماضي. فالمضارع قد انجرّ استعماله حتماً عن التركيب المصدري فلا يمكن تعويضه بالماضي.

المناهج التوليفية

نترك المحور الاستبدالي للبراديغمات (للجريدات) لنتناول محور التوليفات المسمى بـ «لمركباتي». من التوليفات ما هو مشروع، بينما منها ما ليس هو كذلك، وهذا أمر أساسي في الوصف. ففي «يتقن الإنجليزية إتقاناً»، يقبَل المفعول المطلق التأكيد (يتقن الإنجليزية إتقاناً كليّاً، إتقاناً كلّياً جدّاً، حقّ الإتقان...)، لكنّه لا يَقبل التأكيدَ في «أتلف محفظته حقّاً» (★ أتلف محفظته حقّاً جدّاً)[33]. فنحن نقبل: «أعطاكه، ولا سبيل لقبول «★أعطاه كـ»[34].

كثيراً ما يتغيّر معنى الصّرافم (morphèmes) بحسب توليفيّتها. هذا هو شأن الفعل composer: (ركّب، ألّف).

- *qqn compose qqc.* (بعضهم يركب أو يؤلّف أو ينسّق شيئاً) (موسيقى، باقة زهور، فريقه...) تعني *composer* هنا «جمّع عناصر بطريقة متناسقة لتكوين [كلّ]».
- *qqn + qqn + ...ou qqc. + qqc. + ...composent qqc.* (بعضهم + بعضهم ... شيء + شيء ... يكوّنون شيئاً) (الأشخاص الذين تتكوّن منهم اللّجنة، القِطع التي تتركّب منها آليّة، تفيد *composer* هنا «أن تُجمّع الكائنات أو الأشياء بطريقة متناسقة لتشكيل [كلّ]»؛
- *qqn composer avec qqn.* (شخص يتفق مع شخص)، تفيد

---

(33) الترجمة الدقيقة للنصّ الفرنسي: في «Il parle bien l'anglais» (يتكلّم الإنجليزية جيّدا).

يَقبل «bien» التأكيدَ (Il parle très bien / fort bien / vraiment bien... l'anglais).

يتكلّم الإنجليزية جيّدا للغاية/ حقّاً...؟ ولا يقبله في «Il a bien perdu son portefeuille».

(34) تقبل «Je ne l'en dissuaderai pas» (لا نصرفه عن فعل كذا...)، لكن من الثابت عدم قبول (★Je l'en ne dissuaderai pas)، سبب الرفض هنا هو تقديم الضميرين على النفي والفعل.

composer هنا «التوصل إلى التفاهم مع آخر» (أن يجمّعا بطريقة متناسقة متناغمة لا تنازع فيها عناصرَ تربط شخصاً بآخر)[35].

المناهج التحويلية

لمصطلح «التحويل» هنا المعنى الذي يضعه فيه اللّساني الأمريكي ز. هاريس (Z. Harris): الانتقال من لفيظ إلى آخر بواسطة منهاج يطبّق على أصناف اللّفيظات. من هذا تحويل النّفي:

يتكلّم ← لن يتكلّم.

يأتي ← لن يأتي.

كان غنياً ← لم يكن غنيا.

لكنّ التّحويل بالنَّفْي لا ينطبق على اللّفيظات كلها، وهذا مقياس بليغ النجاعة لكشْف بعض الظواهر (على سبيل المثال استعمال رديف الجملة).

Il parle bien l'anglais → *Il ne parle pas bien l'anglais*

يتكلّم الإنجليزية جيّداً ← لا يتكلّم الإنجليزية جيّداً.

← *Il a bien perdu son portefeuille* (أُتلف محفظته حقّاً)

---

(35) مثال عربي:

ألّف الشيء (الكتاب - التقرير...)

تفيد ألّف هنا: وضع وجمع.

ألّف بين (شيئين)؛

تفيد ألّف هنا: جمع بينهما.

ألّف (الشيء)

تفيد ألّف هنا: وصّل بعضه ببعض.

(لـم يـتـلـف مـحـفـظـتـه حـقّـاً)[36] ★Il n'a pas bien perdu son portefeuille.

بالإضافة إلى التّحويل بالنّفي نستعمل في اللّسانيّات الفرنسية للكشف اللّساني بخاصّة:

- التّضمير (أو التّحويل الضّمائري):

يعتبر هذه النتائج كارثة ← يعتبرها كارثةً (أي النتائج)

يعلّق (بلا مجاملة) على هذه النتائج بأنّها كارثة ★ ← يعلّق عليها كارثةً (هذه النتائج).

[في الحالة الأولى «كارثة» خبر، وفي الثانية حال لنتائج]؛

- البناء للمجهول (Passivation).

يعتبر المرء هذه النتائج كارثة ← هذه النتائج تُعتبَر كارثة.

يعلّق المرء (بلا مجاملة) على هذه النتائج بأنّها كارثة ★ ← هذه النتائج يُعلَّق عليها كارثةً.

- الاقتلاع (أو تغيير الموضع) (extraction).

يعتبر هذه النتائج كارثة ← هذه النتائج يعتبرها كارثة

يعلّق على هذه النتائج الكارثة (بلا مجاملة) ★ ← هذه النتائج يُعلَّق عليها كارثة

- الافتراع (clivage, c'est qui / c'est que) (التّحويل بواسطة هذا هو...الذي/ هذا...هو)

(36) المقابل العربي مقبول خلافاً للّفيظ الفرنسي.

يعتبر هذه النتائج كارثة ← هذه هي النتائج التي يعتبرها كارثة.

يعلّق على هذه النتائج الكارثة ★ ← هذه النتائج هي التي يُعلّق عليها كارثة[37].

- الاشتقاق[38]:

إنّ من يعجز عن تسيير شؤونه يسمّى قاصراً، لكن لا يسمى قاصراً من يَقْصُر الشيء، أي يجعله أقلّ طولاً. والقصّاب هو الجزار، لكنّ الذي يقصّب (يقطع) أشياء أخرى ليس قصّاباً. وبصفة إجمالية فالمفردة قابلة لهذا النوع من الاشتقاق أو ذاك بحسب المعنى الذي يُعتمد فيها[39].

إنّ المناهج التحويلية تمتّ بصلة إلى الاستبدالات لكنّ الاستبدالات تمارَس هنا على الجمل لا على وحداتها.

المناهج الدلالية

إنّ الإجراء الحاسم للوصف في مجال المعنى هو الاستدلال، فالقول (أ) يُستدَلّ منه (يقتضي) القول (ب) إذا كان، وإذا كان فقط (ب) - اعتباراً أنّ (أ) حقّ - بالضّرورة حقاً. إذا كان [قولُنا] قطفت

---

(37) في كلّ هذه التحويلات يوجد شبَه ملحوظ بين الفرنسية والعربية، لذا ترجمنا الأمثلة الفرنسيّة ولاحظنا أن كلّ ما تعذّر في الفرنسيّة تعذّر أيضاً في العربيّة.

(38) المثال الفرنسي هو: Quelqu'un qui compose de la musique est un compositeur (من يضع الموسيقى فهو ملحّن)، أي يمارس التلحين؛ Quelqu'un qui compose avec quelqu'un n'est pas un compositeur (الذي يتفق مع شخص آخر) لا يسمى compositeur (ملحّناً). Le fruitier est celui qui vend des fruits (الثمّار) هو الذي يبيع الثمار، celui qui recueille les *fruits* de son travail n'a rien à voir avec un fruitier لكنّ (الذي يحصل على ثمرة عمله ليس «ثمّاراً»)..

(39) الاشتقاق المعني في النصّ هو الذي يحصل بإضافة لاحقة في آخر الجذر.

ورداً حقّاً كان إذاً قولنا قطفت زهوراً حقّاً، فقطف الورد مستحيل من دون قطف الزهور (لا يمكن بطبيعة الحال إثبات العكس).

إنّ الاستدلال ومقابله (لم تقطف زهوراً، إذن لم تقطف ورداً) يمكّنان من رصْد عدد كبير من الظواهر، ومن ثمّ وصْفها، فعلاقة **الاحتواء** هي هنا: الزّهرة تحوي الوردة («الجنس القريب»)، فالوردة زهرة، وصنف الورد متضمَّن في صنف الزهور).

إذا كان الاستدلال صحيحاً في الاتجاه وآخَر (إذا كان قولنا يتكلّم الإنجليزية بصفة رديئة صادقاً، فقولنا لا يتكلّم الإنجليزية جيّداً صادق أيضاً، والعكس كذلك)، فإنّ العلاقة هي علاقةٌ **صَوغية**. فالجملتان (أ) و(ب) هما في علاقة صوغيّة إذا كانت إحداهما حقّاً فالأخرى حقّ حتماً، وهذا لا يعني أنّ الجمل الصّوغية تُستعمل على السواء في كلّ المقامات: فقولنا إنه لا يتكلّم الإنجليزية جيّداً يقصي الجملة يتكلّم الإنجليزية جيّداً؛ يمكن أن يظنّ ظانّ أنه يتكلّم الإنجليزية بإتقان، وأن بعضهم قال ذلك أو أَوْحَى به. وليس هذا ما يفيده قولنا: يتكلّم الإنجليزية بصفة رديئة، فهذه الجملة لا تعارض أيّ شيء منتَظَر، فهي مجرد تسجيل للأمر الواقع. من الممكن إذن أن تنتج الصَّوغتان عن عمليتين دلاليّتين مختلفتين، فليستا صوغتين إلا باعتبار شروط الحقّ المشتركة بينهما.

يمكن أن يوصف **التّدالّ** أيضاً (دلالة اللُّفاظة على معانٍ كثيرة ممكنة) بواسطة الاستدلال، فاللُّفاظة التداليّة تفضي إلى استدلالات لا يتعلّق بعضها ببعض باستدلالات. فمن قولنا: بعضهم (1) يمنع أمراً عن بعضٍ (2) يمكن أن نستدل أنّ بعض (1) الناس يعترض على أن يحصل بعض (2) على هذا شيء أو أن يفعله، ومن قولنا **بعضهم** يمنع جاره من. . . نستدل أن **بعضهم** يحمي جاره من أحد أو من شيء، ولا توجد علاقة بين هذين الاستدلالين، فكلاهما مستقلّ عن الآخر بالنظر إلى الحقيقة.

إنّ الاستدلال هو بين يدي اللساني أداة ضرورية، لكن علينا أن نبادر إلى القول إن فوارق مهمة تفصل بين الاستدلال اللغوي واستدلال المنطق الكلاسيكي.

ـ يمكن أن يكون الاستدلال اللّغوي «غير رتيب»[40] (Monotone)، إنّ ظاهرة طيران الطّير يمكن التحقق منها بصفة عامّة، فمن قولنا (س) هو عصفور نستدلّ أنّ (أ) يطير. لكنّ الاستثناءات ليست هنا منعدمة: فالدّجاجة لا تطير وكذلك النعامة ولا البطريق. يكون الاستدلال عادة سليماً، لكن لا يُستبعد بطلانه هنا أو هناك؛ فهو غير رتيب وسلامته مضمونة طالما أنّه لا يوجد داع للطعن فيه.

ـ يمكن أن يكون الاستدلال اللّغوي «ذا افتراض سابق»، ويكون في هذه الحالة قابلاً للنّقاش في الحوار، فقولنا زيد يرغب في الطلاق يقتضي أن زيداً متزوّج، كما يقتضي قولُنا زيد لا يرغب في الطلاق أنّه متزوّج. إجمالاً فإن القول **(أ)** وعكسه **(لا أ)** يفضيان إلى صدق **(ب)** (زيد متزوّج)، وبمُقتضى «الثّالث المرفوع»، فباعتبار أنّ **(أ)** لا يكون إلا حقاً أو باطلاً، فإنّ **(ب)** حقّ في الأحوال كلها (إذ إنّ **(ب)** حقّ إذا كان **(أ)** حقاً وحقٌّ أيضاً إذا كان **(أ)** باطلاً). لكن من يوافق على أنّ **(ب)** حقّ حتماً؟ كان من الممكن ألا يتزوّج زيد، فيتغيّر مجرى الأحداث لأبسط الأمور؛ ويمكن للمخاطَب فعلاً، إن كان يظنّ أن زيداً غيرُ متزوّج، أن يكشف أنّ كلامي مُحالٌ؛ توجد مسالك للخروج من هذا الارتباك، لكننا نقتصر هنا على بيان أنّ الاستدلال الكلاسيكي غيرُ كافٍ.

ـ يمكن أن يكون الاستدلال اللّغوي «حوارياً». لنفْرض أنني

(40) مصطلح رياضي يدلّ على الاتجاه الواحد.

أسأل زيداً هل له ذرّية، فيجيبني: «نعم لي بنت»؛ لكنني أكتشف أن ليس لزيد بنت فقط بل أنّ له أيضاً خمسة أبناء. ويجيبني زيد بهدوء وقد عبّرت له عن استغرابي بأنه إذا كان للمرء بنت وخمسة أبناء فذلك يدلّ على أن له بنتاً، وهكذا لا يليق بي بأن أتّهمه بالكذب. أفليس هذا الجواب من قبيل السّخرية؟ الواقع أنّ الزعم اللغوي لا يدّعي الحقّ فحسب بل أيضاً يقدّم عادة للجواب عن سؤال، مطروح أو مُفترض، أقصى ما يعتبر حقّاً (أقول الحق كلّ الحقّ)، وهذا ما يسميه اللّساني هـ. ب. جرايس (H. P. Grice) «قاعدة حواريّة»، فمن المشروع أن أستدلّ من جواب زيد أنّ له بنتاً فقط، فهذا استدلالٌ «حواري»، والأجدى ملازمةُ الحذر في ممارسة الاستدلال.

المناهج الكمية

تبدو المناهج الكمّية ذات أهمّية ثانوية بالنظر إلى المناهج الكيفيّة، ومع هذا فهي أهمّ من أن يُستخَفّ بها، فالظّواهر اللّسانيّة يمكن أن توصف أيضاً بالاعتماد على تواترها، وعلى الارتباطات القابلة للعدّ، هكذا فإن الصّرافم الأكثر تواتراً في الألسن كلها هي الأكثر تعقيداً في الاستعمال، فالصرافم النحوية تمثّل وحدها (حوالى ثلاثمئة في الفرنسية) نصفَ التواردات، وتندرج أصنافُ التواردات التي تضمّ أكثر عدد من الصرافم ضمن أقلّها تواتراً (بقدر ما ترد الكلمة تقلّ الكلمات التي لها التوارد نفسه: وحتى في مدوّنة ضخمة، الصّنف الأكثر عدداً هو الذي له توارد (1) ثمّ يأتي توارد (2)... إلخ). ومن البديهي أن يكون ثراءُ رصيد الألفاظ رهينَ حجم المدوّنة، لكنّ قانون التكاثر تكون له، إذا كانت المدونة متجانسة، صورةُ خط بياني زائدي المقطع، فبقدر ما تكبر المدوّنة ينقص مفعول الحجم في ازدياد الثروة، فهذه كليات كمية ضمن عدد كبير منها، ودراستُها بدقّة ليست مما لا يُكترَث به.

لكنّ أهمّ مساهمة في مجال الوصف هي ذات صبغة ارتباطية، فالظواهر اللّسانيّة يمكن أن تكون مستقلّةً تمامَ الاستقلال، ويمكن أيضاً أن يرتبط بعضها ببعض إنْ قليلاً أو كثيراً، ويسمح الحسَاب بإبراز ما له دلالة من الناحية الإحصائية (وليس ناتجاً من مجرّد قوانين الصّدفة) وبضبط أهمّيته ضبطاً دقيقاً. هكذا يمكن أن نبيّن أن استعمال الأزمنة النحوية في الفرنسية ليس مستقلاً عن أنماط الفعل، فالأفعال المفضية إلى حالة ناتجة (كـ *sortir* (خرج) المفضي إلى نتيجة *être sorti* (تمّ خروجه)) لها نزعة شديدة في السّرد إلى أن تُستعمَل في الماضي البسيط (Passé simple)؛ أمّا الأفعال التي ليست لها حالة ناتجة (كـ *marcher* (مشى)) وêtre . . .[41] فيفضَّل استعمالها في صيغة ماضي الدّيمومية (Imparfait). إنّ النّحو يتضمّن قواعدَ ثابتة، لكنه أيضاً مجال نزعات متنوّعة يمكّن الإحصاء من إبرازها. ومن ناحية أخرى فإن الظواهر عُرضةٌ للتبدّل بحسَب العصور، وبحسب مستويات اللّسان، وبحسب أنماط النّصوص؛ كلّ هذا يمثّل ارتباطات هي هنا من قبيل الارتباطات الخارجية التي تسمح المقاربةُ الإحصائية بضبطها كمّياً، وتُكسِب التقنيات الكمّية الوصفَ موضوعيةً جديرة بالاعتبار.

هكذا يتجلّى تنوع المناهج؛ وبالإضافة إلى وظيفتها الوصفيّة فإنها تشترك في مزيّة التمكين من الاستكشاف، إذ تقوم بدور المُجلّي الذي يسمح بإبراز ظواهر متنوّعة. لكن ينبغي ألا تبقى الملاحظات مشتَتةً، والمشكل يكمن أيضاً في هيكلتها هيكلة يبرُز منها تناسقٌ وصفيٌّ، وهذا ما سنعمل الآن على التفكير فيه.

---

(41) أقرب مفهوم لهذا الفعل هو الكينونة، ويسمى عادة فعلاً مساعداً (auxiliaire)، يستعمل لربط الفاعل بالخبر وإفادة الزمان في الجملة التي يرد فيها، كما يستعمل في تصريف الأفعال الضميرية (verbes pronominaux).

كيف يُهيكَل الوصف؟

التظافرات الوصفية

من غايات الوصف إيجاد تظافرات وصفية بواسطتها تتّضح أكثر فأكثر حدودُ الظواهر، فيعبَّر عن الانتظامات بصياغة متزايدة الدقّة.

لنعد إلى الرَّديف *bien*؛ لقد رأينا أنه بحسب مجموعة من المقاييس يتحقق التقابل بين رديف المكوّن (*Il parle bien l'anglais*؛ يتكلّم الإنجليزية جيّداً)، ورديف الجملة (*Il a bien perdu son portefeuille*؛ أتلف حقيبته فعلاً)؛ ولا يقبل هذا الأخير النفي (*Il n'a pas bien perdu son portefeuille*★، لم يتلف حقيبته فعلاً)[42]؛ كما لا يتحمّل الافتراع (من التفرّع والانفلاق (Clivage)) بالطريقة نفسها (*C'est l'anglais qu'il parle bien, pas l'espagnol*، الإنجليزية هي التي يتكلّمها بإتقان لا الإسبانية)، ولا يمكن أن نقول (*C'est son portefeuille qu'il a bien perdu, pas...*★ حقيبته هي التي أتلفها فعلاً)[43]؛ ولا يقبل رديف الجملة *bien* التأكيد (*Il a très bien perdu son portefeuille*★، ★أتلف حقيبته شديد الإتلاف، وليس له ضِدّ (*Il a mal perdu son portefeuille*★، ★أتلف حقيبته إتلافاً رديئاً)[44]، ويستدعي استدلالات لا يعرفها النمط الآخر (أتلف حقيبته، هذا صحيح، الأمر كذلك، هو واقع . . .). تَصلح هذه المقاييس، مع

---

(42) النفي يبدو مقبولاً في الترجمة، ويمكن تجسيم استحالة النفي بالمثال العربي التالي: ★لم يتلف حقيبته إتلافاً.

(43) الترجمة العربية لا تبدو نابئة، والمثال العربي الذي يبدو نابئاً هو: حقيبته هي التي أتلفها إتلافاً.

(44) تفيد «*bien*» في المثال المعني أن الأمر حدث فعلاً، أي أنّ الحقيبة وقع إتلافها، في حين أن استعمال مقابلها لا يدلّ على أن الأمر لم يقع بل يفهم منه أنه وقع، لكن بصفة غير كافية وليس لهذا معنى مقبول.

بعض التّعديلات، لشتّى أنواع الرّدائف الأخرى (نحو: vraiment [حقاً]، *Vraiment, il parle bien l'anglais*، حقّا يتكلّم الإنجليزية بإتقان؛ ★ *C'est vraiment qu'il parle bien l'anglais*★ إنه لَحقّ أن يتكلّم الإنجليزية بإتقان، *Il parle l'anglais: cela est vrai...*، يتكلّم الإنجليزية هذا صحيح . . .). هكذا يتجلّى صنف أشياء على جانب قليل أو كثير من الاستقرار، هو صنف ردائف الجملة، ويمكّن الوصف من تدقيق خصائصها واشتغالها.

تُبرز اللّسانياتُ الوصفيّة عن طريق تظافر مناهجها ظواهرَ متنوّعة تجاهَلها النحو التقليدي إن قليلاً أو كثيراً؛ نذكر على سبيل المثال ما يسمَّى الآن الوظيفة «الحِجاجية»؛ انظر إلى الرّابطة لكن (mais): ففي البِنية (أ) لكن (ب) حيث (أ) و(ب) قولان (الشّيء حسن، لكنّه باهظ الثّمن) تقوم لكن بدور التنبيه إلى اعتبار (ب) حجة لفائدة نتيجة ما يحدّدها السّياق (مثلا «إشترِه»)؛ وهو يبيّن خصوصاً في الحالة العكسيّة أنّ (ب) حجّة أقوى من (أ) («الشيء باهظ الثمن، إذن لا تَشترِه»). وليست المقابلة بين (أ) و(ب)، لكن بين النتائج التي يجب استخلاصها، والتي تذهب في اتجاه ما لا في اتّجاه مغاير؛ فالرابطة لكن هي رابطة «حِجاجية». ويَصلح التحليل للرّديف *même* (حتّى) *Même Pierre était satisfait*، حتى زيد كان راضياً). تندرج حتى ضمن منطق احتمالي؛ فهي تعلن أنّ أقلّ الأمور احتمالاً تمّ التثبّت من حصوله، وتوحي بأن آخرين غير زيد راضون بحسَب ما يبعث كلّ شيء على التكهّن به، لكنّها توحي أيضاً بأنّه يمكن للمرء أن يظنّ أن الرّضا لم يشمل زيداً. ويقدِّم رضا زيد على أنّه الأمر الأقلّ احتمالاً. وهذا ما يدعو إلى استخلاص نتيجة (مثلاً: إذا كان زيد راضياً فذلك لأن الجولة كانت ناجحة، وأن فاطمة بذلت كلّ ما بوسعها لضمان الحفاوة؛ وأنّ الجوّ كان غاية في الحُسْن. . .): تنبه

حتى على أبلغ الحجج لفائدة نتيجة يحدّدها السّياق، ولها أيضاً وظيفة «حِجاجيّة».

بقدر ما تتقدّم اللّسانيات تتعدّد الوجوه ويتّسع الوصف، فقد انفتح مثلاً في العقود الأخيرة مجال «النّحْو النصّي»، ويهتمّ الباحثون في هذا المجال بـ «التناسق النصّي». فقولنا زيد قد انتقل من شقّته، فهي شديدة الضيق تتابُعة متكوّنة من لَفيظات مقبولة؛ وقولنا ★ زيد قد انتقل من شقّته، فليست هي شديدة الضيق تتابعة غير مرضية لأنّها رديئة الصّياغة، ولا بدّ من زيادة تدقيق مثل لكنها في موقع رديء... يشعر [المخاطب] بأن اللّفيظ الثاني تفسير للأوّل، فنفْي السبب ينجم عنه مجموعة متنافرة العناصر، إذا لم يعيَّن السّبب الحقيقي. هكذا يبرز حقل كامل للوصف هو حقل التنظيم الخِطابي والاستراتيجيّات التي تحرّكه.

إنّ التّقدّم الوصفي يكمن في تعدد الوجوه التي تنكشف شيئاً فشيئاً، وفي التّناسقات الجديدة التي تتكوّن هكذا.

المنطق الوصفي

لكن يوجد ما هو أكثر من هذا، فكلّ وصف يخضع لمنطق خاصّ به؛ اِفتح أيّ كتاب نحو، أو أيّ قاموس تريده تلاحظْ أنّه يعرض المعطيات بحسب شكل لا يتغيّر؛ ففي القواميس اللاتينيّة أو اليونانيّة تعرض مداخل الأفعال مُسنَدة إلى المتكلّم في زمن الحاضر الإشاريّ، وفي القواميس الفرنسيّة تعرض في صيغة الفعل اللامصرّف. في بعض القواميس يكون تتابع المداخل ألفبائياً، في أخرى ترد الكلمات المشتقّة تحت الكلمات البسيطة[45]، هنا ترد

(45) أي المجرّدة في العربية.

أسماء المشارك الماضي (Participe passé) تحت الفعل بانتظام، وهناك تحظى، إن كان استعمالها يميل إلى الصّفة، بمدخل مستقلّ (مثال: *fatigué, éreinté, fourbu, courbaturé*)[46] ويدلّ نمط الحروف المطبعي على الطريقة المختارة (مثلاً تختار الحروف الغليظة للمداخل(Gras)، والحروف المائلة (Italiques) للعبارات، أو حروف أصغر حجماً للأمثلة...). كلّ هذا يكسب المصنّف انتظامية داخلية مرتبطة تأكيداً بوظائفيات الشيء الموصوف، ولكنها راجعة أيضاً إلى منطق منظِّم للوصف ذاته. ففي مصنّف متسم بالاتساع (مثل **القاموس التّأثيلي للفرنسية** (*FEW*) و**قاموس أكسفورد للإنجليزية** (*OED*)، و**مَكْنز اللّسان الفرنسي** (*TLF*)...) نلاحظ وجود نحو داخلي بأكمله: فالمعلومات تُنتقى بحسب بعض المقاييس، وتعرض بطريقة معيّنة، وتتسلسل بحسب نظام محدّد، وتنتظم الإحالات بحسب هذه الطريقة أو تلك؛ وإجمالاً فإن المصنِّفِين يتوخّون «معايير تحريرية» بحيث لا يرمي الوصف فحسْب إلى الدقّة والاستقصاء وعدم تضارب الخصائص والقواعد، وإنّما يهدف أيضاً إلى تماسك ما يعتمده من تنظيم خاصّ به.

وبفضل هذا المنطق الداخلي تقبل المعطيات المجمّعة المعالجة الإعلاميّة (بشيء من السّهولة إن قليلاً أو كثيراً)؛ وهذا أفق أصبح أخذه بالاعتبار ضرورياً.

المعالجة الإعلامية والهيكلة الوصفية

- عولج إعلامياً عدد من المصنفات وبخاصة من القواميس

---

(46) ترجمتها على التوالي من اليسار إلى اليمين: «تعِبٌ، مضنى، منهوك، مُوصم»، الملاحظة في العربية أن كلّ المشتقات تعرض في القواميس الألفبائيّة تحت الفعل الماضي المسند إلى الغائب؛ لكنّ الأسماء الصفات القياسيّة لا يتمّ إثباتها إلا إذا أصبحت أسماء محضاً.

معالجةً كانت أحياناً، والحقّ يقال، بصورة بدائية، ولكن أحياناً أيضاً ببراعة مرموقة؛ في بعض المعالجات يُكتفَى بالدخول إلى «النص بأكمله»، وهذا غُنْم كبير (فكل شكل وكل توليف بين الأشكال يُرصد حالاً في المصنّف بأكمله): لكنّ هذا، على الرغم من كلّ شيء، لا يكفي؛ وفي معالجات أخرى يسمح تأشيرُ كل أنماط المعلومات (اللّيْمات (Lemmes)، والتعريفات، والمقولات النحوية، والمؤشرات الدلالية أو الأسلوبية، ومؤشرات المجال، والتّأثيلات، والأمثلة وأصحابها، والتّواريخ...) بوضع أسئلة متقاطعة: هكذا يمكن أن تتعلق الأسئلة بالصّفات التي لها «استعمال اسمي»، أو الأسماء التي تُستعمل مجازياً، وكلمات القرن التاسع عشر ذات الأصل الإنجليزي، والتعريفات التي تتضمّن كلمة كتاب أو كلمة آلة ... وبقدر ما تكثر التمييزات يتزايد التوليف: ففي مصنّف مثل **مكنز اللّسان الفرنسي** المعالج إعلامياً يتنوّع التوليف تنوّعاً لا حد له؛ وتتمثل المزية العظمى للإعلامية في أنها تُغني المرءَ عن الرجوع إلى المصنف بحسب قراءة خطّية، إذ يقتضي رصدُ كلّ التعريفات المتضمّنة لهذه الكلمة أو تلك أن يتصفّح كامل المصنّف، والآلة من شأنها أن تقوم بهذا مكانه بصفة فورية.

ـ تُجمّع القواعدُ النصّية مدوّنات ضخمة (أكثر من 200 مليون توارد في قاعدة النّصوص الفرنسية فرانتاكست (FRANTEXT))، فكلّ الأشكال وكلّ ما بينها من توليفات يمكن أن تنعكس على شاشة الحاسوب فوراً؛ وينمّي نظام تَلْييم آلي (تتعرف الآلة على صيغ التصريف والجموع والمؤنّث) كفاءات الآلة: فإذا ما تساءلتُ عن عبارة مثل *mettre la puce à l'oreille* (حرفياً: وضع البرغوث في الأذن) (حمل على الارتياب) تتوافر لديّ فَوراً وثائقُ ضخمة الحجم.

ـ لكن تنوّع منطق الوصف تنجرّ عنه شتّى أنواع التباين، كلّ هذا يدعو إذن إلى توجيه النشاط الوصفي نحو التوحيد، وهذه قضية أساسيّة بالنسبة إلى مستقبل اللسانيات. ولئن كان التّفكير في توخي نماذج وصفية موحّدة غير واقعي بالنظر إلى وضع الأمور في الوقت الرّاهن فإن ضبط قيود دنيا يستفاد منه فائدة كبيرة. لقد أنجِز ذلك بالنسبة إلى القواعد النصّية التي يستجيب تقنينها أكثر فأكثر لضوابط عالمية (من حيث تقديم الإحالات، وأجزاء النصّ، وأشكال الطباعة، والشواهد...)؛ وقد تحقق أيضاً تقدّم نحو التوحيد في نسْخ النصوص الشفويّة (وذلك برسم نغمة النطق والنبرة والتراكيب... إلخ. فضلاً عن أن الأبجدية الصوتية العالمية متوفّرة منذ عام 1886)؛ وأصبحت النصوص المعالجة إعلامياً خاضعة أكثر فأكثر «للزخرفة» بحسب نماذج معترف بها (مثلاً بواسطة قوانين نحوية موحَّدة). لكن تنجم صعوبة عظمى عن الفيض الاصطلاحي، فالتسميات كثيرة جدّاً، من دون أن تعمّر في كثير من الأحيان. وكلّ «مدرسة» تضع لغتها الخاصّة، وكثيراً ما يُترك الحبل على الغارب للمفاهيم الوَرَلسانيّة... في ندوة حديثة العهد حول «التّدالّ» تمّ توسيع الظاهرة لتشمل من دون موجب ظواهر الالتباس (اشتريت كتاب نقد جديد[47]، فهل الكتاب هو الجديد أم النقد؟ فتعدّد المعنى هنا هو في اللّفيظ لا في المعجم، ولا علاقة له بالتّدالّ بالمعنى الدقيق). لكن كيف توحّد المصطلحات؟ وما هي السلطة التي تباشر ذلك بصفة حاسمة؟ لجمعيات اللسانيين الوطنيّة والعالميّة

(47) ترجمة المثال الفرنسي لا يظهر فيها الالتباس بفضل اختلاف المطابقة، والمثال هو: *Elle a épousé un marchand de tapis pakistanais* (تزوّجت بتاجر زرابيّ (بُسُط) باكستاني/ باكستانيّة؟) «فهل هو تاجر باكستاني الجنسيّة أم هو التاجر الذي يبيع زرابي باكستانية. ولا يوجد الالتباس نفسه في العربيّة.

دور تضطلع به في هذا المجال، وأهم منها مؤسسات البحث (كالمجامع والمركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)). فالعمل ليس هيّناً، ولكنّه مرغوب فيه إلى أقصى حدّ، فمستقبل اللسانيات مرتهن به إلى حدّ كبير.



الفصل الثاني

اللسانيات النظرية

لا تتمثل غاية اللّسانيات في الوصف فقط وإنّما كذلك في التفسير وبيان السبب الذي من أجله جاءت الظواهر على ما هي عليه. ما هي أنواع السببية التي تُعلَّل بها اللّسانيات؟ سنحاول الإجابة عن هذا السؤال الذي هو أدقّ مما يبدو.

كانت اللّسانيات في القرن التاسع عشر تاريخيةً أساساً (يُقال أيضاً زمنيّة)، ويتمثّل تفسير الظّواهر من وجهة نظرٍ زمنية في تبريرها عن طريق ظواهر سبقتها فكانت ناجمة عنها. ففي الفرنسية الحديثة تدلّ السّابقة -en على مفهوم الدّاخل (في)، هكذا فمعنى الفعل الدقيق *encercler* هو «وضع الشيء داخل دائرة» *cercle*، ومعنى *enclore* أو *enfermer* سيّج أو حبس «وضع الشيء في مكان مسوّر»، ويفيد الفعل *endiguer* «احتوى الشيء بحاجز أو سُدّ» *digue*، لكنّ من المفارقات أن هذه الزائدة تفسَّر في أفعال أخرى بخارج الشيء (*hors de*)، فمعنى *emmener* «ذهب بالشيء خارج...» (*mener hors de*)، ومعنى *emporter* هو «حمل الشيء خارج...» (*porter hors de*)، ومعنى *enlever* «هو رفع الشيء خارج... ونحّاه» (lever hors

de..., ôter). تُوافق السّابقة ـ *en* تاريخياً لاحقتيْن لاتينيتيْن هما -in «dans» (أي فـي) و-inde «hors de» أي خـارج...). يـمـكـن إذن القول إنّ للفرنسية أيضاً سابقتين مختلفتين على الرغم من أنّهما متجانستان شكلاً؛ -en[1] الآتية من اللاتينية -in، و-en[2] الآتية من -inde. فَصِلَة الواحدة بالأداة en (اللاتينية in) هي على غرار صلة الأخرى بالضّمير «الرّديفي» en (اللاتينية *il en vient ; inde*: يأتي من...)، وهكذا يفسّر بالتاريخ ما يمكن أن يبدو مُفارِقاً.

لكن هل يمثل هذا تفسيراً حقيقياً؟ إنّ التسلسل التاريخي، على الرغم مما قد يوفّره من توضيح ينتمي إلى سببية ظاهرية بحت تفيد أن ظاهرة ما تولّدت عن ظاهرة أقدم منها، والتفسير يُفترض أنه يمكّن من إدراك سبب الظّاهرة الأولى وكذلك فهم سبب التّسلسل. وإذا أمكن للسانيات التّاريخية ـ سنعود إلى ذلك ـ أن تضع تفسيراً نظامياً تطورياً لهذا الجزء أو ذاك من التّاريخ، فإنها لا تقول في شأن نقطة الانطلاق سوى أنها متولدة عن نقطة أخرى سابقة لها. فهي بانتقالها من حالة إلى ما قبلها تكون لا نهائية، بل تَضيع آخر الأمر في غياهب الزمان، فمن الفرنسيّة الحديثة يمكن أن نعود إلى الفرنسية القديمة، ومن هذه إلى اللاتينيّة، ومن اللاتينيّة إلى الهندو ـ أوروبية التي تُبنى بناءً موثوقاً به قليلاً أو كثيراً، لكن قبل هذا البناء لا وجود إلاّ لفراغ المجهول، وحتى إذا ما توصّل المرء إلى «لسان أصليّ» استُدعيت صورته الأسطورية في القرن الثامن عشر، التي تحتفظ بسرّها الدّفين. فمن المستحيل إذاً الاطمئنان للتسلسل التاريخي وحده(*).

(*) عام 1769، نظّمت أكاديمية العلوم في برلين مناظرة للإجابة عن هذا السؤال: «إذ افترضنا أن الناس يُترَكون وملكاتهم الطبيعية فهل يكونون في وضع يستطيعون فيه أن يخترعوا اللغة، وبأيّ وسيلة يتوصّلون إلى ذلك؟ المفروض تقديم فرضية تفسّر الأمر بوضوح وتذلّل كلّ الصعوبات». وقد كان هردر (Herder) هو الذي تحصّل على الجائزة لوضعه **رسالة في أصل اللّسان** (1771) (*Traité sur l'origine de la langue*)، حيث احتجّ لفرضية، تقول:

سنحاول أن نبيّن ألاّ تفسيرَ خارجَ نظرية ما: فاللسانيات عندما تزعم التفسير فإنها تصبح بالضّرورة مجالاً علميّاً مُنَظِّراً. في مرحلة أولى نُحدد للنّظرية مجرّدَ وظيفة توقّعيّة: فدورها يتمثّل في توقّع ما هو ممكن وإقصاء ما ليس كذلك. ثم نبيّن جوانبَ القصور في الاكتفاء بالتوقع وما قد تتطلبه نظرية تتجاوز الوظيفة التّوقعية فتكون تفسيرية حقاً.

من اللسانيات الوصفية إلى اللسانيات النظرية

مفهوم اللسان

ماذا يمكن أن نرصد؟ هي لفيظات أُنتِجت فعلاً، وسلاسل صوتية أو لواحق خطّية، فمن اليسير أن نسلّم بأن اللّفيظات لا تأتي من مخزون ما يُحتفظ به في الذاكرة كما هو: فبما أنّ اللفيظات عددها تقديريّاً لا متناهٍ فالاحتفاظ بها يقتضي ذاكرة لا متناهية، وهو أمرٌ غير محتمل. إنّ اللّفيظات تُصاغ بحسب الحاجة عن طريق أداة تسمح بتوليدها (ومقابل ذلك لفهمها)، وهذه الأداة المتكوّنة من دلائل وقواعد توليفية ليست سوى اللّسان. لقد قابل ف. دو سوسير (F. de Saussure) بوضوح (دروس في اللّسانيات العامة، 1916) بين **اللّسان والحديث**، **فاللّسان** نظام مسجّل في الذاكرة المشتركة يمكّن من إنتاج لفيظات لا متناهية وفهمها، **والحديث** مجموع اللفيظات التي أُنجِزت فعلاً. وأُضيفَ بعد دو سوسير (وبخاصّة من قبل اللّساني الفرنسي غوستاف غيوم (G. Guillaume)) طرَفٌ ثالث هو **الخطاب**:

أصل اللّسان يرجع إلى الإنسان لا إلى الإله (خلافاً لسوسميلش (Süssmilch) صاحب «رسالة لإقامة الدليل على أن اللّسان الأول لا يمكن أن يكون أصله من الإنسان، وإنّما هو من الخالق وحده» (Essai pour prouver que la première langue ne peut avoir reçu son origine de l'homme, mais du créateur seulement).

الخطاب هو المجموع اللامتناهي للَّفيظات الممكنة التي يمثّل الحديثُ فرعاً منجَزاً منها، فيكون **اللّسان** إذاً النظام الكفيل بتوليد الخطاب (وحَلقَنته).

وبما أن المجال القابل للرصد هو **الحديث**، وأنّ **اللّسان** غير قابل بالنظر إلى طبيعته للرصْد، فالكلام عن **اللّسان** يتمثل حتماً في صياغة فرضيّات يكوّن مجموعها المعتبَر متماسكاً نظريةً. وإقرار مفهوم **اللّسان** معناه تركُ مجرّد رصد الظّواهر واعتماد طريقة تقوم فيها الفرضيات مقامَ الرّصد.

وكما هو معلوم فإنّه لا يمكن «التثبّت» من صحّة الفرضية بالمعنى الدّقيق، وأقصى ما هو ممكن هو «تخطئتها». فإذا تضمّنت فرضيةٌ **ف** النتائجَ **ن**^{1}، **ن**^{2} . . . **ن**^{ن}، يكفي أن تكون نتيجة **ن**^{ي} لا يثبتها الواقع لإبطال الفرضية **ف**؛ وبالمقابل فإن حقيقة النّتيجة **ن**^{ي} لا تسمح بأيّ حالٍ من استنتاج صحّة **ف**؛ ومجرّد ما يمكن قوله إنه بقدر ما تكثر وتتنوّع النتائج التي تمّ التثبّت منها يقوى احتمالُ أن تكون الفرضية موَفّقة، ويمكن أن ينزع هذا الاحتمال إلى قيمة 1، لكن من دون أن تُعَوَّض أبداً فكرةُ التأييد بفكرة الإثبات المطلق. إنّ الحجّة اللّسانية لا تكون إلاّ تأييدية، والتقنية المعتمدة هي تقنية التخطئة لا تقنية الإثبات الوهميّة. وهكذا يفضي بنا الأمر إلى أن فكرة التفسير في مجال اللّسانيات معناها إرجاعُ الظواهر اللامتناهية في التنوع إلى نظام متماسك من الفرضيات القابلة للتخطئة. ويجب أن تُصاغ الفرضيات صياغة تمكّن من أن نذكر ماذا يجب أن نجده في الظواهر لتُعتبر خاطئة، فضلاً عن أنه ينبغي ألاّ نخلط بين اللسان ونظرية اللسان: لمّا كانت الفرضيات غير قابلة للإثبات بالمعنى الدقيق فمن قَبيل المجازفة أن يماثل المرءُ نظامها بنظام اللّسان. والنظرية توفّر منوالاً للّسان وتمثيلاً افتراضياً، أمّا اللّسان فمتعذر المنال.

مفهوم اللغـة

لنفرض الآن أننا توصلنا إلى وضع نظرية مرْضية كفيلة بتفسير عدد كبير من الظواهر؛ يُطرح في نطاق التفسير سؤالٌ جديد: لماذا اتخذت النّظريّةُ الشكل الذي جاءت عليه؛ ألا توجد نظرياتٌ منافسة لها؟ كيف نعلّل اختيارَها؟

هنا يجب إقحام مفهوم اللّغة؛ إنّ اللّغة هي مجموع الشروط التي تجعل بناءَ اللسان ممكَناً. وحظوظ هذه الشروط كبيرة لتكون صالحة مهما كان اللّسان، فاللّغة وظيفة إنسانية، وظيفة مرتبطة بالجنس. وإذا أمكن اكتساب لسان من الألسن فذلك راجع ـ على الأقل جزئياً ـ إلى الصّبغة الفطْرية للغة: فكلّ طفل قادر ـ باستثناء حالة القصور الذهني ـ على اكتساب لسان (أو عديد الألسن) مهما كان. والطّفل الصّيني الذي نشأ في فرنسا يتعلّم الفرنسية على الوجه الأكمل، ويقابل ذلك الطّفل الفرنسي الذي رُبّي في الصين. على أنه يجب أن يتمّ تعلّم اللّسان الأوّل في الوقت المناسب، فالأطفال الذين ينعتون بـ «المتوحّشين» (أي الذين شُرّدوا بين الحيوانات) عاجزون عن تعلّم الكلام إذا تجاوزوا سنّاً معيّنة[1]. وهذا يتماشى مع الصّبغة الفطريّة للغة التي يناسب تنشيطُها فترة معيّنة من النموّ يستحيل بعدها اكتسابُها.

ومن البديهي ألاّ يكون رصْد اللّغة أسهل منالاً من رصْد اللّسان، فالأفكار التي قدمناها سابقاً تنطبق كلها على اللغة: فاللغة لا

(1) هكذا فعلى الرغم من مجهودات جان إيتار (Jean Itard)، ذلك الطبيب الذي احتضن عام 1767 طفلاً يبلغ من العمر 11 أو 12 سنة قبض عليه في غابة لاكون (La Caune) حيث شرد وكان يقتات من البلوط والجذور ظل «فيكتور» بحسب ما سماه إيتار أبكم بُكماً لا رِجعة فيه.

تكون إلا مجالاً لبناءٍ نظري، وكما أن نظريّةً خاصّة باللّسان هي المستوى المفسّر للخطاب والحديث فإن نظرية خاصة باللغة هي المستوى المفسِّر للسان. لكن ليس كلّ هذا إلاّ أمراً «نظريّاً»، أي من قبيل الافتراض بطبيعته. إنّ للّسان واللّغة وجوداً حقيقيّاً، لكنّ حقيقتَهما توجد في ما يتجاوز الرصْدَ بحيث لا تعطينا فكرةً عنهما إلاّ الصّياغات الافتراضية وحدها.

النظرية والوظيفة التوقعية

توفّر النظرية الخاصّة باللسان ما يفي بالخطاب. ولكن ماذا يعني «يفي»؟ فأضعف معانيه هو «التّوقّع»: تكون وظيفة النظرية وظيفةً توقّعيّة تُصاغ فيها قواعد تسمح بتوقّع ما ينجزه الحديث. وتمارس الوظيفة التوقعية أساساً في مجالين: التوليفية والاستدلال.

التوليفية

يجب أن تتوقع النّظرية بما هو مقبول وغير مقبول من التّوليفات: وللّساني الأمريكي ن. تشومسكي (N. Chomsky) فضل وضع المشكل بهذه الصّيغة وربطه بمقتضيات ما يسمى بـ «الشّكلَنَة».

ويمكن لبعض الأمثلة البسيطة المأخوذة من الفرنسية أن تقدّم فكرة عن ذلك.

لنأخذ عبارة[2] *quoique ce soit* فهي ترد في سياقات محددة تحديداً دقيقاً.

---

(2) شيء مهما كان؛ تهدف هذه الأمثلة إلى تجسيم ارتهان استعمال الوحدات الدالّة بسياقات معيّنة، وليس للعبارة المعتمدة فيها مقابل في العربية يخضع استعماله للسياقات نفسها، لذا احتفظنا بالأمثلة الفرنسية متبوعةً بترجمتها. وإذا رُمنا تقريب الظاهرة المقصودة بمثال عربي ـ ولو كان لا يمتّ بصلة إلى المثال الفرنسي ـ يمكن أن نذكر استعمال الفاء في سياق الشرط من قبيل:

● بعد *si* (إنْ/ لو) الافتراضية أو بصفة أعمّ في جملة شرطية.

S'il critique quoi que ce soit...

«إن انتقد شيئاً مهما كان . . .»

Il critiquerait quoi que ce soit, tu le remettrais à sa place.

«لو انتقد شيئاً مهما كان توقفه عند حدّه».

● في جملة استفهامية استفهاماً مباشراً أو غير مباشر.

Est-ce qu'il critique quoi que ce soit?

«هل ينتقد شيئاً مهما كان».

Je te demande s'il critique quoi que ce soit?

«أسألك هل ينتقد شيئاً مهما كان؟»

● في جملة «تَبيعَة» (Subordonnée) مبدوءة بـ *que*، أو في مجموعة «فعليّة لا مُصرَّفة» (Groupe infinitif) بعد جملة رئيسيّة منفية (أو صفة أو اسم محض منفي تبنى عليه الجملية التَّبِيعة).

Je ne pense pas qu'il critique quoi que ce soit.

«لا أظنّ أنّه ينتقد أمراً مهما كان».

Il ne trouve pas à critiquer quoi que ce soit.

«إن يجتهد فهو ناجح. إن يجتهد فالنجاح مضمون. إن يجتهد فلن يخيب؛ إن اجتهد فقد نجح. . .».

لا ترد الفاء في جواب الشرط إلاّ إذا لم تصدّر بفعل، لذا لا يصحّ أن نقول:

«★ إن يجتهد فينجح. ★إن اجتهد فنجح».

«لا يجد شيئاً ينتقده مهما كان».

Impossible d'y critiquer quoi que ce soit.

«من المستحيل أن يُنتقد فيه شيء مهما كان».

Son refus de critiquer quoi que ce soit...

«رفْضه أن ينتقد شيئاً مهما كان . . .»

ولا مجال لورود *quoi que ce soit* في جملة الإيجاب ولا في جملة النفي.

★*Il critique quoi que ce soit.*

«ينتقد كلَّ شيء مهما كان».

★*Il ne critique pas quoi que ce soit.*

«لا ينتقد كلّ شيء مهما كان»[3].

إنّ السياقات التي تسمح بورود *quoi que ce soit* تشترك في مظهر النفي (الافتراض قد يتحقق وقد لا يتحقّق. ويقتضي السؤال جواباً إيجابياً أو منفيّاً. . .) لكن من دون أن يوسَم النفي وَسْماً صريحاً في المجموعة المتضمِّنة لـ quoi *que ce soit*: تسمى هذه السياقات «سياقات تقدير» (Contextes virtualisants). وتوجد هذه السّياقات في مواطن أخرى. هكذا فإن كلمة *jamais* التي تعني «أبَداً» (*Il ne vient jamais*) «لا يأتي أبداً»، يكون معناها في «سياقات التقدير» «في وقت من الأوقات، في وقت ما»:

Si jamais il revient... (S'il revient à un moment donné).

«إذا رجع في وقت ما/ إذا اتّفق أن رجع».

(3) بديهي أن الترجمة العربية للمثالين الأخيريْن المرفوضين مقبولة.

Est-il jamais revenu?

«هل رجع في وقت ما ؟».

Je ne pense pas qu'il y soit jamais revenu.

«لا أظنّه رجع أبداً».

Impossible qu'il y revienne jamais.

«من المستحيل أن يرجع إليه أبداً».

يمكّن مفهوم «سياق التّقدير» إذن من صياغة قواعد متنوّعة تكون صحيحة توقعيّاً.

إنّ الرّدِيف *peu*[4] يحوّر معنى الصفة (*peu encourageant* = قليل التشجيع)، أو الفعل (*Il travaille peu* = يعمل قليلاً)، أو رَديف آخر (*peu souvent* = قليلاً ما)؛ وإذا ما اقترن بالأداة *de* يمكن أن يكون محدِّداً (déterminant) للاسم (*peu de courage* = شجاعة ضئيلة). لنهتمّ بـ *peu* مقترنة بصفة؛ فهذه الوحدة لا تؤلَّف مع أي صفة كانت، فلا يقال ★*peu bête* (قليل الغباوة)، ★*peu stupide* (قليل البلادة) ★*peu maladroit* (قليل قلّة اللاّمهارة) ★*peu triste* (قليل الحزن) ★*c'est peu regrettable* (قليل استحقاق الأسف) ★*peu sale* (قليل الوسخ) ★*peu dégoûtant* (قليل البعث على الاشمئزاز)[5] . . . وخلافاً لذلك فمن المقبول تماماً: *peu aimable* (قليل اللطف أو البشاشة)، *peu clair* (قليل الوضوح)، *peu commode* (صعْب المِراس، قليل اليُسْر)، *peu connu* (خامل الذكر) *peu*

(4) معناها المعجمي «قليل» أو «ضئيل»، ويمكن أن تؤدّي وظيفةَ النعت، أو وظيفة المفعول المطلق. وتقابل الثّانية المثالَ الفرنسي.

(5) التّرجمة العربيّة لهذه الأمثلة أقرب إلى المقبوليّة.

compréhensible (عسير الفهم)، *peu doué* (قليل الموهبة)، *peu favorable* (قليل الملاءمة أو المناسبة). كلّ هذه الصفات تشترك في اتجاهها نحو شحنة إيجابية، ولا تقبل *peu* الصّفات التي ليس هذا شأنها. والأمر مخالف لذلك مع *un peu*[6]، [فيقال] *Il est un peu bête* (هو على جانب من الحمْق)، *un peu maladroit* (على جانب من قلّة المهارة)، *un peu triste* (به بعض الحزن)؛ لكن لا [يقال]: ★*un peu aimable* (لطيف بعض الشيْء)، ★un peu clair (واضح بعض الشيء)، ★*un peu doué* (موهوب بعض الشيء)[7]، إلاّ إذا كان السياق «سياقَ تقدير» (إذا كان لطيفاً شيئاً ما، «إذا كان له شيء ما من اللّطف»)، كلّ هذا يفضي بنا إلى افتراض أن الرّديف peu موجّه سلباً [فقولنا] *Etre peu aimable* (إن يكون المرء قليل اللطف) (يقرّبه ممّن لا يتّسم باللّطف البتّة). [فعبارة] *peu aimable* هي عبارة تلطيفيّة تقوم مقام *pas aimable* (فاقد للّطف)؛ وخلافاً لذلك فإنّ *un peu* موجّهة إيجابيّاً (من أجل أداة التحديد أوالتعديد *un*)، [فقولنا] *être un peu bête* (كون المرء غبياً بعض الشيء) يدلّ على أنّه غبيّ فعلاً، ولو لم يكن تامّ الغباوة، فـ *peu* تنطلق من الإيجاب (الصفة إيجابية) وتتجه نحو السلب، وتعبّر *un peu* عن كثافة ضعيفة تعبيراً إيجابياً، وتنطبق على صفات سلبية أو صارت سلبية من أجل سياق «تقديرٍ».

وإجمالاً، يكون الأمر بسيطاً لو لم تُدخِل عليه الاضطرابَ عواملُ ثانويّة. هكذا فمن الناحية الصوتية تمتنع *peu* عن الاقتران بصفة ولو كانت إيجابية تتكوّن مثلَها من صامت متبوع بصائت ★*peu*

(6) أضيفت إلى الرّديف *peu* أداة التحديد *un* وليس لها مقابل في العربية. فهي أداة ترد مع الاسم النكرة فلا تعرفّه وإنما تدل على تنكيره.

(7) ترجمة هذه الأمثلة الثّلاثة أقرب إلى المقبوليّة.

beau (قليل الجمال)؛ ★peu doux (قليل العذوبة أو الوداعة أو النعومة . . .)، ★peu fin (قليل الدقّة أو الرشاقة . . .) (أو مجموعة من الصّوامت متبوعة بصائت: ★peu grand (قليل الطّول)؛ ★peu frais (قليل الطراوة . . .)[8]، وذلك بالمقارنة مع peu net (قليل النقاوة أو الوضوح...) peu clair (قليل الوضوح أو النّور . . .)؛ peu fraîche (قليلة الطراوة . . .). إنّ هذا من شأنه أن يعقّد القاعدة، ولكن ليس مما يستحيل تذليل صعوبَته. على أنّه، بالإضافة إلى هذا، فإنّ مفهوم الاتجاه الإيجابي بحاجة إلى تدقيق. [فقولنا] peu difficile (قليل الصّعوبة) مقبول، فهل الصّفة difficile ذات اتجاه إيجابي؟ فعلاً فالأمر كذلك. فالصّفة difficile تقابل facile (سهل)، وهذه الأخيرة لا يمكن أن تحدّد إلا تحديداً سلبياً («ما ليس فيه صعوبة، ما ليس صعباً»)، [والصّفة] difficile هي الإيجابية في الزّوج المعني. وهذا هو شأن peu grave (قليل الخطر) المقابلة لـ ★peu bénin (هيّن قليلاً)، [فالصفة] bénin هي التي تحدَّد سلبياً («ما ليس فيه خطر»). كلّ هذا يمكن فهمُه، ولكننا نتبيّن أنّ قاعدة ما يقتضي إعدادُها مجهوداً حقيقياً لتكون صحيحة من النّاحية التوقعيّة.

ـ لن نُكثِر من إيراد الأمثلة، لكن هذا مثال إضافي من نوع مغاير تماماً. (كيف يمكن توقّع التّرتيب الصّحيح «للانضوائيّات»[9]. يُقبل [التركيب] Il ne le sait pas (هو لا يعلمه) ولا يقبل ★Il le ne sait pas[10]. [يقال أيضاً] Il ne lui en donne pas (لا يعطيه منه) لا: ★Il n'en lui donne pas. ويمكّن الرّسم التالي (حيث يدلّ القوسان

---

(8) امتناع هذه الاستعمالات في الفرنسيّة راجع إلى أسباب صوتيّة لا تتوافر في المقابل العربي.

(9) انظر للتّعريف، ص 162 من هذا الكتاب.

(10) المعنى نفسه، لكن التركيب غير مقبول لأن الضمير le ورد قبل أداة النفي.

على حريّة الحضور أو الغياب، والأعمدة على العناصر القابلة للاستبدال) من توليد كلّ أنواع الترتيب المقبولة لا غيرها[11]:

je (أنا)		(me)	
tu (أنت)	(ne) (أداة نفي)	(te) (ك)	(le) (هـ)
il (هو)		(nous) (نحن)	(la) (ها) (y) (هـ - ها) في (en) (هـ - ها) من
		(vous) (أنتم - أنتن)	(les) (ها - هم - هنّ)

(le) (ها)	(lui) (هم - هنّ)
(la)	(leur) (ها - هم - هنّ)
(les) (هم - هنّ)	

إنّ الفعل هو الذي يفرض حدود التّوليف *Il ne lui en donne pas* (لا يعطيه منه)؛ *il n'y va pas* : (لا يذهب إلى . . .)؛ *Il y en a...* (يوجد شيء منه..). لا نهتم بهذا هنا، لكن مهما كان الفعل فإنّ التّرتيب هو الذي يتوقّعه الجدول [السّابق]. وفي الأمر لا تنطبق القاعدة إلا إذا وُجدت أداة النفي *Ne le lui donne pas* لا تعطه إيّاه؛ *Ne m'en donne pas...* لا تعطني منه . . .). وخارج النفي فإن الانضوائيّات تؤخَّر بعد الفعل بحسب ضغوط تضيّق حدود الاستعمال

(11) تعتبر الضّمائر من الانضوائيّات، وكل الضمائر في الفرنسيّة (Pronoms personnels) منفصلة، لذا قد يُتصوّر أنه يتسنّى التصرّف في رتبتها إذا تعددت مع الفعل الواحد. لكن استعمالها كما يبدو من كلام المؤلّف خاضع لقواعد محدّدة؛ أمّا في العربيّة فما يقابل الانضوائيّات الفرنسيّة المعنيّة هي ضمائر متّصلة وتختلف رتبتها بحسب الفعل والشخص. فمع الفعل المتعدي إلى مفعولين يسبق ضميرا المتكلم والمخاطب ضمير الغائب (أعطانيه، أعطاكه) ومع الفعل المتعدّي إلى مفعول واحد يسبق ضمير الغائب المفعول في محلّ نصب ضمير المتكلّم والمخاطب المسبوقيْن بحرف جرّ (أخذه مني - أخذه منك - أخذه منه).

أيّما تضييق (*Donne-le moi*: أعطنيه *Donne le lui*: أعطه إيّاه. لكن [لا يقال] *Conduis m'y*★ [وإنما] *Conduis moi là*: قدني هناك [ولا] *Retire l'en*★ [وإنما] *Retire le de là*: أخرجه من هناك).

لا يلبَث المرء أن يدرك ما في هذا من ضعف: لماذا اتّخذت القاعدة هذا الشّكل؟ لماذا كان اشتغالها في الأمرِ مختلفاً إلى هذا الحدّ؟ من البديهي أنّ الوظيفة التوقعية ليس لها مدى تفسيري حقيقي حتى إذا ما تمّ الالتزام بها التزاماً موفَّقاً. وباعتبار كل الجوانب، فليست هذه الأمور سوى أوصاف أُكسِبت صبغة نظامية وكانت مفتوحة على ما هو ممكن لكنّ قيمتها التّفسيريّة ضعيفة جدّاً.

الاستدلال

قَبْل أن نعود إلى هذا الموضوع لننظرْ في ماهية التوقع الاستدلالي. ذكرنا سابقاً الدّور الاستكشافيّ والوصفيّ للاستدلال. وله أيضاً مكانة مهمة في النظرية الدلالية.

ما هو فعلاً معنى الجملة؟ يمكن الجواب عن هذا السؤال بطريقتين:

- معنى الجملة هو نتيجة توليف معاني أجزائها، وستكون الفرضية في هذه الحالة فرضية «التركّبية»، [بمعنى] تركّب الأجزاء في مجموعات تتسع أكثر فأكثر. من الأكيدِ أنّ في الألسن تعابير غير تركّبيّة، وبخاصّة «العبارات» فلا يستنتج معناها من معنى أجزائها: (*prendre le taureau par les cornes*: أمسك الثور من قرنيْه) معناه «تصدّى للصعوبة وجهاً لوجه»، وهذا من دون أن يكون [لهذا المعنى] صلة مباشرة لا بالثور ولا بالقرون)[12]. لكنّ التركُّبية متحققة

---

(12) يمكن أن نذكر مقابلاً عربياً لهذا هو قولنا «ليست له في ذلك لا ناقة ولا جمل» (بمعنى ليست له أيّ مصلحة من الموضوع)، فلا علاقة مباشرة لهذا المعنى بالناقة ولا بالجمل.

على الرغم من كلّ شيء على نطاق واسع. بل إنّ الصّعوبة هي صعوبة تقنيّة. كيف يمكن فعلاً ضبط معاني الأجزاء إذا لم يكن من خلال معنى الجُمل؟ [فكلمة] *facteur* ليس لها المعنى نفسه في *Le Facteur vient de passer* (ساعي البريد مرّ منذ قليل)، وفي *Le Facteur décisif a été que...* (العامل الحاسم تمثّل في . . .)[13]، كيف يمكن تحديد معنى *Facteur* إذا لم يكن عن طريق مجموعات السّياق الفرعيّة؟

ـ انطلاقاً من هذا، تبدو مقاربة أخرى ذات [نجاعة] إجرائيّة أكبر بكثير تنطلق من الجملة ذهاباً إلى أجزائها لا العكس. ويحدَّد معنى الجملة بأنّه مجموعة الشّروط التي يجب أن تتوافر لتكون حقيقية، أو (وهو الشيء نفسه) هو مجموع الاستدلالات التي تحدِّدها. هكذا فإنّ الجملة **ج** (*Le Facteur vient de passer*) حقيقيّة إذا ـ وإذا فقط ـ كان واحد من كائنات الكون مهمّته توزيع البريد في الماضي القريب بالمكان الذي أُوجد فيه وأنه واصل سيرَه بعد ذلك. فكلّ متكلّم ذي كفاءة في الفرنسية يوافق على أنّه إن كانت **ج** حقيقية فإنّ مثل هذه الاستدلالات حقيقية. هكذا تبرُز طريقة فعلية لتحقيق الموضوعية الدّلالية، في حين أنّ المعنى في ذاته غيرُ قابل للمعاينة ولا نفاذ إليه إلاّ بواسطة العلامات التي تجسّمه. فالمعنى قابل لتحقيق موضوعيته بمجرّد الانطلاق من الجملة، وذلك باعتماد شروط الحقيقة إن لم يكن المتكلّمون الأكفاء قادرين على تعدادها (وهذا دوْر اللساني) فهم على الأقل قادرون على الحكم بصحتها.

ندرك إذن أهميّة الرّابط الاستدلالي، وتتمثّل وظيفة من وظائف

---

(13) مثال عربي يبيّن كيف يفهم معنى المفردة انطلاقاً من معنى الجملة: «حصل العامل المثالي على جائزة؛ الاجتهاد عامل أساسي للنجاح».

النظرية في التوَقع توقعاً صحيحاً. وتكفي هنا أيضاً بعض الأمثلة لتوضيح المسألة.

ـ تختلف استدلالات [فعل savoir (عرف ـ علم)] تبعاً لتركيبه مع que[14] أو مع si (إذا). فمن [قولنا] *Il sait que Maria est espagnole* (يعرف أن ماريا إسبانيّة) نستدلّ أنني أعرف أنا أيضاً أنّ ماريا إسبانية فعلاً. ومن [قولنا] *Lui sait si Maria est espagnole* (يعرف هو ما إذا كانت ماريا إسبانية) لا يمكن أن نستخرج منها الاستدلالات نفسها. هل أنّ ماريا إسبانية أم لا؟ هو وحده يعرف حقيقةَ الأمر، ولكن يستحيل بالاعتماد على هذا اللّفيظ وحده أن نصرّح بحقيقة أمر ماريا، فأنا نفسي لا أعرف ما إذا كانت ماريا إسبانية أم لا، أو على الأقلّ لا أريد البوْح بذلك.

تبقى هذه الاستدلات صحيحة مع النفي:

Il ne sait pas que Maria est espagnole	=> *Je sais que Maria est espagnole*
لا يعرف أن ماريا إسبانية	أعرف أن ماريا إسبانية
	=> *Maria est espagnole*
	ماريا إسبانيّة
Il ne sait pas si Maria est Espagnole	=> *Moi non plus, je ne le sais pas (ou du moins je ne le dis pas)*
هو لا يعرف ما إذا كانت ماريا إسبانيّة	أنا كذلك لا أعرف ما إذا كانت ماريا إسبانية (أو على الأقل لا أبوح به).

(14) que ضمير من «الضمائر» الموصولة أو رابطة في الفرنسية، ويترجم في العربية بحسب السياق بـ«الذي»، أو «إنّ» أو «أنّ»، وهي أداة هنا.

[إنّ قولنا] *Je sais si Maria est espagnole* (أعرف ما إذا كانت ماريا إسبانية) يتضمّن أنّني لا أريد أن أقول هل إنها إسبانية أم لا. كلّ هذا يُمثّل بما يلي:

Qqn (ne) sait (pas) que p = > ج *= > p = >*

بعضهم (لا) يعرف أن ج

qqn (ne) sait (pas) si p = > qqn ne dit pas si p ou non-p

بعضهم لا يقول ما إذا ج أو لا ج <= بعضهم (لا) يعرف ما إذا ج

= > p ou non-p

ج أو لا ج

ـ إنّ الرّابطة *bien que* (رغم أن) تحدّد هي أيضاً استدلالات يسيرة التوقع، فمن [قولنا] *Ils se sont mariés bien qu'ils n'aient pas d'enfants* (تزوّجا على الرغم من أنه ليس لهما أبناء) نستدل على أنهما تزوّجا وأنه ليس لهما أبناء، باعتبار أنه يمكن للمرء أن يظُنّ بأنّهما لن يتزوّجا بما أنّه ليس لهما أبناء («لا يتزوج النّاس إذا لم يكن لهم أبناء»). ويُمثّل هذا كما يلي:

ج رغم أنّ د => ج ود (يمكن الظنّ أنّه أو عادة: إذا د، إذن لا ـ ج)

المشكل هو في تمثيل يمكن الظنّ أنّ أو عادة، وللتّوصّل إلى ذلك يجب أن يتوافر مفهوم «العالم الممكن» ولا نتناول هذا المفهوم باختصار إلاّ لاحقاً.

الوظيفة التوقعية والشكلنة

لتكون القواعد التوقعية ناجعة يجب أن تستجيب لمقتضيات

«الشّكلنة»، ويقال في القاعدة إنّها «مُشَكْلنة» إذا توافر فيها الشرطان الآتيان:

ـ أنْ تكون الأشياء التي تتضمّنها محدَّدة تحديداً دقيقاً ولا يعتريها أيّ لُبْس.

ـ أنْ تُصاغ صياغة جليّة، ومعنى هذا أنه يمكن أن تُنجَز ببرنامج آلي لأنها صيغت بطريقة لا تستدعي الاعتماد على حدس من يطبّقها.

إنّ [كلمة] jamais يمكن أن تعني «في وقت ما»، وهذا من قَبِيل ما هو شائع في المصنَّفات النحوية؛ لكن ليس هذا قاعدة صريحة: فمتى يكون لها هذا المعنى؟

تعني jamais «في وقت ما» في سياق تقديرٍ، وهذه القاعدة صريحة بشرط أن يُحدد معنى سياق تقدير تحديداً دقيقاً.

النظرية والوظيفة التفسيرية

معايير تقييم النظرية التوقعية

أدركنا ونحن نتقدّم في عملنا ظواهرَ ضعف متنوّعة من حيث قابلية التوقع: لماذا نتوخى قاعدة دون غيرها؟ ولماذا نصوغها بهذه الطريقة أو تلك؟ وإذا كانت صياغتُها حسنة فكيف يجب أن نفهمَها؟ وهكذا سرعان ما يؤول بنا الأمر إلى أن النظرية التوقعية متفاوتة من حيث مدى توفيقها، فهي إذاً قابلة للتقييم، وسنتساءل عن المقاييس التقييمية المفيدة.

ـ تقيَّم النظرية قبل كلّ شيء بمقياس **التناسق**، فإذا كان من العسير التدليلُ على عدم التناقض فإنّ التناقض المعترَف به غير مقبول بداهةً. يُضاف إلى ذلك أنه يجب أن تكون النظريات ـ باعتبارها كلها جزئية ـ متلائمة مع الأجزاء التي نبنيها من ناحية أخرى.

ـ يقاس التوفيق أيضاً بمقياس **المطابقة**، فمن مظاهر القُصور ما يسمّى «استثناءات» تسمِيَة لا تخلو من المجاملة؛ إن الحيلة المتمثلة في القول بأنّ الاستثناء «يؤكّد القاعدة» لا ينخدع بها أحد. فالنحو المتسم بالمطابقة هو الذي فيه أقلّ ما يمكن من الاستثناءات، ولنَقُل مرّة أخرى إنّ النّظرية يجب أن تتوقع كلّ ما هو ممكن ولا شيء مما هو غير ممكن.

ـ نضيف مقياس **الاتساع**: فبقدر ما تتعدد الجوانب التي تكون النظرية قادرة على التكفل بها تزداد أهميتها. فالنحو الذي يتوقع توقعاً صحيحاً ائتلافَ *peu* (قليل) مع الصفات لا يأتي بالأمر العُجاب. وإذا ما توقع مجموع استعمالات *peu* بما فيها استعمالاتها في المجموعة الإسمية فذلك أحسَن. وإذا ما كانت صالحةً لكلّ أنواع الرَّدِيف المفيدة للتّأكيد فهذا أحسن من ذلك، وهكذا دواليْك.

ـ ونعطي مكانة أيضاً لمقياس **البساطة** متّفقين في هذا مع ل. هيلمسلاف (L. Hjelmslev) (اللساني الدانماركي الذي صاغ تصوراً جبرياً لاشتغال اللغة)؛ فبقدر ما تُصاغ النظرية صياغة بسيطة ـ مع اعتبار كلّ ما يجب أخذه بالاعتبار ـ تكون مرْضيّة. وقد توغّلت بعض البحوث اللسانية (بخاصّة ضمن التّيار المسمّى «توليدياً» والذي رائدُه تشومسكي) في التعقيد إلى أن تصبح غير مفهومة. من الأكيد أنّه لا شيءَ يضمن أن تكون أسس اللسان بسيطة. وما يبعث على اعتقاد أنها بسيطةٌ السهولةُ التي تسم اكتسابَ الطفل مبادئَ لسانه الأمّ، والأفضل أن ينطلق المرءُ من المبدأ الذي يفيد أن التفسير الملتوي ناتجٌ عادة من فهم رديء للأشياء.

ـ يبقى توافرُ حاجة أساسيّة هي **التعميمية**، فمن المفروض أن يسمو الباحث بالعمل التفسيري إلى مستوى رفيع من التجريد، ويمكن أن تكون النظريات التوقعية في مستويات من التعْميميّة شديدة

الاختلاف، وسنبين ذلك بالاعتماد على مثال دقيق هو مثال الفعل «الاحتمالي» (Subjonctif) في الفرنسية.

التعميمية التفسيرية

1 ـ في أدنى مستوى (وهو أبعد ما يكون من التفسير الحقيقي) لا تتجاوز النظرية التوقعيّة مجردَ التعداد، من ذلك أنه يمكن القول إنّ الصيغة الاحتمالية تُفرض مع التبائع التتميميّة في نطاق قائمة تُحدَّد من الأفعال (*avoir peur que*: خاف أن، *craindre que*: خشي أن، *empêcher que*: منع من أن، *s'opposer à ce que*: اعترض على، *désirer que*: رغب في أن، *souhaiter que*: تمنّى أن، *vouloir que*: أراد أن، *regretter que*: أسف أو ندم على، *déplorer que*: تأسّف على، *se réjouir que*: ابتهج لـ . . .، *il est possible que*: من الممكن أن، *il faut que*: يجب أن)؛ لا يقتضي التوقع هنا سوى الاستقصاء التعدادي وانعدام الاستثناءات (بيان متى يمكن أيضاً استعمال الصّيغة الفعلية الإشارية). ويكون التوقع مرْضياً إذا كان الفعل في الجملة الرئيسيّة من القائمة المعنية. تسود التقنية التعدادية في اللسانيات الآلية وتسجل «معاجم» ضخمة دفعة واحدة توليفية واسعة النطاق بحيث يصبح التكوين السليم أمراً راجعاً إلى مجرد الملاءَمة. ولا يكون للتوقع هنا طموح تفسيري حتى ولو كان غاية في التوفيق.

2 ـ يمكن أن نتقدّم درجةً بجمع الأفعال التي تتطلب الصيغة الاحتمالية في أصناف دلالية كأفعال الخوف، وأفعال المنع وأفعال الإرادة وأفعال التقدير . . . إلخ. وتحدَّد هذه الأفعال بسمات دلالية، وإذاك يبدأ تحرك نحو التعميمية.

3 ـ لكن لِنخْطُ خطوة أخرى، فالأصناف المعزولة تشترك في

أنها تضع فعلَ التبيعة في مجال الممكن، فلا يمكن للمرء أن يخاف أو أن يجتنب إلا ما يوشك أن يحدث. ولا يمكن له أن يريد إرادة معقولة إلا ما يظنه ممكناً؛ ولا يأسف إلا عما كان يمكن أن يكون مخالفاً لما حصل[15]؛ هكذا تظهر الصيغة الاحتمالية دالة على التقديرية، لا شك في أنّ هذا أمر صحيح. لكن بقدر ما يقوى التجريد تتفاقم صعوبة الاستجابة لمقتضيات الشّكْلَنة. كيف الربط بصفة صريحة بين فكرة الإمكان المجردة وتنوع الظواهر؟ لماذا يقال *Il est probable qu'il viendra*: (من الممكن أن يأتي)، [في حين أنه يقال] : *Il est peu probable qu'il vienne* (من المستبعد أن يأتي)[16]؛ لماذا [يقال] *J'espère qu'il viendra*: (أرجو أو أتمنّى أن يأتي)؛ [لكن يقال] *Je voudrais qu'il vienne*: (أريد أن يأتي)[17].

4 ـ هكذا تُفرض الحاجة إلى التفكير في فكرة الممكن ذاتها. إنّ أصناف المنطق التّعديلي ـ وبخاصة ما يسمّى منها بمنطق «العوالم الممكنة» ـ يعيننا أيّما إعانة، ولنقل بصفة إجمالية إنه يمكن أن يُتصوّر الممكن على أنّه مجموعة غير متناقضة من الأقوال. ويتسنّى النفاذ إلى العوالم الممكنة انطلاقاً من الحاضر (ما يعتبره المرءُ ممكناً)، أو من الماضي (ما اعتُبر ممكناً، أو اعتبَره شخص آخر ممكناً، أو مازال يعتبره كذلك مع أنه أصبح يُعتبَر خاطئاً). في الحالة الأولى تكون العوالم الممكنة موجودة بالقوّة، وفي الثانية تُعتَبر غير حقيقية.

---

(15) يحلل المؤلّف في هذه الأسطر ما تفيده الجمل المتضمّنة لأفعال: خاف واجتنب أو منع وأراد وأسف لإفادة هذه الصّيغ مفهوم التقديرية.

(16) في الجملة الأولى كان الفعل الثاني في الصيغة الإشارية للمستقبل، وفي الجملة الثانية استعملت الصيغة الاحتمالية للفعل الثاني.

(17) جاء الفعل الأوّل في الجملة الأولى في صيغة الحاضر الإشارية، والفعل الثاني في صيغة المستقبل، أمّا في الجملة الثانية فقد استعمل الفعل الأوّل في الصّيغة الشرطية، والثاني في الصيغة الاحتمالية.

إنّ الاحتمالي في الفرنسية يُدرِج القولَ الذي يتناولُه في عالم ممكن، محتمل: (*Je veux qu'il vienne*: أريد أن يأتي)، أو غير حقيقي (*Je regrette qu'il soit venu*: آسَف لإتيانه). والجُمَيْلة الواردة في حقْل أداة الربط *bien que* (رغم أنّ) هي فعلاً قولٌ حقّ (ج رغم أنّ د يقتضي حقيقة ج ود). لكن كان يمكن أن نظنّ أن د => لا - ج. وهذا الاقتضاء ينتمي إلى عالم غير حقيقي، وهذا ما يفسر استعمالَ الصيغة الاحتمالية.

نرى كيف يمكن عن طريق مراحل تجريبية متعاقبة أن نرقى نحو خطة تفسيرية، لكن نرى أيضاً أنّه بقدر ما يزداد الخطاب تعميميةً تضعف العلاقة المباشرة بالظواهر. كيف يمكن للبرنامج الآلي أن «يحسب» أن هذا الفعل، أو ذاك، أو هذه الرابطة تحمل فكرة الممكن؟ يجب تزويده بالمعلومات المفيدة بواسطة «قاموس». هذا يجعلنا نقول إنّ الوظيفتين التوقعية والتفسيرية متكاملتان، وإنّ مقتضياتهما ليست واحدة، وإنّه يجب لتكون النظرية اللسانية مرضية أن تَعرِضَ معاً ما ترميان إليه. تسود فكرة الشّكْلَنة في إحداهما وفكرة التعميمية في الأخرى.

شكلا التعميمية التفسيرية

بالتمييز بين اللسان واللغة توفّر اللسانيات لنفسِها شكلين من التعميم التفسيري:

1 ـ في مستوى اللسان يتمثل التعميم عند تناول المعطيات، وحدةً وحدةً وجريداً جريداً (براديغم)، في المُصَادرة على محتوى مجرد كفيل بأن ينتج في الخطاب عدداً غير متناهٍ من الآثار التي يمكن معاينتُها، ويسمي اللسانيّ الفرنسي غوستاف غيوم هذا المحتوى «مدلول القوة» (Signifié de puissance) المقابل لـ«مدلولات

الأثر» (Signifiés d'effet) (المعاني التي تُنجَز في الخطاب).

سنأخذ مثالاً لهذا الزمنَ الحاضرَ في الفرنسية [ونقول] مرة أخرى إننا سنتناول المثال بايجاز. فليس هو المهم في حد ذاته وإنما هي الفكرة التي نستنتجها منه، أو هي هنا أنّ اللسان محل محتويات غاية في التجريد توفّر خطة تفسير لتنوّع الخطابات. يوفّر الحاضر في الخطاب عدداً كبيراً من التأثيرات [المعنوية]: يقابل الحاضر «الحيني» (Ponctuel) (*Le voici qui tire au but*: ها هو يقذف نحو الهدف) الحاضرَ «الاعتيادي» (Habituel) (*Le soir, il prend le métro*: في المساء يركب المترو)، أو الحاضرَ «العامّ» (Présent générique) (*Deux et deux font quatre*: اثنان واثنان يساويان أربعة). يمكن أن يكون للحاضر معنى قريب من المستقبل (*Il part demain*: يسافر غداً)، أو الماضي القريب (*Je sors de chez lui*: أنا آت من عنده ـ الواقع أنني أتيت من عنده منذ بضع لحظات). بل يمكن أن يُستعمل الحاضر في القصّ (Récit) (المسمّى بحاضر «السّرد» (Narration)، أو الحاضر «التاريخي» (Historique)): حدث لي أمر غريب: خرجت من بيتي وذهبت إلى المترو، وانتظرت على الرصيف فرأيت...[18].

يتمثل افتراض أوّل «وظيفي» في معاملة الحاضر على أنّه زمن «غير مَوْسوم»، وبحسب هذا التصوّر فإنّ الحاضر ينطبق على كلّ ما ليس ماضياً ولا مستقبلاً، ويرد حيث لا موجبَ للمقابلة بين الماضي والمستقبل، وهذا ما يحدث في ما هو من قبيل العادة أو التعميم،

---

(18) الأفعال الواردة في النصّ الفرنسي جاءت كلّها في الزمن الحاضر ولا يمكن ترجمتها إلى العربية بصيغة المضارع، لأنّ ذلك يغيّر المعنى المقصود.

Il m'est arrivé une drôle de chose: je sors de chez moi, je vais au métro, j'attends sur le quai et je vois ....

ومن أجل هذه القرابة ذاتها تتلاشى المقابلة بين المستقبل القريب والماضي القريب. وفي القصّ الذي يُستعمَل فيه الحاضر التاريخي تجري الأمورُ كما لو أنّ المرءَ يعيشُ من جديد الأحداثَ المروية فيضمحل الإحساسُ بالماضي. إجمالاً يُحدَّد الحاضرُ تحديداً سلبيّاً، ويتجاوز محتواه المجرد زوجَ الماضي ـ المستقبل.

ويعامَل الحاضرُ في فرضية أخرى معاملةَ كائن وليد «التركيب» (غ. غيوم). يجب ليوجد الحاضر أن يضم مداهُ زمنَ الكلام «زْ»، واللحظة الفاصلة بين ما مضى وما هو آتٍ، ويحمل الحاضر في طيّاته قطعةً من المستقبل وقطعة من الماضي تتّسعان أو تضيقان بحسب ما نريد. لا نقول إنّ زيداً يكتب رسالة إذا لم تنتَه كتابة جزء منها بعدُ، وإذا بقي جزءٌ آخر لم يكتب. يجمعُ الحاضرُ في صلبه جانباً مما مضى وجانباً مما هو آتٍ، ويمكن أن يختلف مدى الجزأين اختلافاً بيِّناً : [عندما أقول] *Depuis trente ans que j'habite ici* ... : (منذ الثلاثين سنة التي أسكن خلالها هنا) يغلب الماضي على ما هو آتٍ؛ *Désormais je me lève à six heures* (من الآن يكون نهوضي على الساعة السادسة): يمكن لي أن أقول هذا ولو أنني نِمت إلى الضحى في هذا الصباح ؛ فما ينتمي إلى الماضي هو فقط ما قرَّرته، فقراري قد حصل بعد. كذلك [في قولنا]: *Je pars demain* (أذهب غداً) (فإنّ نيّة الذهاب هي وحدها التي حصلت). لكن في كلّ خطاب يتمّ التأليف بين ما مضى وبين ما هو آتٍ، وفضل هذه المقاربة بالمقارنة مع الأخرى أنها لا تخلط بين الحاضر التّاريخي ونمط [قولنا] : *Je sors de chez lui* (أنا آتٍ من عنده). في الحاضر التاريخي فإن فكرة ماضٍ أعيشه من جديد تنقُل بصفة وهميّة إلى الماضي اللحظةَ «زْ»: هكذًا يمكن [لقولنا] *Je sors de chez lui* أن يكون حاضراً تاريخياً مقترناً بأثَر من «الماضي القريب» لكنه في

هذه المرّة بالنسبة إلى الزمن صفر المُحوَّل.

إنّ هاتين الفرضيتين أبعد ما تكونان عن التكافُؤ، لكنهما تشتركان في إسناد محتوى إلى الحاضر يتسم بأقصى التجريد. فالمقاربة التعميمية التي تؤسسُهما تبني أشياء تُعتبَر منتمية إلى اللسان وتمثل بمقتضى تجريدها خطة تفسيرية للخطاب.

2 ـ توفّر اللغةُ خطة تفسيرية أخرى لا للخطاب بل للسان ذاته، فعندما نلجأ في تفسير صيغة الفعل الاحتمالية إلى مفهوم الممكن، ونستغل كل خصائصه فإننا نتوخى مستوى من التعميم يتجاوز اللسانَ باعتباره نظاماً خاصّاً لنطلب مفهوماً كليّاً مستقلاً عن الألسُن الفردية إن كثيراً أو قليلاً. وتنتمي مثلُ هذه المفاهيم إلى اللسانيات العامة، وسنتناولها في الفصل التالي.

تختلف نظريةٌ لسانيةٌ ما عن غيرها اختلافاً كبيراً بحسب الفرضيات التي تفضلها والأهمية التي تُوليها لقابلية التوقع أو للتّجريد التفسيري، وترتيب المكونات. إنّ اللسانيات النظرية تتميز «بمناويل» متنوعة إلى أقصى حدّ. فمن المناويل ما يضع الأبنيةَ النحوية قاعدةً للنظام ويجعل من الدلالة (أي المعنى) مكوناً ثانوياً ذا طبيعة تأويلية، وهذا هو موقف النحو التوليدي الكلاسيكي (الذي ظهَر في السنوات 1970). ومنها ما يعتبر أنّ نقطة الانطلاق لا يمكن أن تكون إلاّ دلالية، وينجم عن هذه النظرة أنواع متنوعة من المناويل تختلف باختلاف المصادر المفضَّلة.

ـ «ما لا مفر منه من الفكر المشترك» (غ. غيوم) : لا يمكن تصوّر بعض الأشياء من دون أن نكون تصوّرنا قبل ذلك أشياء أخرى: فليس للنفي معنى من دون الإحالة على الإثبات، ولا للإمكان من دون الحقيقة، ولا للمحتوَى من دون المحتَوي... إلخ.

ـ «منطق طبيعيّ» تقوم عليه اللفيظات (يكتسي هذا المنطق أشكالاً شديدة التنوّع، مستوحاة قليلاً أو كثيراً من أنواع المنطق الموجودة).

ـ «مناويل علاقات «عميقة» (كما هو الشأن في ما يسمّى بنحو «الحالات الإعرابية»).

ينتج من هذا تنوع نظريّ هائل لا يمكن لنا في هذا الكتاب أن نقدّم عنه ولو لمحة موجزة. ويمثل هذا التنوع ثروة لفائدة اللسانيات، فهو يبعث إلى الوجود هنا كما هو الشأن في علوم أخرى نسبيّة عُلومية تفتح آفاقاً عريضة. فحيث كانت الفلسفة الوضعية تسعى إلى ترسيخ العلوم قصد توطيد مبادئها وطرقها توطيداً نهائياً فإنّ العلْم الحديث يرمي على عكس ذلك إلى وضع الأساس موضعَ نظرٍ لا ينتهي. وهكذا تكون «الأزمات» الحادثة محرّكاً لفائدة التقدم. ومن هذه الناحية تندرج اللسانيات ضمن أكثر العلوم الإنسانية خصوبة.

على أن خطر هذا يتمثل في تكاثر «الفرق الطائفية»، ويمكن للاختيارات النظرية أن تبلغ حدّاً من الإقصاء يجعل المدارس لا تتحرّج من أن يتجاهل بعضها بعضاً، لكن بدا تغيّر في الأمور يلوح في الآفاق: لا شكّ في أنّه من المشروع أن يستغلّ المرءُ النتائجَ انطلاقاً من اختيارات أوليّة استغلالاً منتظماً: لكن يجب في مجال المعطيات أن تتغلّب مواجهةُ الرأي على الالتزام بالصَّفاء التنظيري. ولئن كان من الواجب رفض الانتقائية وأنواع التأليف الزائفة فإنّ اللسانيات النظرية تغنم كلّ الغُنم من تجاوز الاختلافات وتفضيل المبادئ الموحِّدة والبحث عن كليات منهجية.

الفصل الثالث

اللسانيات العامة

اتّجه النظر، في كلّ ما سبق، إلى الألسُن الخاصّة سواء أكان ذلك لوصفها أم لتنظير اشتغالها. وللسانيات العامة مرام من نوع آخر: فهي تندرج بطبيعتها في الكليّ من الأمور، في ما وراء الألسن الخاصّة. ما هي إذاً بالتدقيق الغايات التي تحددها لنفسها؟ كيف يمكن النفاذ إلى «الكليات» وما الفائدة التي تُجنَى منها؟

غايات اللسانيات العامة

تصادِر اللسانيات العامة على وجود وظيفة كلّية تسمّى اللّغة وتمكّن جنسَنا البشري من إعطاء شكلٍ للأفكار وتبليغها: فليست الألسُنُ سوى إنجازات خاصّة. تعتمد فرضيةُ الكلّية على ملاحظةِ أنّ الألسن يمكن ترجمةُ بعضها إلى بعض، فلا بدّ إذاً من وجود أنواع من التّشاكُل القوي بينها، وهذه الأنواع من التّشاكل المسماة «بكليات اللغة» تكوّن نواة اللسانيات العامة. لكن كيف ننفذ إليها؟ من البديهي أنّه يستحيل التثبّت من توفّر سمة من السمات في كل ألسُن العالم الماضية والحاضرة والمعروفة ... والمجهولة. فللكليات حتماً صبغة افتراضية نظراً إلى أنّها تعتمد على الملاحظة، وأقصى ما تفضي إليه

الملاحظةُ هو تجميع الألسُن بحسب أنماطها، وما يعتبر من وراء ذلك «كلياً» هو ما تشترك فيه كلُّ الأنماط.

الأنماطيّة اللسانية

يمكن أن تكون الأنماطيّة وراثيةً أو هيكليّة:

1 ـ إذا كانت وراثية فإنها ترمي إلى تجميع الألسُن الصادرة عن لغة مشتركة. هكذا ترجع ما يسمى بالألسُن «الهندو ـ أوروبية» إلى لسان ليس لنا أيّ نصّ من نصوصه، لكن يمكن إعادة بناء عناصره، ولو جزئيّاً، عن طريق المقارنة بين الألسن المتولّدة عنه (بخاصّة السنسكريتية ـ لسان الهند القديم ـ واليونانية القديمة واللاتينية). وتتفرّع الأسرة الهندو ـ أوروبية إلى عدّة فروع: الألسن الهيلينية (اليونانية القديمة وضروبها واليونانية الحديثة)، والألسن السلافية (الروسية والبلغارية والتشيكية والبولونية والصربيّة والكرواتية والسلوفانية . . .)، والألسُن البلطيقية (اللوتيانية واللاتونية)، والألسن الجرمانية (الألمانية، والإنجليزية، والهولندية والدانماركية والسويدية . . .)، والألسن السلتية (الإيرلندية والغاليّة والبريطانية . . .)، والألسن الرّوْمنية (الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية . . .)، والألسن الهندو إيرانية (الهندي والبنغالي والفارسي والكردي . . .). توجد أُسَر لسانية أخرى وراثية يتسنى التعرف إليها إن قليلاً أو كثيراً: الأسرة الحامية السامية (العربية والعبرية . . .)، وأسرة البنطو الشاسعة (الولوف في السينغال والبمبرا في بلاد المالي والديولا في ساحل العاج والسواحلي في كينيا وتنزانيا والكونغو . . .)، والأسرة الفنلندية الأوغيرية (اللسان الفنلندي والمجري)، والأسرة الألتئية (التركية والكورية واليابانية . . .)، والأسرة الدرافية (في جنوب الهند). . . إلخ. وبالنظر إلى ما وصلت إليه المعارف في الوقت الراهن فمن المستحيل توفير تصنيف وراثي يفسح المجال لآلاف

الألسن المعروفة الأوروبية والإفريقية والماليزية والبولينيزية والآسيوية والأمريكية الهندية (النهواتل في المكسيك، والكِشوَى في كولومبيا والبيرو . . .). وحتى بالنسبة إلى ألسن قريبة منّا يبقى انتماء هذا اللسان أو ذاك مسألةً إشكالية (الباسك والألبانية). بالإضافة إلى هذا فإنّه يمكن للتجاور الجغرافي والتأثّر الحاصل بين الألسن المتجاورة أن يجعل المرءَ يتوهّم صلة أسرية لا وجود لها البتة.

2 ـ تعرض اللسانيات العامة نَمَطيّة من نوع آخر ليست وراثية بل هي هيكلية، وتتمثل المقاربة في اختيار ظواهر يمكن أن يكون لها مفعولٌ في عامة البنية. وكان أكثرُ المقاييس اعتماداً في القرن التاسع عشر (أوّلاً من قِبَل الأخوين شليغل (Schlegel) ثم همبولدت (.W W. Humboldt)، ثمّ عمّم استعماله شلايشر (A. Schleicher)) هو الدمج المتفاوت القوة للعناصر اللسانية بعضها في بعض. ففي حالة الاستقلال الصّرفي يسمَّى النّمط «عازلاً» (مثال الصينية)، وفي حالة التجاور يسمى «إدماجيّاً» (مثال التركية)، وفي حالة الانصهار يسمّى «إعرابياً» (مثال العربية). والواقع أن هذا المقياس عسير الاستعمال، فلا وجود للسان ينتمي انتماءً كليّاً لهذا النمط أو ذاك، ويجب على الأقلّ تعديله بمقاربة إحصائية.

تبدو اليوم سبل أخرى أكثر ملاءمة، فقد أُفسِح مجال واسع لمترتبة الفاعل (فا) والمفعول (مف) والفعل (ف)؛ تفضل بعض اللغات الترتيب: **فا. ف. مف** (الفرنسية)، وأخرى الترتيب: **فا. مف. ف** (اليابانية، ولكن كذلك على نطاق واسع اللاتينية بل حتى الألمانية إذا أخذنا التبيعَة بالاعتبار)؛ وفي ألسُن أخرى ـ وهي أقلّ عدداً ـ يسود الترتيب **ف. فا. مف** (مثال العربية الكلاسيكيّة) أو **ف. مف. فا** (مثال الملغاشية). وهذه الأنماط لها ارتباط متبادل مع ظواهر أخرى كوجود الأداة أو التردّف (préposition ; postposition)، وموقع الصّفة

والمتمّم التحديدي ضمن المجموعة الإسميّة، أو كذلك الإلحاق أو الإسباق. ويمكن استخراج «استنتاجات» جرينبارج (Greenberg) متنوّعة (الألسن من نمط **ف. فا. مف** تميل ميلاً واضحاً إلى استعمال الزّيادة في الصّدر، والألسن من نمط **فا. مف. ف** إلى الزيادة في العجز).

تميّز سمة أخرى ذات مغزى الألسن التي لها علامات إعرابية عن الألسن الخالية منها، ومن الأولى الألسن «الأرغتيّة» (Langues ergatives)، والألسن «الإعرابيّة» (Langues accusatives)؛ ففي الألسن ذات الحالة الواحدة (مثال لسان الباسك) يكون لفاعل الفعل اللازم حالة إعرابية مماثلة لحالة المفعول به (وهو الفعل الذي لا مفعول له) (وهذه الحالة تسمى «إطلاقية» (Absolutif)، ولا تختلف حالة الفاعل عن حالة المفعول إلاّ مع الفعل المتعدّي. وفي الألسُن الإعرابية (مثال اللاتينية والألمانية) يكون الفاعل في حالة الرّفع سواء أكان الفعل متعدّياً أم لازماً، ولا ينصب إلاّ المفعول. ويلاحَظ في النمطين أنواع متنوّعة من الترابط المتبادل. هكذا تكون الألسن الأرغتيّة حساسة لمظاهر الاكتمال أو عدمه، ففي اللّسان الجيورجي لا يكون الفاعلُ في حالة أرغتيّة إلاّ إذا كان فعلُه متعدّياً، ووصل حدوثُه إلى نهايته.

توجد حول هذه المسائل أدبيّات عديدة جدّاً، ومن المستحيل تناولُ أيّ مسألة من المسائلِ المذكورة. والذي يهمّنا فقط هو ما تحدّده اللسانيات العامة لنفسها من غايات، ونجد «الكليات» في صلب هذا النقاش.

أنماط الكلّيات

الكليات اللغوية نوعان على الأقلّ: **الكليّات الوظيفية والكليّات المتصوَّرية.**

ـ تشتغل الألسن بحسب مبادئ مشتركة: هذه المبادئ هي **مبادئ وظيفيّة**، هكذا فإنّ كلّ ألسن العالم مزدوجة التّمفصل: تُقَطّع السلسلة الصوتية إلى صواتم، وهي وحدات دنيا تنتمي إلى صعيد الدالّ. ولكلّ لسان عدد محدود من الصّواتم الصائتة والصامتة، ومن ناحية أخرى تقطع السلسلة الصوتية إلى صَياغِم، وهي وحدات دنيا تنتمي إلى صعيد المدلول (فكلمة مثل ماورائي تتضمّن أربعةَ عناصر: الجذر (و،ر،ء)، والوزن فَعال، والسّابقة ما واللاحقة ـي الدالّة على النّسبة)[1]؛ وكلّ الألسن لها صَياغم، ويمثل ازدواج التّمفصل إلى صواتم وصياغم كليّاً وظيفياً.

ـ وتبدو الألسن مستعملة **لكليات مُتصوَّرية**، هذا هو شأن النفي، فكلّ الألسن لها متصوَّره، ويمكن لكلها أن تعبِّر بطريقة أو بأخرى عن أنّ الشيء كائن أو غير كائن. يتجلّى النفي في هذا اللسان بواسطة أداة (**لا** أو **ما** أو **لن** أو **لمْ** في العربيّة)[2]. وفي أخرى بواسطة المَسانيد (في اللسان الفنلندي يتصرّف (se fléchit) النفي تصرّفَ الفعل)؛ فالفكرة المنفيّة كامنة في كلّ كلام، ولا يمكن أن نتصوّر لساناً لا يمكن له أن يقول: إنّ شيئاً ما غيرُ كائن.

يفسِّر هذا الاشتراك الوظيفي والمتصوّري إمكانيّةَ تطبيق الطرق الوصفية نفسها على كلّ الألسُن: وتبدو هكذا هذه الطرقُ **كلّياتٍ منهجيةً**. الحقّ يقال إنّ الوصف يكشِف بيْن لسان وآخر تنويعات عجيبة. واللسانيات العامة تنشُط بين هذين القطبين: فهي تبحث عن المبادئ الكليّة والمتصوَّرات المشتركة. وهي تجسّم وتصنّف

---

(1) ترجمة المثال الفرنسي هي: كلمة مثل *détournement* (اختلاس ـ تبديل اتجاه) تتضمّن ثلاثة صياغم، السّابقة ـ *dé* والجذع *tourn* من الفعل *tourner* (أدار) واللاحقة *ement* الدّالة على العمليّة.

(2) أداة النفي في الفرنسيّة هي *ne*.

الترجمات اللامتناهية التي تستعملها الألسُن الخاصّة لذلك، فالمجال شاسع، وسنحاول فقط أن نحْسن فهْمَ ماذا يمكن أن تكون «الكليّات الوظيفية»، وما هي التمشيات التي يمكن أن تَهدينا إلى «الكليّات المتصوّرية».

الكلّيات الوظيفية

ليس للّسانيات العامة معنًى إذا لم تشتغِل الألسن في مستوى معيّن من العمق بالطريقة، تعتمد هذه المصادرة، إذا ما تجاوزنا ملاحظة أنّ الألسن يمكن أن يتحوّل بعضها إلى بعض، نوعين من التّشاكُل: وظيفيّات متماثلة وخصائص مشتركة.

وظيفيات متماثلة

1 ـ كلّ الألسن **مزدوجة التّمفصل**، وقد ذكرنا هذا الجانب اللافت جداً. نضيف إلى هذا أن كلّ الألسن **مزدوجة الهيكلة**: لها وحدات ذات معنى تولّف بينها بحسب قواعد تكوّن تركيبية (Syntaxe).

2 ـ كلّ الألسن تشتغل اشتغالَ **أنظمة رمزيّة**، فلستُ بحاجة إلى وجود قِطّ أمامي ليمكن لي الكلام عن القِطَط؛ ولست بحاجة إلى الجرْي لأذكر العدْو. فالدّلائل اللسانية تقوم مقام الأشياء وتحمل في صُلبها فكرة الأشياء. فهذا يكاد يكون من قبيل البديهيّات. لكنْ لنلاحظ مع ذلك أنّ الوظيفة الرّمزية يمكن أن تُحجَب: فقد يحدث أن تحيل الدّلائل على ذاتها عوض أن تحيل على الأشياء. تُرسَم طاولة (Table) في الجمع مختومة بـ «ـات»، وهذا لا يفيد شيئاً حول أيّ طاولة، ولكن يحيل على كلمة طاولة فقط. ومِن أجل هذا يُصاب النّحو ذاته بالبلبلة ويمكن أن تنجم عنه المفارقات. ففي الجملة «طاولة اسم مؤنّث» *Table est un nom féminin* تُعتبر طاولة اسماً

مذكّراً. هل يعتبر هذا محالاً؟ كلاّ، إذ يقال فعلاً «طاولة اسم مكتوب من دون «ـات» (Table *est écrit sans «s»*)، لا ★مكتوبة[3]؛ ذلك أنّ طاولة في هذه الحالة ذاتيّة الإحالة وتشتغل على أنها اسم مذكّر. فلنحذر التّسليم بالبديهيات في اللسانيات كما في غيرها. هكذا يفضي بنا الطريق إلى كليّ آخر هو أنّ ألسُن العالم كلّها تقبل ذاتيّةَ الإحالة وكلّها تستعمل لذاتها أداةً ورَلغوية (Métalangage).

يلاحَظ أيضاً أنّ بعض العناصر تخلو من الوظيفة الرّمزية: هذا هو شأن بعض المحاكيّات. فإن احترقت يدي باللوحة الكهربائية فجذبتها بسرعة صائحاً: أي! (aïe)، وهذه المُحاكية ليست إلاّ ردّ فعل تعبيراً عن الألم، فالاحتراق هو الذي أحدَثها باعتبارها استجابة لمنبّه (Stimulus). فلا رمز في أي! لكن هل هذا كذلك دليل لغوي؟ فهلْ يمكن أن تكون اللغة التي لا تنتج إلا صيحات من هذا القبيل لساناً؟ فالوظيفة الرّمزية ـ التي ليست خاصّة بالألسن الطبيعية ـ لا يمكن مع ذلك أن تُفصَل عنها (انظر ص 116 ـ 117).

3 ـ من وجهة نظر كليّة فإنّ التّركيبيّة الأساسيّة ـ وإن كان شكلُها شديد التّنوّع ـ هي **الإسناد**: أي أنّ شيئاً ما يقال عن شيء ما. فالمُسند يُحمَل على فاعل، وقد وُضِعت كلّ الألسُن لتشتغل بهذه الطريقة. كلّ مُسنَد يفترض وجودَ كائن (لنقل كما يقال في المنطق: مَوضُوع) ينطبق عليه (وكائنات عدة إذا تمثّل الإسناد في علاقة مثل: بعضهم يرى شيئاً (qqn voit qqc.)، بعضُهم يعطي بعضاً شيئاً. . . (....qqn donne qqc, à qqn)). يفضي الاشتغال بحسب هذه الآلية الأساسية في جلّ الألسن إلى المقابلة بين الاسم والفعل، فللفعل محلاّت موضوعيّة (أ يعطي ب ج)؛ والاسم كفيل

(3) لكن إذا حذفنا كلمة «اسم» فإنّه يجب التأنيث خلافاً للفرنسيّة (طاولة تُكتَب. . .).

بـ «إشباعها»، فهو يحمل في صلبه الوظيفة الموضوعيّة.

بعد هذا فالاسم ذاته محلّ إسناد: السّائق[4] هو الكائن الذي وظيفتُه قيادةُ السّيارة، لكن يوجد في الاسم إسناد داخلي: فما يقوله يقوله عن ذاته، في حين أن الفعل أو الصفة يقول عن الاسم ما يقوله، ويجب لتكوين لفيظٍ إسنادٌ فعليٌّ.

يتحقّق هذا الشّكل الأساسي بطرُق مختلفة بحسبَ الألسُن ويقبل ضروبَ التنويعات كلها:

ـ في بعض الألسن ليست المقابلة الصّرفية قائمة بين الفعل والاسم، ويُذكر عادة في هذا الصّدد الألسُن الأمريكية الهندية: الكليسبال والكومكس والنوتكا (Le kalispel, le comoxe, le notka). فالدّليل الذي قد يترجَم بكلمة إنسان يعني في آن واحد «إنساناً» و«كائناً إنسانيّاً» (être un homme)، فـ «إنسان» يمكن أن يقوم بدور الاسم، كما يكون مسنداً خبرياً أو وجودياً (attributif ou existentiel prédicat)؛ ليس لهذه الألسُن أسماء حقيقية وإنّما لها وحدات كفيلة بأن تقوم بدور الموضوع.

ـ نلاحظ في الألسُن ذات الأفعال والأسماء حيث يتسنّى التّعرف إلى الأسماء صرفياً (في اللاتينية لها أشكال إعرابية، وفي الفرنسية تتألّف مع أدوات التعريف . . .)، أنّ إسناد الوجود (أو الحدوث) المفترض مسبَقاً توفّره في كلّ الإسنادات الأخرى (فاكتساب الشيء خاصيّة من الخصائص يقتضي وجودَه) يمكن أن يكون غيرَ معبّر عنه، وفي هذه الحالة يكوّن الاسمُ «جملة اسمية». [قولنا] طائرة!؛ [معناه] «توجد طائرة». (*Un avion!*: «il y a un avion»). إنّ الإسناد

(4) الترجمة الحرفية هي: موزع البريد (*facteur*) يسمّى الكائن الذي وظيفته توزيع البريد.

الداخلي في الاسم يكفي باقترانه بفكرة الوجود، أو الحدوث لتكوين جملة. ولا نعني هنا أنّ الاسم ليس اسماً حقيقياً، وإنّما نعني أنّ الإسناد الوجودي ضِمنيّ. يمكن أن نذكر أيضاً الألسنَ العديدة التي تشتغل فيها الصّفة على أنّها إسناد خبري (الرّوسية، الكورية . . .)[5]. [فعبارة] *belle maison* تعني في هذا اللّسان «la maison est belle»[6].

ـ للكثير من الألسن مسانيد «لاضميرية» (Impersonnel)؛ (في اللاّتينية pluit) معناه «المطرُ ينزل». فالمسند يُبنى لا على شيء، وإنما يُبنى على الوضع الذي يكون فيه المرْءُ، على الكون كما يظهر، والفاعل هو الذي يكون في هذه المرّة ضِمنيّاً. لكن لبعض الألسن فاعل مخصوص يسمّى «لاضميرياً»، وهو ضرب من «شخص الكون» (Personne d'univers)، الذي يدلّ نحوياً على أنّ الفاعل ينطبق فعلاً على شيء من الأشياء (*Il pleut*; all. *es regnet*; angl. *It is raining*) «المطر ينزل».

ـ يضاف إلى هذا إجراءات متنوعة يقوم فيها الفعلُ ـ اللاّمصرَّف (Infinitif) ـ بدور المسند إليه (أن تذهب معناه أن تموت جزئيّاً)[7]. لكن الذي يقوم مقامَ المسْند إليه ليس الفعل، وإنما المجموعة التي يحتل مركزَها (أن تغالط مصلحة الضرائب يمكن أن يكون خطراً (*Tromper le fisc peut être dangereux*)). وكثيراً ما تخفّف إجراءات متنوّعة هذا الخروج عن المألوف (التذكير بالضمير: أن تذهب هو (*Partir c'est...*))؛ استعمال أداة: لأن أفعل فذلك ما أنفر منه . . .

---

(5) يمكن أن نضيف العربية في الجملة الاسمية المركبة من اسم وصفة.

(6) الترجمة الحرفية «جميلة الدّار» تعني «الدّار جميلة»، والصيغتان في العربية جملتان مستقيمتان.

(7) *Partir c'est mourir* (الذهاب هو الموت)، مثال قريب من هذا في العربية: أن تصوموا خير لكم.

.((D'agir ainsi me répugne)...

ـ لا شيءَ من هذا يبعث على الشك في الظاهرة الأساسية، أي المبدأ الكوني للإسناد والتميز الأساسي بين المسند والمَوضوع.

4 ـ لكلّ الألسُن إجراءات شديدة التّنوّع حقّاً لوَسم إرساء الذوات المسند إليها في الواقع، وتسمّى هذه الإجراءات **إحاليّة**.

ـ دلائل «تأشيريّة» (Indexicaux) تحيل عن طريق فعل الكلام ذاته. فكلمة مثل أنا تحدَّد بـ «من يقول أنا»، وليس لِـ أنا إحالة خارج فعل الكلام، ومن فعل كلام إلى فعل آخر تتغيّر إحالتها. أنت هو الذي أقول له «أنت» ؛ هنا تعيّن المكان الذي فيه من يقول «هنا»؛ والآن تعيّن اللّحظة التي يقول فيها المتكلّم «الآن». لكلّ الألسُن مثل هذه الدلائل «التأشيريّة» ولو جاءت في أشكال متنوّعة. يمكن للمرء على سبيل المثال أن يسمّي نفسه عبداً، ويسمّي «أنت» سيداً أو أميراً... لكن لا يخلط أيّ لسان بين المتكلّم والمخاطب، تؤسّس عبارات *ego, hic et nunc* (أنا، هنا، الآن) الفضاءَ الإحاليّ. والنظام الزمني في كلّ الألسن ذو طبيعة تأشيريّة، وينتظم بالنسبة إلى لحظة الكلام المتغيّرة.

ـ دلائل «حدوثيّة» (Déictiques) (بخاصة أسماء الإشارة) تموْضع [الشّيء] بلفت الأنظار إليها (هذا الكتاب الذي أريه)، أو بتحديد مدى قربه (مثلاً في اللاتينية مدى قرْب الشّيء من الشّخص الأوّل، الأقرب: hic والثّاني : iste، والثّالث أي الأبعد: ille). وتموْضع دلائل تردادية (Anaphorique) الشّيءَ بحسب اعتبار أنه من الممكن للمخاطب التعرّفُ إليه أو افتراض أنه ليس كذلك. (فـ «الكتاب» (le livre) في العربيّة [بالْ العهدية] هو الكتاب الذي تعرفه؛ وكتابٌ (un livre) يعيّن شيئاً لم يتمّ بعد التعرّف إليه من بين

الكتُب). لكن هذه الوظائف هي في الكثير من الألسن وظائف ضِمنية إلى حدّ كبير.

ـ تمكّن الألسن كلها من التمييز بين الإحالة على الجنس (Générique) (المرأة نصف المجتمع) والإحالة المخصوصة (Spécifique) (دخلت المرأة)[8]؛ وفي أحيان كثيرة يحدَّد المعنى المقصود عن طريق السّياق وحده (كما هو الشّأن في العربيّة حيث تقبل أداة التّعريف استعماليْن)[9]. في ألسُن أخرى تعتمد لذلك «مصنِّفات»، كما هو الشأن في الطُنقا (لسان من البنطو: *mu-ntu* «رجل»؛ *ba-ntu* «رِجال»؛ *bu-ntu* «إنسانية». وإذا كانت الإحالة خصوصيّة، يتمّ التمييز أيضاً بين الإسناد الحدثي والإسناد العادي؛ والفصل [بين الإثنين] يتمّ في العربيّة من جديد بواسطة السياق (هو يدخّن» «هو بصدد التدخين» / «من عادته أن يدخّن»)[10]، بينما الإنجليزية، وكذلك ألسن عديدة [أخرى] تفصل صرفياً أحدَ الاستعمالين عن الآخر *He is smoking/He smokes* «هو يدخّن/ هو بصدد التدخين». He is working ten hours a day في هذه الآونة يعمل عشر ساعات في اليوم». *He works ten hours a day* «يعمل عادة عشر ساعات في اليوم»...

لكلّ هذه الآليات مدى كوْنيّ لا بطُرقها الإجرائيّة وإنما بالوظيفة: فللألسن وسائلُ تمييز متنوّعة ومتقاربة إلى حدّ كبير.

---

(8) المثال الفرنسي هو: *L'homme est mortel* (الإنسان ميّت)، *L'homme entra* (★الإنسان دخل) هذه الترجمة غير مقبولة في العربية فقد احتفظت كلمة إنسان بدلالتها على الجنس البشري فلا يتسنى استعمالها بتعريف العهد.

(9) الترجمة الحرفية: (كما هو الشأن في الفرنسية حيث تقبل le الاستعمالين).

(10) ترجمنا هنا المثال الفرنسي لأن التمييز في العربية كما في الفرنسية يتم بفضل السياق.

والصّبغة الكليّة صادرة عن وظيفيّات مشتركة على الرغم من الاختلافات الشديدة على الصعيد الصرفي.

5 ـ لكلّ الألسن التّصرّف نفسه بالنظر إلى **الحقائقيّة**، إذ يكفي للفيظٍ مهما كان لسانه أن يكون إثباتيّاً ليدّعي قول الحقّ. وحتّى إذا كان اللّفيظ منفيّاً فإنه يقول الحقّ كونياً، فهو يقوله بقوْله ما ليس كذلك. وتمكّن كل الألسن أيضاً من طرح السؤال بطرُق متنوّعة، إذ ذاك تصبح قيمة حقّ القضية المطروحة للجدل معلّقةً، وعلى الطرف المخاطب أن يثبتها إن كان قادراً على ذلك، هذه هي على الأقل آلية الاستفهام الشامل الذي يستدعي الجواب بنعم أو لا. (ـ هل رجع زيد؟ ـ نعم/ لا). وفي الاستفهام المسمّى «جزئياً» ليس للقضية قيمة حقّ لأنها تتضمّن متغيّراً يجب أن يشبعه الجواب (ـ من جاء؟ ـ زيد)، ويحقّ لنا أن نرى في الاستفهام كلّياً لغوياً على الرغم من شدّة الاختلاف الصرفي بين عناصر المشاكلة، ومثال ذلك :

ـ مع المُتْبِعات (Subordonnants) (التّبيعة ليس لها بدورها قيمة حقّ، وهي تكتسبها بفضل الفعل أو الرّابطة (Conjonction) التي تَبنيها)؛ في كثير من الألسن فإن شكل الموصول (*qu-* في الفرنسية، *wh-* في الإنجليزية) مماثل أو شبيه بشكل أدوات الاستفهام[11].

ـ أو مع الافتراض أيضاً: في الفرنسية، فإنّ [الأداة] *si* (إن، إذا) هي في الآن ذاته علامة الاستفهام غير المباشر والجميْلة الافتراضية، وهذا شأن *if* في الإنجليزية (التي تستبدل بـ *whether*). وفي العربية تستعمل الأداة متى للسؤال عن الزّمن «*quand*» وتقترب هنا وهناك من الشّرط[12].

---

(11) المشترك في العربية من أسماء الموصول مماثل لبعض أسماء الاستفهام و هذا هو شأن «من وما وأيّ».

(12) المثال العربي وارد في النّص الأصلي.

الألسن كلها تمكّن من اختيار الإثبات والاستفهام والأمر، وكلها تمكّن من تعديل اللّفيظ، فما أقوله يمكن لأسباب مختلفة أن يخرُج عن اليقين، فعدم اليقين يمكن أن يكون في الأشياء ذاتها، (التّعديلة الموصوفة بـ «الإمكانيّة»: يمكن أن ينزل المطر غداً)، وفي معرفتي بالأشياء (التّعديلة الموصوفة بـ «العُلوميّة»: أشك في أنّه عاد)، وفي مآل القيام بواجب، أو في الترخيص (التعديلة الموصوفة بـ«لإلزامية»: يجب أن أفعله ـ فهل يترتب عن هذا الإلزام فعلٌ؟) الألسن كلها تفسح مجالاً للتعديلات الحقائقية). لكنّ بعضها يذهب في [هذا المجال] أبعد من الأخرى. هكذا فالتيوكا (لسان يستعمل في كولومبيا والبرازيل) له جريد عُلوميّ (Paradigme épistémique) كامل يُعدَّل بحسب المعلومة المبلَّغة:

لعب: قد رأيته	*diiga apé - wi*
لعب: قد سمعته	*- ti*
لعب: عندي قرائن [على ذلك] (مثلاً بصمات حذائه على أرض اللعب)	*- yi*
لعب: لقد قيل لي ذلك	*- 'yigi*
لعب: يمكن افتراض ذلك (مثلاً لأنّ من عادته اللّعب يوم الجمعة ونحن في يوم الجمعة).	*- hiyi*

بلغ الحرص على التدقيق هنا أقصاه. بصفة عامة تمكِّن الألسُن المرءَ من حقّ إثبات (التصريح بأنّ الأمر حقّ) ما يعتبره حقّاً مهما كان مصدره، لكنّ كلها تمكّن من تعديل مدى اليقين.

تتراءى لنا إذن من وراء الفُروق أصناف مرموقة من التّشاكُل، وما ذكرناه منها هو من قبيل الوظائف. توجد تشاكُلات أخرى: وهي

الخصائص العديدة التي تشترك فيها الألسن.

خصائص مشتركة

1 ـ تتعادل في الألسن كلها نزعتان: إحداهما تكمُن في **حرّية التّوليفية** اللاّمتناهية الإمكانات، والأخرى في **التكلّس** (*Figement*). تتضمّن الألسن كلها عدداً هائلاً من التعابير الجاهزة ومن الضّغوط التّوليفية [فعبارة] *Pâté de maison* (هذْفة أي مجموعة البيوت) لا تعوَّض فيها *Pâté* بـ *bloc* (كتلة)، أو *amas* (كومة؛ جَمْع أو قطيع) أو *troupeau* أو *gâteau de maison*[13]؛ ومع هذا لا يبدو ذلك عند تدبّر المعنى أمراً مستبعداً. في الفرنسية [يُقال] (خرج من مأزق)، وفي الألمانية «يقدر المرء على أن يعين نفسه بنفسه» (*Manweiss sich zu helfen*)؛ في هذا اللّسانِ [يقال] (*on tire quelqu'un du pétrin*)[14]، وفي ذاك [يخلصه] من الوحل (*aus der Patsche ziehen*)؛ في جانب [يقال] *on tire les cartes à quelqu'un*[15]؛ وفي جانب آخر: وضع له الأوراق (*jemandem die Karten legen*)، والتصفيق [يوصف] في الفرنسية بـ *frénétique* (حادّ)، وفي الروسية بـ «الصّاخب» (*Tempétueux*)؛ وفي المجرية بـ«عاصف» (*Tourbillonnant*)، وفي الإنجليزية بـ«مُصمّ» «*assourdissant*» (*Deafening*). نغضب «ضدّ» فلان (*fachés contre...*) حيث يغضب الألماني «على» فلان (*se fâche sur...*). افتحْ قاموساً ثنائي اللّسان في أي صفحة من صفحاته تجد، إن كان مُحكَم الصّنع، وفرة من

---

(13) قطعة حلوى من البيوت؛ الكلمات الأربعة الأولى فيها معنى الجمع والتكتّل، وهذه الكلمة الخامسة تدلّ في الأصل على نوع من الفطائر.

(14) يخلّص المرء بعضهم من ورطة (حرفياً: يسلّ من العجين).

(15) تكهّن باستعمال ورق اللعب (حرفيّاً: سحب له الأوراق).

العبارات المتكلّسة قد تُرجمت بعبارات أخرى متكلّسة أيضاً. فالألسن أنظمة هي في آن واحد مفتوحة وخاضعة لقيود شديدة، وهذا من أهم صعوبات تعلّمها.

2 ـ الألسن أنظمة **إطنابيّة** أيضاً، ففي مجموع الألفاظ: *les grossières erreurs qui ont été commises*[16] يُوجد رسم تأنيث في *erreurs* وفي *grossières* وفي *commises*، ويظهر الجمع في *les*، وفي الوصل بين الصفة والاسم وفي [صيغة] *ont*؛ فالمطابقة النحوية هي التي تضمن تماسكَ المجموع. وعِلاوة على هذا، فالإطناب لا يوجد فقط في المستوى الصرفي، [فعبارة] عاطفة الحبّ (*le sentiment d'amour*) تستحضر مفهومَ العاطفة مرّتين، إذ لا يمكن تحديد الحبّ بطريقة أخرى، ومع ذلك فليس فيها تكرار (*Pléonasme*). وفي جحظت عيناه[17]، يدلّ الاسم على الشيء الوحيد الممكن [مع هذا الفعل]؛ وفي ارتكب ذنباً فإنّ [كلمة] ذنب تدلّ على الخطيئة التي يُفترَض [حدوثها] مِن ارتكب.

3 ـ تتضمّن كل الألسن وحدات **تداولية**، وبديهيّ أنّ بعض ليس بعضها مستقلاً عن بعض، فهي مترابطة بروابط كونيّة من اتّساع في المعنى وحصره وكناية (Métonymie)، قياس... (Analogie). ولأصناف الترابط هذه آثار شديدة التباعُد، ويختلف من لسان إلى آخر تنظيم التّدالّ اختلافاً شديداً، لكن الآلية [المعتمدة] هي ذاتها في الآليات كلها.

---

(16) «الأخطاء الفاحشة التي ارتُكبت»؛ تؤدي هذه الترجمة معنى المثال أداءً أميناً، لكن مظاهر الإطناب فيها لا تعكس ما جاء منه في الصّيغة الفرنسية، وهذه المظاهر في النّص العربي هي: تكرار رسم علامة جمع غير العاقل في «فاحشة» وفي «التي ارتُكبت».

(17) écarquiller les yeux. هذا الفعل لا يستعمَل إلاّ إلى الاسم yeux (العينان)، ومقابله الدقيق بالعربية هو «حَملق» لكنّه لا يقترن بكلمة عينين، أي لا يحتمل التكرار المعنوي.

4 ـ تنتظم الألسن بحسب مبدأ **تصنيفي ورتَبي**، فهي تتضمّن كلها مقولات تُهيْكلُها، مقولات نحوية (خصوصاً «أقسام الكلام» من أسماء وصفات وأفعال ورَدائف ...، ويختلف هنا أيضاً بعضها عن بعض من لسان إلى آخر)، ولكن أيضاً مقولات دلالية. فالوحدات تترابط باقتضاءات متوالية. على سبيل المثال فالوردة هي زهرة، والزّهرة نبتة، والنبتة كائن حيّ. والمسدَّس سلاح، والسّلاح آلة، والآلة شيء. ليست «المَقْوَلة» (Catégorisation) الدّلاليّة موْسومة صَرفيّاً في الألسُن الهندو ـ أوروبية، ويمكن أن تكون موْسومة في غيرها؛ تنزع «أصناف» (Classes) ألسن البنطو إلى تجميع الأشياء: الكائنات البشريّة، والأشجار والسّوائل... في الألسُن كلها تفضي إجراءات اقتضائية إلى «مقُولات» مفهومية هي في مستوى من التعميم متلائمة إلى حدّ بعيد، فالمقابلة بين الكائنات والأشياء، والإنسان والحيوان والنبات، وأصناف الأنشطة والاصطناعيّات (Artefacts) كلّ هذا يظهر في الألسن كلها بطريقة أو بأخرى.

5 ـ تتضافر الخاصّية التصنيفية في الألسن الطبيعية مع خاصّية أخرى أساسية في نظر كلّ من يريد أن يفهم [سرّ] تشاكلها، وهي **قابليتها للتحليل**، لا شك في أنّ التمشّي هو في حدّ ذاته ذو طبيعة عِرفانية، لكنّ الألسن تقبل اعتمادَه بسهولة مرموقة، فالألسُن كلها تفسح المجال للصّوْغات: يلزمني أن أفعله/ يجب عليّ أن أفعله/ من اللاّزم أن أفعله/ سأفعله: هذا ضروري[18]... تفيد هذه اللّفيظات المعنى نفسه تقريباً: هي صَوْغات الفكرة المشتركة بينها هي ما تحتمه عليّ من ضرورة المبادرة إلى الفعل، ففكرة الضرورة المجرّدة هذه تكمن في يلزم (Devoir) ويجب (Falloir)، وكذلك

(18) الأمثلة ترجمة للأمثلة الفرنسية.

في الصفات: اللازم (Nécessaire)، وضروري (Indispensable)، وهي تُستخرَج عن طريق التحليل. كذلك الشّأن في التّرجمة: فالمثال *hosti Est parcendum* يمكن ترجمته بـ *On doit épargner l'ennemi* (يجب ألاّ تُجهِز على العدوّ). تشترك الصّيغتان اللاّتينية والفرنسية في التّجريد المتصوَّري (Abstraction conceptuelle) للوجوب، ولكنّهما تفيدانه بطرق متباعدة شديدة التباعد. ويقتضي الانتقال من الواحدة إلى الثانية مرّة أخرى تمشّياً تحليليّاً تسمح كلّ الألسن باعتماده، ويكشف هذا التمشّي كلّيات من نوع آخر هي الكليّات المتصوّرية.

الكلّيات المتصوَّرية

تمكّن طُرُق ثلاثة من الوصول إلى الكلّيات المتصوَّرية، وأفضلُها التمشّي التحليلي، ويمكّن مثال بسيط مقدَّم بشيء من التفصيل من مزيد التعرّف إليها، أمّا الطريقان الآخران فسيأتي اكتشافهما. [وهما] طريق «الكلّيات الاختبارية»، وطريق «الأوّليات الدّلالية».

التمشّي التحليلي

تسمح الألسُن كلها، كما رأينا، بالنفاذ إلى مستوى متصوّري يتجاوز تقابلاتها الصرفية. ومن شأن مثال النفي أن يسمح بإثبات ذلك، تُصاغ الفكرة المنفية في اللسان نفسه بأشكال شديدة الاختلاف. فهي تشتغل أحياناً عن طريق دحض القول (تقول إنّ مريم في بيتها، لكنّ هذا باطِل؛ فالجملة «مريم في بيتها» أقِرَّ بُطلانُها، وهذه طريقة لدحضها، فالقول ذاته خاطئ). وفي تعبير آخر يُحمَل النّفي على المسند (مريم ليست في بيتها) الذي يحدَّد عند الاقتضاء بفترة زمنية (مريم لم تعد في بيتها؛ مريم ليست في بيتها بعد؛ مريم لا توجد في بيتها أبداً. . .). ويمكن للنفي أن يكمُن في محتوى

الوحدات المعجمية فتظهر عندئذ مكوّناً لمعناها:

ـ كفّ عن (Cesser de) معناه عدم المواصلة؛ استسلم (Céder) معناه كف عن الصمود أمام الضغط؛ رفض (Refuser) معناه عدم القبول؛ جهل شيئاً (Ignorer quelque chose) معناه عدم معرفة شيء... إلخ.

ـ عاجز (Incapable)، عديم الفاعلية (Inopérant)؛ مجهول، خالٍ من (Dépourvu de)، غير عنيف (Non violent)... كلّ هذه صفات يحمل معناها فكرةً منفيةً؛

ـ رفْض (Refus)، عجْز (Incapacité)، عدم العنف (Non violence). هذه كلمات مشتقّة من أفعال أوْ صفات منفية.

أحياناً لا ينكشف النفي إلاّ بواسطة تحليل بالغ الدقّة؛ ج، رغم أنّ د (*p, bien que q*): يمكن أن يذهب الظن إلى أنه إذا كان ق، إذن لا ـ ج (*Si q*, alors non-p)؛ لكنّ الواقع هو أنّ الاقتضاء لا يحظى هنا بالتّصديق؛

يكْمُن النّفيُ أيضاً تحت اللاواقعي (لوْ أتى...، لو أمكن له أن يأتي...)؛ ولا يمكن فصْله عن البديل (حيّ أو ميّت، عاجلاً أو آجلاً...).

باختصار فإنّ النفي ليس رهينَ شكلٍ خاصّ؛ وهو موجود في أنواع متنوّعة من المواطن حتى داخل اللسان نفسه. ولذا يُعترف له بوضع تصوّري (Statut conceptuel). ويزداد هذا الوضع وضوحاً في أثناء الترجمة. كيف تَترجم [العبارة] اللاتينية *quin?* من أجل غياب معادل لها في الفرنسية يبرز النفي في مكان آخر: *Comment ne pas...* (كيف لا...؟)، *Je dis / je demande que...ne pas* (أقول / أطلب ألاّ...).

كلّ هذا يُكسِب النفيَ نوعاً من الاستقلال التصوّري؛ وبفضل عدم ارتهانه بالألسن الخاصة فإنّه يبْدو من الكلّيات. لا يتمثل التّمشي في القول إنّ النّفي يوجد في الألسن كلها التي تمّ رصدها، ومن ثم فالاحتمالات كلها تدلّ على أنه يوجد فيها كلها، فهذا استقراء محفوف بالمخاطر، بل إنّ التّمشي يتمثّل في وضع النّفي على خطّ يعلو الألسن كلها الخاصة، هو خطّ دلالي ـ منطقي يفترضه اشتغال كل الألسن.

ويمكّن هذا الخطّ من أن تؤخذ بالاعتبار خصائصُ هذا الشيء التصوّري الذي أُقرَّ وجودُه، ومن أجل هذا، تعتبر هذه الخصائص كليّة. ينطبق الأمر على النفي، كما يلي:

ـ إنّ النفي لا يُفصل عن مداه: [فقولنا]: ليست جميع العرائس جميلات لا يعني، من حسن الحظ، أنّه لا يوجد بينهنّ عروس واحدة جميلة («للجميع، لا ـ ج»)، لكن يعني أنّ منهن من لسن جميلات («لا للجميع، ج»). والمنفيّ هو أنّ العرائس لسْن جميعهن جميلات؛ يندرج المكمّ «جميع» في مدى النّفي لا العكس.

لن تأتي مريم وحدها، هذا [الكلام] يفيد بحسب التّأويل العادي أنّ مريم ستأتي مرفوقة؛ ليس أتت مندرجاً في مدى النفي، وإنّما المندرج فيه هو أتت وحدها؛ على أنّه يمكن بحسَب المقام [الذهابُ] إلى تأويل آخر؛ لنفرض أنّني أعرف أن زيداً رفض مصاحبة مريم، [فبقولي] مريم لن تأتي وحدها! أقصد في هذه الحالة أن مريم لن تأتي، وفي هذه المرّة يندرج أتت في مدى النفي، وكذلك أتت وحدها.

ـ والنفي لا يفصل عن الانتظارات الإيجابية. فعندما نقول إنّ مريم لم تأتِ فإننا نوحي بأنه يمكن الظنّ بأنها ستأتي؛ وفي قولنا في

شأن شخص بأنه ليس القاتل إيماءٌ إلى افتراض رهيب. فمهْما أثبتَّ براءتك بعد ذلك، أو خُلّصت من وطأة كلّ تهمة («لا وجود لتهمة موجهة إليك»)، فقد سبق السّيف العذل، ولن تخرج [من الورطة] سليماً. فالنفي يفترِض أنّ الأمرَ ممكن، وهذا يتجاوز في بعض الحالات ما يمكن تحمّلُه .

ـ النفي لا يُفصل عن فكرة الحقيقة كما يفترضها اللّسان، وسنتناول لاحقاً علاقات اللّسان بالحقيقة. لكن لنقل من الآن إنّ الحقيقة اللسانية نسبيّة تماماً؛ فما هي الشروط الواجب توافّرها ليمكنني أن أقول في شأن شخص إنّه يدخَن (أي إنه مدخّن)؛ نعم قد دخّن زيد يومَ زفافه لكنّه لم يدخّن بعد ذلك أبداً، ونَكون ذوي نيّة سيّئة لو اعتبرناه من المدخنين! لكن ما هو التواتر الأدنى للتدخين حتى يكون لصِفة «المدخّن» مبرّر، لا يمكن ضبْط أي حدّ لذلك، وأقصى ما يمكن قوله هو إنّ المدخّنين أصناف. . . لذا نُدرك أنّ الجملة المنفية هي نفسها لا تكون إلاّ متّسمة بالتّردد، وتؤكّد ذلك جملة من هذا القبيل *Pierre ne fume pas... et Marie pas du tout* (بطرس لا يدخن . . . ومريم أبداً)، فالنفي بـ *ne... pas du tout* (في اللاتينية *minime* والألمانية *gar nicht, uberhaupt nicht ...*) هو النفي المطلق؛ والنفي العادي يقتصر على عكس فكرة ما لا شكّ في حقيقته (إذا كان بطرس يدخّن من حين إلى آخر فإنه لا يمكن القول إنه يدخن، وليس هذا ما يعبّر عنه بيدخّن)؛ وبمجرد أن ترتجّ الحقيقة يحتاج النفي إلى التأكيد حتى يعبّر عن نفي تامّ.

بمثال النفي نرى ما يمكن أن يكون «متصوّراً كلياً» وما هو التحليل الذي يمكّن من النّفاذ إليه.

كلّيات التجربة

يمرّ مسلك آخر إلى الكلّيات من التجربة المشتركة. تمارس

بعض معطيات العالم من فيزيائية وفيزيولوجية وأنثروبولوجية ضغطا على حياة الناس له من القوة ما لا يُعقل ألا يترك أثراً في الألسن. ولهذا السبب فمن المحتمل جدّاً أن تكون هذه الآثار من قَبيل الكلّيات. إنّ بنية الجسم والهيئة التي يكون عليها (قائم، مضطجع، جالس...) والحركات التي يمكن منها، وأصناف الإحساس الفيزيولوجي من تعب وجوع وعطش، والإدراك عن طريق البصر والسمع واللّمس، والخبرة بالجاذبية، وتوجيه الجسم وتنظيم الفضاء (باتجاه النظر) وملامسة السوائل والجوامد، والحالة الجوية، وتعاقب الليل والنهار، والشيخوخة والموت، هذه وغيرها تجارب لا مفرّ منها وعدم تأثيرها في اللّسان قليل الاحتمال؛ وبصفة عامة فإنّ الألسُن تتضمّن وحدات تعبّر عنها تعبيراً مباشراً، وعند انعدام ذلك فالتعبير عن الواقع المقصود يكون على الأقل بالتّوليف بين العناصر، ولذا فمن وراء تنوع التسميات والتقطيعات تُحدِث الكليّة الاختبارية تصوّريات مشتركة.

يضاف إلى الكليات الكوسموقونية أو البيولوجية كليات عِرفانيّة آتية أيضاً من التجربة المشتركة، لكنها تفترض تجريداً أقوى؛ هذا هو شأن النفي الذي تبعث على الحدس به شتّى أنواع من الأوضاع؛ وأشدّ الاختبارات بداثيةً هو من دون شكّ اختبار الرّغبة التي لم تُشبَع [مثل] الإحساس بالجوع من دون الفوز بما يسدّ الرّمق، وبالظمأ من دون توافر الشراب، وبإنهاك التعب من دون التمكّن من الراحة؛ وعلى عكس ذلك فالطفل الذي يرفض الطعام ليس جائعاً، أو لم يعُد جائعاً؛ والطفل سرعان ما يعيش الإحساسَ بالغياب كألاّ تكون أمّه أو لم تعد بجانبه؛ [أو] أنّ طفلاً آخر عنده ما ليس له؛ وهو خاضع لشتّى أنواع الرّفض أو المنع: كلاّ لن يغادر الفراش؛ لن يُحمل في الأحضان؛ ولا يقدَّم إليه الطعام توّاً... كلّ هذا يشترك في الرّغبة وعدم الاستجابة لها، أي الإيجابي الذي قوبِل بالصدّ

والإلغاء، وبعبارة موجزة النفي. أن يقتضي هذا عرفانيّاً حركةً تجريدية فالأمر بديهي، لكن لا يمكن للمرء أن يتصوّر أنه يمكن للسان من الألسن أن يستغني عنه.

نقول الشّيء نفسه عن مفاهيم بسيطة مثل السّببية: يترتب عن شيء ما شيءٌ آخر، واختبار ذلك لا مفرَّ منه، ولا يمكن فصل السبب عن الأثر والنتيجة. والأمر نفسه ينطبق على الجمْع والكمّ والحدّة، أو كذلك الممكن الذي يرتبط بالخطَر كما يرتبط بالرّغبة، أي أنه متّصل هنا أيضاً بتجارب بسيطة. كلّ هذا يُحدث في الألسن آثاراً ليست متماثلة، ولكنها تسير إلى حدّ بعيد في الاتجاه نفسه.

البدائيات الدلالية

تتسنى مقاربة الكليات المتصوّرية عن طريق آخر هي طريق «البدائيات الدلالية». ومن اليسير إثارة الحدْس بها بواسطة الدّائرية أو الترتيب.

الدائرية، لنفكّر لحظة في قاموس اللّسان: هو جرْد للمفردات جُعِل مدوّنة تسميات (أي مرتبة بحسب ترتيب ما، هو عادة ترتيب ألفبائي)، وحُدّدت مبدئياً معاني جميعها؛ وتُصاغ التحديدات بفضل مفردات تنتمي هي نفسها إلى مدوّنة التسميات، ومن ثمّ تحدّد هي أيضاً؛ وبما أن التّسميات محدودة فلا يمكن أن يكون المنهاج إلاّ دائرياً. ولا بدّ أن نقف في وقت من الأوقات على مفردة حُدِّدت سابقاً بالمفردة التي ستحدّد؛ الاستطاعة هي إمكان فعل الشيء، والإمكان هو القدرة على فعل شيء؛ والقدرة هي الطاقة على فعل شيء، والطاقة هي. . . استطاعة فعل شيء[19]؛ هكذا تدور الدائرة؛ فلتحاولْ الإفلات منها، لكن محاولتك تذهب سدىً؛ يحاول

(19) الكلمات الفرنسية هي تباعاً: *puissance, capacité, possibilité, pouvoir.*

القاموسي توسيعَ الدائرة أكثر ما يمكن، لكنه لا مفرّ من بقائه داخلها؛ وعبثاً يحاول المرء تغييرَ المسلك، ويذهب من استطاعة إلى قدرة، ومن قدرة إلى طاقة، ومن طاقة إلى إمكان، فلا جدوى من ذلك، والدائرية لا مفرّ منها.

نقول إنّ فكرة الإمكان هي من البدائيات الدلالية، ولا يمكن تحديدها إلا باستنفاد الحقل المعجمي الذي تندرج فيه.

ليس للبِدائيات الدّلالية كلها الدّرجة نفسها من التجريد؛ هكذا ففكرة السّمع هي أيضاً من البِدائيات، والسّمع هو الإصغاء (Le fait d'entendre)، أو استطاعة الإصغاء، والإصغاء هو الإدراك بالأذن، والأذن هي عضو السمع، والسمع هو حاسة الإصغاء (أي الحاسّة التي تمكّن من الإصغاء وهذا يفيد الشيء نفسه). يستحيل اجتناب الدائرة مهما كانت الطريق المسلوكة.

لا تزول الدائرية إلاّ باختيار عدد من اللُّفاظات هي بدورها غير محددة يمكن أن تسمح بتحديد سائر اللّفاظات: هذه القضية ذات أهمّية كبرى. إذاك تعتبر من البدائيات اللّفاظات غير المحدّدة، ويُحتمَل شديد الاحتمال أن تُعتبَر من الكليات حتى إذا تعلّق الإجراء بلسان معيّن.

أن يكون النفي (Négation) أيضاً من البدائيات، فهذا أمر شديد الاحتمال. إنّ النفي بحسب ما جاء في **مكنز اللسان الفرنسي** هو أن تنكر (Nier)، وأن تنكر معناه التصريح بعدم التصديق (déclarer ne pas croire)؛ وما هي ne... *pas*؟ (ألا، ليس)، هي علامة النفي، وفي هذه الحالة تتقلّص الدائرة حتماً.

الترتيب، تنتظم المتصورات بحسب «ما لا مفرّ منه من الفكر الشائع» (غ. غيوم). يستحيل تصوّر النفي إلا بالإحالة على الإيجاب:

فالنفي هو إلغاء الإيجابي الذي كان يمكن أن يوجد، والكائن سابق متصوّرياً للآكائن، وكذلك يسبق الكائن الفعلَ، فالفعل مُحال من دون كائن؛ هذه ظواهر راجعة إلى الترتيب، وليست متعلّقة بلسان معيّن، وإنما مصدرها الفكرُ ذاته. هذه طريقة أخرى للنفاذ إلى الكليات، وبقدر ما نسمو بالتجريد يزداد احتمال انتماء المفاهيم إلى الكليات.

هذه [اعتبارات] توجّهنا رويداً رويداً نحو قضايا من مجال فلسفي كالعلاقة بين اللّغة والفكر، فيتراءى لنا مجال لم نشرع في النظر فيه بعدُ هو فلسفة اللغة.

الفصل الرابع

فلسفة اللغة(*)

ليس حقل فلسفة اللغة محدَّداً تحديداً دقيقاً [فحدوده] تتغيّر من مؤلّف إلى آخر شديد التغيّر.

يفرض تمييزٌ أوّل نفسه: لا تختلط فلسفة اللغة بفلسفة اللسانيات، فليست هذه سوى عُلوميتها (Epistémologie): فإليها تنتمي الغايات التي تحدَّد لها، والمنهجية المعتمدة فيها، والاختيارات النظرية التي يمكن أن تُتوخّى فيها. مقاربتنا في هذا الكتاب مقاربة عُلومية حتى ولو كانت السّمة التقنية للعُلومية فيها قليلة إلى حدّ المستطاع. إنّ العُلومية هي من مشمولات الفيلسوف، كما هي من مشمولات اللساني. لكنّ آفاقهما ليست متماثلة تمام التماثل: يلقي الفيلسوف على اللسانيات نظرة أكثر شمولاً بوضعها ضمن «علوم اللغة» (اللسانيات ذاتها ولكن أيضاً علم النفس اللغوي، وعلم

(*) لنُلاحظْ شكل *le langage* (الوظيفة النفسانية)؛ إنّ [العبارات] *un langage* (لغة) *des langages* (لغات)، *les langages* (اللغات) *le langage de* (لغة كذا...) تفيد شيئاً آخر: كلّ نظام من الأشياء وُضع على أنه دلائل يكوّن لغة (بعض الحركات أو الإيماءات وإشارات قانون الطرقات، والزيّ المتوخى..)؛ تنتمي دراسة اللغات إلى الدّلالنية، واللسانيات مظهر من مظاهرها لأنّ الألسن هي النموذج الأمثل للغات.

الاجتماع اللغوي، وعلم الأعصاب اللغوي، وعلم الدّلالة وعلوم الاتصال. . .)، وضمن العلوم المسماة بـ «العِرفانية» (اللسانيات، ولكن أيضاً المنطق وعلم النفس وعلوم الأعصاب والإعلامية. . .)، وضمن العلوم الإنسانية. أمّا اللساني فيفضل مقاربةً صبغتُها التقنية أبرزُ.

لكن ليس هذا هو مجال فلسفة اللغة بالمعنى الدقيق، فموضوع هذه هو اللغة ذاتها لا العلم أو العلوم التي تعالجها، وأفُقها مزدوج؛ يتمثل أحد الأفقين في نقد اللغة باعتبارها أداة التفكير الفلسفي: لا يمكن لبنية الألسن، وما يفرضه اللسان من كيفية النظر إلى العالم وخصائص اللغة وبالخصوص مرونتها العجيبة ألا يكون لها تأثير في فكر الفيلسوف والبرهنة التي يسوقها. ففلسفة أرسطو ـ كما ذكِر ذلك مرّات عدّة تبعاً لما قاله إميل بنفنيست (Emile Benveniste) ـ مدينة إلى حدّ كبير لمقولات اليونانية القديمة، ويجب على الفيلسوف، وهو الذي يستعمل اللغة العادية، أن يهتمّ بتقدير آثارها [في ما يقول]؛ وكانت المبادرة إلى [تناول] هذا الموقف في القرن العشرين للفلسفة الموصوفة بِـ«تحليلية».

أمّا الأفق الثاني فيتمثل في معالجة اللغة باعتبارها موضوعاً فلسفياً، بم تكون اللغة «موضوعاً فلسفياً»، وما هي المساهمة التي يمكن هنا أن تكون للساني؟ هذا هو هدف هذا الفصل فحيث تعتبَر اللسانيات النظريةُ واللسانيات العامّة اللغةَ بسبب كلّياتها خطة تفسيرية للألسن الخاصّة، فإنّ فلسفة اللغة تخضِعها لمساءلات تتعلّق بطبيعتها وعلاقاتها بما ليس هو اللغة، مع أنّه لا ينفصل عنها: الواقع والحقيقة والفكر وحتى شكل معيّن من أشكال الفعل. عندما يُنظر إلى اللغة من خلال المبادئ المفسّرة لاشتغال الألسن فوجهة النظر هي وجهة اللسانيات العامّة، وعندما يُنظر إلى اللغة في كيانها ذاته بمقابلته

بالأشياء التي تباشرها والتي هي مع ذلك متميّزة عنها، فالنظرة هي نظرة فلسفة اللغة.

في طبيعة اللغة

يتساءل الفيلسوف ـ أكثر من اللساني الذي يصل هنا إلى حدود اختصاصه ـ عن طبيعة اللغة. هل اللغة فطريّة أم مكتسَبة؟ هل للغة الكائنات البشريّة طبيعة مخالفة لطبيعة ما يلاحَظ من اللغات عند أجناس أخرى؟ بم تختلف الألسن الطبيعية عن أشكال أخرى من اللغات ـ اللغات الصّورية (كاللغات المنطقية أو لغات البرمجة) واللغات الاصطلاحيّة (كقانون الطرقات)، واللّغات المشتقة (كأشكال رسم الألسن أو ترجمتها بالإشارات)؟

الفطرية

لا ينبغي للفطريّة التي أكّدها شديد التأكيد ن. تشومسكي وأتباعه بقدر ما عارضها غيرُه أن تُعتبَر فرضية مجانية تماماً. إنّ الألسُن لا يمكن بطبيعة الحال أن تُكتسَب إلاّ بالتدرّب. لكن وظيفة اللغة نفسها التي تجعل من التدرّب أمراً ممكناً يُحتمل مع ذلك كبيرَ الاحتمال أن تكون فطريّة بنِسبة كبيرة. خلال تطوّر الأجناس لا بدّ أنّه حدث في وقت ما تبدّلٌ جعل من الممكن نموّ اللغة؛ تتوسّل اللغة بمناطق في الدّماغ قابلة للتّعيين (في النصف الأيسر عند اليَميني): توجد فعلاً على الأقلّ عند المرء الذي ما زال فتيّاً إمكانات للإصلاح الوظيفي في حالة إصابة الدّماغ بالخلل، أي نقل [الوظيفة] إلى مناطق أخرى، فللدّماغ لَدانة تمكّنه من أن يعيد هيكلته جزئياً على الأقلّ. لكن الثوابت القابلة للملاحظة تبعث على الميل إلى الملكات الفطرية: من الأكيد أن لا بد من المنبهات الآتية من المحيط للعمل على نشأة اللغة، وينجرّ عن غيابها كما هو الشأن عند الطفل «المتوحّش» (الذي

لم يدرَّب اجتماعياً) اختلال لا رِجعةَ فيه. لكن لا بدّ أيضاً من توفّر شروط وِراثية خاصة بالجنس [البشري]. إنّ [الأجناس] الشبه بشرية ـ أكثر القردة تطوّراً ـ قادرة بواسطة تدريب تجريبي على اكتساب لغة بدائية، والتعرّف إلى بعض اللّفاظات وحتى على توليفها وردّ الفعل بلُغة مبهمة التلفظ. والكلبُ قادر على أن يلتقط من حوار أربابه كلمة مثل «تنزّه» (se promener) فينتفض بمجرّد أن يلتقطها حتى ولو لم تكن موجهةً إليه. ويوجد عند بعض الحيوانات الدّاجنة (الكلب، القط، الفرس...) ضرب من الإحساس إزاء لغة الإنسان؛ لكن لا يعيد أي قرد تعليم صغاره ما تعلّمه هو، ولم يكوّن أي جنس تلقائياً لغة شبيهة بلغة الإنسان. وتقوم سهولة انتساب الطفل للسان الأمّ شاهداً أيضاً لفائدة الفرضيّة الفطريّة، فالعلاقة بالجنس تبدو لا شكّ فيها، ومن ثم صبغتها الفطرية.

توجد قضيّة مثيرة للاهتمام هي قضيّة «أصل» اللغة ـ أي عمرها ـ فتقدّم علم الإحاثة يؤدّي إلى فرضيات مهمة حول فترة التطوّر التي يمكن أن تكون اللغة قد تكوّنت فيها. والبحوث حول شكل الجمجمة وآثار الضّخ، والقنوات فوق ـ الحنجرية التي تجعل النطق ممكناً والعلاقة المحتمَلة بتطوّر الآلات ـ كل هذا يوفّر معطيات موضوعية تجدد النقاش.

لغة الإنسان ولغة الحيوان

تدعونا قضية طبيعة اللغة أيضاً إلى مقارنتها بلغة الحيوان. يمكن أن تكون لغة الأجناس الأخرى لغة رمزية على غرار لغة الإنسان. فالنّحلة التي تدلّ بنات جنسها على الحقول التي تجد فيها اللقاح تفعل ذلك بواسطة رقصة خاصّة واتجاه الجسم، وليس في هذا علاقة مباشرة بين الدليل ومفاده. فليس الدليل استحضاراً للقاح بالصّورة،

فهو مستقل عن الخصائص التي يمكن أن تكون للقاح والحقل الذي يحتويه. وهو يشتغل غيابياً كما هو شأن كل اللغات الرمزية، لكن مع ذلك فالفرق كبير بينه وبين رمزية لغة الإنسان. فهو لا يتجاوز مجرد الإشارة، فالنحلة تشير إلى وجود وإلى مكان ولا تقول شيئاً حول الشيء المشار إليه وهو نفسه دائماً، والتغيير الممكن هو دوماً من الصنف نفسه: أي الاتجاه الذي يجب أن تؤمّه، والمسافة التي يجب قطعها. فلا يوجد في حقيقة الأمر إسناد. بالإضافة إلى هذا فلا يوجد حوار بين أفراد النحل ومُرسِلة الإشارة، فالأفراد لا تقوم بما يتجاوز التسجيل، ويكون ردّ فعلها بحسب الإشارات التي تلتقطها. لذا لا تتوفّر أي وظيفة أساسية من وظائف لغة الإنسان: لا العملية المتصوّرية، ولا ما ينتج منها من إسناد، ولا التواصل القابل للانعكاس والسائر في الاتجاه ومقابله، فطبيعة اللغتين مختلفة أساس الاختلاف.

أشكال أخرى للغة

تتضح طبيعة اللغة الطبيعية أيضاً بمقابلتها بأشكال أخرى من اللغات البشرية من لغات صوريّة، ولغات اصطلاحية ولغات مشتقّة:

ـ تُوجَّه اللغة الصّورية (في المنطق والإعلامية) نحو الحساب، في حين أن اللغة الطبيعية موجهة نحو الإسناد. فالأشياء لا تحيل فيها إلى العالم، و«العبارات المحكمة التكوين» تتلاءم فيها طبقاً لقواعد قابلة للمراقبة مع عمليات حسابية وخاصّة الاستنتاج، فالعبارات يصدر بعضها عن بعض في تتابع خوارزمي. لا وُجود لشيء من هذا القبيل في اللغة الطبيعية. من الأكيد أنّ هذه تسمح أيضاً بـ «عمليات حسابية» وبخاصة استدلالية: تسمح [جملة] زيد لم يطلّق من استدلال أن زيداً متزوّج وأنّه كان يمكن الظن بأنه سيطلّق. لكن مثل

هذا الحساب ليس تجريداً محضاً، فهو ليس مستقلاً عن الأشياء المجسَّمة. فإذا كانت [جملة] زيد لم يطلّق حقاً فالواقع أنّ زيداً متزوّج. وهذا هو الشأن مهما كان «الثابت» (la constante) (زيد أو عمرو أو خالد): لكل س، إذا لم يطلّق، فـ س متزوّج. إنّ «الحساب» الذي تسمح به اللغة الطبيعية ليس غايته الحقيقية. فبقولنا إن زيداً ليس متزوجاً نوفر حول زيد معلومة معنية، ونحقق إسناداً هو نفسه قابل لإعادة التأويل (يعبّر هذا اللفيظ عند الذي ينتجه عن نيّة محددة أو أخرى: لعل المتلفظ يريد أن يثني ليلى عمّا تقوم به من إغراء زيد. لعله يسعى أن يقنع بأنه ليس لزيد المشاكل التي يظنّ أنها تشغله...؛ فكثرة إعادة التأويل على قدر كثرة الأوضاع ذاتها أي أنها لا نهاية لها). اختصاراً، خلافاً للغة الصّورية توجه اللغة الطبيعية نحو الإسناد والإحالة إلى العالم وتنوّع الأوضاع اللانهائي. ومن ناحية أخرى فإنّ اللغة الصّورية هي شيء مصطنع محض كُوّن بواسطة تحديدات قبليّة. فالأشياء هي ما يريده المنطقي أو الرياضي أن يكون، وهنا أيضاً نكون شديدي البُعد عن اللغة العادية وأشيائها «الطبيعية».

ـ اللغات الاصطلاحية هي كاللّغات الصّورية أشياء مبنيّة (la constante) حُدّد محتوى دلائلها باصطلاح صريح، وهي تشتغل كنظام من الإشارات. فإحدى لافتات قانون الطرقات تشير اصطلاحاً إلى أنّ الأولوية لليمين، وأخرى تشير إلى تحديد السرعة. والمحتوى الذي لا يتغيّر يصلُح للمكان الذي وضعت فيه اللافتة. ليس للغة المذكورة جوانب تشترك فيها مع اللغة الطبيعية لسِمة تحجُّر المعلومة فيها وغياب التوليفية وحصر الإحالة في مكان وضع [اللافتة].

ـ وبالمقابل فالقرابة تبلغ أقصاها في اللغات «المشتقّة»، وبخاصّة في الأشكال المكتوبة للألسُن الطبيعية، لكن من الخطأ الاعتقاد أنّ

الكتابي ليس سوى تمثيل للشفاهي، فهو من نواحٍ عديدة لغة مستقلة أيضاً.

ـ إنّ الكتابي باعتباره تمثيلاً يُضعِف الشيء الذي يمثله، إذ يُضَحَّى حتماً بالنّغمة والنّبر والوقْف وتدفّق التلفظ، ويشير التنقيط إلى ذلك بصفة تقريبية جداً. والكتابي هو أيضاً تمثيل يتكوّن كثيراً أو قليلاً من خليط من الأشكال، فهو إمّا تصويري (الدلائل الواردة في شكل صور إن قليلاً أو كثيراً تجسم محتوى الكلمات أي المدلول. هذا هو شأن الكتابة الصينية) أو صوتيّ (تمثل العلاماتُ ـ الحروفُ ـ الأصواتَ، وبصفة أدقّ الصّواتم، وهذا شأن الكتابات الغربية). لكن لا وجود لنظام صاف تماماً. قد يحدث أن تؤخذ الأشكال الرمزية الصينية على أنّها ذات قيمة صوتية للكلمات التي تمثلها. ومقابلَ ذلك تكتسب أشكال الرّسم في الفرنسية أو الإنجليزية، لما تتسم به من تعقيد، محتوًى رمزيّاً وصورةً متميّزة تسجَّل في الذاكرة البصريّة فتمكّن من التعرّف إليها في الحال، لا يوجد حقاً أيّ صلة رمزية بالمحتوى، لكن لم تعُدْ صورة الكلمة مجرّدَ تمثيل صواتمي. هذا هو شأن كلمة مثل *femme*[1] البعيدة في الرّسم عن *a* المتلفظ بها فعلاً، وكذلك *faon* (الرشأ) البعيدة عن *a* الخيشومية *an*. وحتى الكتابة الصوتيّة التي تكاد تكون تامة ككتابة الإسبانية فإنها تُجبَر على رسم بعض الصّواتم بحرف مركّب (digramme) (*ch* في *chopo*؛ *ll* في *llama*؛ *gu* في *guisa*).

وعلى كلٍّ، اللسان المكتوب لا يمكن أن يعتبر مجرّد تمثيل،

(1) امرأة؛ من المفروض أن تنطق حركة *e* نطقاً قريباً من الفتحة الممالة، لكن النطق الواقعي هو نطق الفتحة الصريحة. ويمكن أن نذكر في العربيّة مثال «أولئك حيث» تُنطق (ألائِك).

فله من الخصائص ما ليس معهوداً في الشّفاهي - أو على الأقلّ ليس معهوداً بالدّرجة نفسها. إنّ اللسان المكتوبَ أشدُّ تعبيراً صريحاً في ظواهر المطابقة مثلاً (مطابقة المُشارك الماضي (Participe passé) في الفرنسيّة تكاد تكون خاصّة باللغة المكتوبة)، أو في تصريف الفعل (تُنطَق [الصّيغتان] *il chante* ; *tu chantes* كما تنطق *Je chante* *chanterons* مثل *il chanteront* ؛ و *je chantais*؛ و *ils chantaient* ومثل *il chantait*)[2]. وهي في بعض الجوانب أغنى (هكذا بفضل الماضي البسيط (Passé simple) في استعمال الأزمنة في الفرنسية)[3]. بصفة عامة، استعمالها أتقنُ صناعةً (على سبيل المثال بتعقّد ظاهرة التبعيّة وسهولة [إدراج] التراكيب البدلية، والتقديم والتأخير. فجملة مثل هذه لا يمكن أن تكون إلاّ مكتوبة: من الغد وحوالى الساعة السابعة، في حين أنّها لم تكد تستيقظ [أخذت] مريم . . .)[4]. وباختصار فاللسان المكتوب هو في آن واحد مشتق من الشفاهي وشكل مستقل جزئياً.

وممّا هو أكثر من هذا أن الكتابي ينتشر في فضاء ذي بعدين. وقد أحدث اختراع الكتابة ثورة في العمليات المجردة والحساب (لنفكر في نظام كتابة الأعداد بموْقعة رسومها - 110 مقابل 101 - أو

(2) معنى هذا الفعل «أنشد»، ويبيّن المؤلف بهذا المثال أنه لا فرق في النطق عند تصريف هذا الفعل في الحاضر بين صيغتيْ المسند إلى المخاطب والغائب من ناحية والمسند إلى المتكلم من ناحية أخرى، ولا فرقَ في النطق بين تصريفه في المستقبل مسنداً إلى جمع المتكلّم وجمع الغائب؛ ولا فرق في النطق بين تصريفه في ماضي الديمومة (Imparfait) مسنداً إلى المتكلم المفرد والمتكلم الجمع والغائب المفرد، في حين أنّ الكتابة تسم هذه الفروق بعلامات مميّزة.

(3) لا فرق في النطق عند تصريف بعض أصناف الفعل في ماضي الديمومة والماضي البسيط، واللغة المكتوبة تميّز بعض الصيغ عن بعض مع بعض الضمائر.

(4) *Le lendemain, vers sept heures, alors qu'elle venait à peine de se réveiller, Marie ...*

في الجداول ذات المدخليْن، وفي أنواع الرّسوم كلها...). إنّ «منطق الرسم» يبدّل أيضاً اللسان الطبيعي الذي تنتظم نصوصه بحسب بنية مجموعات رُتَبيّة (في فقرات، وفصول، وأقسام مصحوبة عند الاقتضاء بعناوين)؛ فالكتابي هو أكثر بكثير من لغة مشتقّة.

إن التساؤل عن اللغة باعتبار ذاتها هو حتماً التفكير في فرضيات من قبيل الفرضيات الفلسفية، فهي تخرج جزئياً على الأقل عن [حيّز] إجراءات التخطئة الموضوعية. هكذا ففرضية الفِطريّة وفرضية الاكتساب كلتاهما متلائمة إن قليلاً أو كثيراً وبحسب المرحلة الرّاهنة لمعارفنا مع المعطيات القابلة للملاحظة. ومع ذلك فكلتاهما تقصي الأخرى، ويعلّل الاختيار بتناسُق النظام الفلسفي الذي تندرج فيه.

والشأن كذلك في ما يخصّ التفكير في علاقات اللغة بالواقع وبالحقيقة وبالفكر أو بالأفعال أيضاً، فالنظرة إليها تكون فلسفية ما دامت تذهب، فيما يتجاوز القابل للملاحَظة، في اتجاه فهم شامل للأشياء.

اللغة والواقع

وَهْم التسمية

إنّ اللغة باعتبارها كائناً تنتمي إلى الواقع، لكنّ وظيفتها تتمثّل في أنها تعكس [صورة] منه. تفرض فكرةٌ أولى نفسها [علينا] : هل تُسمّي الألسُنُ الأشياءَ السّابقة لها في الوجود؟ بفكرة التسمية (الساذجة) هذه يندد دو سوسير [بقوله] : «إنّ اللسان في نظر بعضهم هو، عندما نرجعه إلى جوهره، تسميات أي قائمة من الألفاظ مطابِقة لعدد مُساوٍ من الأشياء. هذا التصوّر قابل للانتقاد من جوانب عديدة، فهو يفترض وجودَ أفكار جاهزة سابقة للكلمات (...)، ويبعث على

افتراض أن العلاقة الرابطة بين الاسم والشيء عملية في غاية البساطة، وهذا أبعد ما يكون عن الصحة»[*]، إنّ تصوّر اللسان على أنّه تسميات (أي قائمة تصنيفيّة) (Taxinomie) له من دون شكّ أصول أرسطية. اكتسب تصوّر التسمية صيغته القصوى عند إزودور الإشبيلي[5] («الاسم (...) يعرّفنا الأشياء (...)، وإذا لم نعرف الاسم نفقد معرفتنا للأشياء)، وكان كامناً عند مناطقة بور روايال[6] ولا يبدو اليوم أنّه يمكن الأخذ به، فهو يتعارض مع تنوع الألسن العجيب بقدر ما يتعارض مع مرونة المدلولات التي للألسن، فبعد أعمال علماء اللسانيات الأجناسيّة من أمثال إ. سابير (E. Sapir) وب. ورف (B. Whorf) (في السنوات 1920 و1950) فرضت نفسها في اللسانيات الأطروحةُ التي يُعتبر اللسان بمقتضاها معبّراً عن نظرة إلى الأشياء، فكلّ لسان يقطّع الواقعَ كما يشاء، وينظّم المعقولات ويولّد تأويلاً للعالم. فالمدلولات اللسانية ليست متطابقة من لسان إلى آخر، فهي تمثل تصوّراً للأشياء وحالة الأشياء على قدر عدد الألسن. ويمكن المراهنة على أنه لا يُضمِّن أيّ لسان آخر ما تُضمِّنه الفرنسية في كلمة *tête* ـ رأس ـ (جزء من الرّأس، ولكن أيضاً معنى أشدّ حصراً هو الوجه ـ *une sale tête* (وجه كريه) ـ وعلى سبيل الكناية (Métonymie)، طول القامة ـ *Elle a une tête de plus que lui* (هي أطول منه بمقدار رأس) ـ والشخص بأكمله ـ *tant par tête* (مقدار كذا لكلّ شخص)؛ وعلى سبيل القياس الجزء الأعلى المستدير من

(*) Ed. T. de Mauro, p. 97. 1

(5) Isodore de Seville (560-636)، رئيس أساقفة إشبيلية، وعالم من علماء الكنيسة وضع تصنيفاً حول تأثيل الكلمات.

(6) Port Royal، هو دير ضمّ في القرن السابع عشر في باريس مجموعة من المفكرين والمناطقة وضعوا نحواً متأثراً بالمنطق.

الشيء ـ *Une tête d'ail* (رأس ثوم) والجزء الأمامي من شيء يتنقّل ـ *La tête du train* ـ (رأس القطار) . . . إلخ). كلّ هذا يمكن أن يطابق في ألسنة أخرى مفردات متباينة تُقَطِّع هي ذاتها الواقعَ عن طريق التّوسع والمجاورة والتشابه وطِبْقاً لهياكل مختلفة تمام الاختلاف (هكذا في الألمانية كلمات: *Kopf, Haupt, Spitze* والكلمات الإنجليزية: *head, front-at the front-lead -to take the lead* «انتصب على رأس» . . .). وهذا يعني أنّه لو وُجِدت متصورات سابقة لمدلولات الألسن لكانت هذه المتصورات متنوّعة تنوّع الألسن ذاتها وأوضاعها التاريخية. إنّ فرضيّة اعتبار اللسان هيكلة للواقع وتقطيعاً تصوّرياً لمعطيات العالم تقوم على أنّ تعقيد الواقع يؤدي حتماً إلى تأويلات متباينة، والألسن تلتقط مظاهرَه المتنوعة وتنظمها بأجدر ما يتناسب مع حاجياتها. يُضاف إلى هذا صبغة الاسترسال التي كثيراً ما تسم الواقع بحيث لا يمكن أن يتمّ من دون اعتباط (فمقابلة نهار/ليل تلقي على الواقع ثنائية مطلقة، في حين أننا نمرّ من دون أن نشعر من النهار إلى الليل ومن الليل إلى النهار، وكل لسان يقطع كما يشاء طيْفَ الألوان والعلاقات العائلية والتجربة الأخلاقية . . .). باختصار فإن فرضيّة التسمية لا تصمد أمام الحجّة.

إنّ المدلولات اللسانية تنشأ من الواقع، ولكنها تهيكله وتؤوّله. يمكن لمثال من بين الأمثلة اللامتناهية أن يزيد الاقتناع بذلك، ونختار لهذا مثال التبعيض كما يتصوّره اللسان الفرنسي، وأصله اختباري بالتأكيد: فبعض الأشياء غير قابلة للعدّ، فهي كُتلة (خُبز، ماء، ملح)[7]، هذه الأشياء خاضعة لمبدأ التّجانس، وتقسيمها إلى أجزاء لا متناه (يمكن أن نأخذ من كمية معينة من الماء كميات

---

(7) *du pain, de l'eau, du sel*، للفرنسيّة أداة للتّبعيض هي *du* للمذكّر أو *de la* للمؤنّث.

مختلفة لا متناهية). وتكون خصائص الكلّ صالحة للأجزاء (لا يمكن أن نأخذ من ماء مالح كمية لا تكون مالحة). وطبيعة الأجزاء هي طبيعة الكلّ (الجزء من كُتلة ماء هو ماء؛ والجزء من سيارة ليس سيارة) تبدو كلّ هذه الخصائص موجودة في الأشياء الكُتلية، والمنطلق أنطولوجي، لكنّ الألسن تؤوّل هذا كما تشاء:

ـ بحسب الألسن يُنظر إلى الأشياء الحقيقية نفسها على أنها من قبيل الكُتْلي أو المنعدّ (تقابل في الفرنسيّة *ordures* أو *déchets* (قمامات، قمامة) (منعدّة) *Drek* في الألمانية (كُتْلي)؛ يأكل الفرنسيون *du raisin* (عنب) (كتلي)، والألمان «*des raisins*» (*Trauben*)[8]، وعلى عكس ذلك نستهلك *des épinards* ويستهلك الألمان «*de l'épinard*»[9] (*Spinat*).

ـ في اللسان نفسه تُعامل الأشياء نفسها أو أشياء يمتّ بعضها إلى بعض بصلة على أنّها من قبيل الكُتل، أو على أنّها أشياء منعدّة، فكلمة linge كُتلية (*du linge*)[10] في حين أنّ *vêtement*[11] منعدّة (*des vêtements*؛ يقال: *il y a bien de la saleté par terre* (يوجد وسخ على الأرض)، أو *des saletés* (أوساخ) و *on se procure de l'argent mais des devises*[12] و *on perçoit du bruit* ولكن *des*

---

(8) أعناب. فالفرنسي يأكل شيئاً من العنب فلا يجمع الكلمة، في حين أن الألماني يجمعها.

(9) سبانخ. تدلّ الأداة de le على ما لا يمكن عدّه، في حين أن des تدلّ على ما يمكن عدّه.

(10) ما يغسل من الثياب والفرش وكذلك الملابس الدّاخلية.

(11) ملبَس. ويمكن اعتبار هذه الكلمة كُتْليّة أو منعدّة (مَلابس).

(12) نحصل على نقد لكن [نقول] على عُملات (من الملاحظ أن كلمة argent لا تجمع في اللسان الفرنسي على عكس devise، أمّا في العربيّة فيمكن استعمال المفرد أو الجمع بالنّسبة إلى «عملة». ففي حين أنّنا نستعمل عادة كلمة «نقود»).

sons[13]؛ و On mange du raisin mais لكن des groseilles[14].

ـ عندما يكون للسان من الألسن دليل الكُتْلي (في الفرنسية du, de la) يمكن توسيعه لما يتجاوز الأشياء التي ندرك حدساً أنها كُتْليّة: *Il y a de l'enfant gâté en lui*[15] *Bouffer du curé*[16] *...lyncher du gréviste...*[17].

إنّ بنية مثل *ça, c'est du.../de la...* تتلاءم مع كلّ شيء تقريباً: *ça, c'est de la voiture,... du cinéma..., de l'artiste*[18]؛ نقول إذن: إن المقابلة بين الكتلي والمنعدّ، على الرغم من أنّ لها أصلاً في الأشياء، لها في الألسن التي تُكسِبها صبغة نظامية كلّ مظاهر النظرةِ التي تفرضها على الأشياء والتقطيع الذي تريده والقابل لإعادة التنظيم، وهذا هو شأن سائر الأمور: فالألسن تهُيكل كما تشاء الواقعَ الذي تعكسه.

التصوراتية اللسانية

تتميّز المسانيدُ اللسانية **بإفادتها وإحالتها**، فالإفادة هي مجموع

---

(13) نسمع ضجيجاً لكن [نسمع] أصواتاً، كلمة *bruit* لا تجمع في هذا التركيب على الرغم من أنها تجمع في سياقات أخرى في الفرنسيّة، خلافاً للعربيّة حيث لا تُجمع كلمة «ضجيج».

(14) نأكل عنباً ومشمشاً، لا يمكن المقابلة بين الثمرتين في العربية لأننا نستعمل اسمَ الجنس لكل الثمار.

(15) فيه شيء من الطفل المدلل أي من دلال الأطفال.

(16) حرفيّاً أكل لحم الكهّان، بمعنى انتقدهم وأبرز عيوبهم. ويشبه هذا في العربيّة الاستعمال القرآني: «لا تأكلوا لحمَ أخيكم ميّتاً».

(17) رجم المضربين (بمعنى انهال على المضربين شتْماً)؛ من الملاحظ أنّ الأسماء الواردة في هذه الأمثلة الثلاثة منعدّة، لكنها عُومِلت هنا عن طريق الأداتين *de le* و *du* على أنها كُتْليّة؟.

(18) هذه سيارة... (هذا) سينما... فنان بأتمّ معنى الكلمة.

الشروط الواجب توافرها ليتم انطباق المُسند، والإحالة هي مجموع الكائنات (الأشخاص) التي ينطبق المسندُ عليها.

إنّ الفعل جَرى[19] مسند يفترض تنقلاً «بحركة متعاقبة ومتسارعة للأرجل أو للقوائم معتمدة على الأرض» (**مكنز اللسان الفرنسي**)، فهذا التنقل وهذه الحركات المتعاقبة هي الشروط اللازمة ليكون فعل جرى مناسباً. وفكرتا التنقل والحركة ذات الشّكل المعيّن هي إفادة (معنى) هذا الفعل، وهذا الفعل ينطبق على الناس وعلى بعض الحيوانات: وتمثل مجموع الكائنات التي يمكن أن نقول في شأنها إنها تجري إحالةَ جرى.

هذا التمييز ذاته صالح للاسم (الذي رأينا أنّه محل إسناد داخلي)، فإفادة إنسان هي مجموع الخصائص التي يكون الإنسان بمقتضاها إنساناً (مجموع الشروط التي يجب توافرُها لتتسنّى تسمية الكائن إنساناً)؛ وإحالة الإنسان هي مجموع الكائنات (الأفراد) التي يمكن تسميتها بإنسان.

تتم المرجعية الاسميّة بطريقتين، إمّا من حيث الإفادة، وإمّا من حيث الإحالة.

فمرجعية *homme* (إنسان) إفادية (*Intensionnelle*) إذا قصد به الذّات المحددة بالخصائص التي تجعل من الإنسان إنساناً. الإنسان فانٍ: الذات الإفادية «إنسان» مسندها فانٍ.

ومرجعيّة *homme* إحالية إذا قُصِد بها فردٌ أو أفراد عدّة لهم خصائص الإنسان (دخل الرّجل/ دخل رجال الفرقة)، أو صنف من الأفراد لهم هذه الخاصية (الناس فانون)[20].

---

(19) *Courir*، هذا التعريف ينطبق على مقابله العربي «جرى».

(20) كلمة *homme* تستعمل لإفادة الجنس البشري، وكذلك الأشخاص من الذكور، لكنّ كلمة الإنسان لا يترجم بها إلاّ معنى الجنس وهي لا تُجمع جمعاً مستعملاً في السياقات المعنية، لذا اضطررنا إلى ترجمتها بحسب السياق بـ «رَجل/ رجال وناس».

والسؤال الفلسفي الذي يُطرَح يتمثل في معرفة ما هو من حيث الواقع الوضع الذي يجب أن يُمنَح للذوات الإفادية (الإنسان في : الإنسان فانٍ). يدور الجدل حول «كليات» الفلسفة القَرَوسطية (التي تَمُتّ بصلة إلى «الكليات التصوريّة» المذكورة سابقاً): هل توجد هذه الذوات في الواقع أم في الكلمات فقط ؟

تتوزع المواقف المتوخاة في تاريخ الفلسفة على ثلاثة أصناف إجمالاً. تفترض الواقعية القصوى، أي الواقعية الأفلاطونية، وجود أشياء عامّة ـ الأفكار الأفلاطونية ـ فالإنسان بعامّة يوجد بحسب وجهة النظر هذه خارج الأفراد، فهو موجود بذاته. وتقرّ الواقعية المعتدلة (الأرسطية) أيضاً بوجود أشياء عامّة، لكنها ليست خارجة عن الأفراد. فالإنسان بعامّة يتحقق في سقراط وأفلاطون وفي زيد وعمرو، وليس له وجود في مكان آخر كما هو الشأن في سماء «الأفكار» الأفلاطونية. يشترك شكلا الواقعية ـ الأقصى والمعتدل ـ في الإقرار بوجود كليات خارجة عن الفكر، أي بغض النظر عن كون هذا الكلّي قد فكر فيه أو لم يفكر فيه إنسان. خلافاً لذلك فإنّ الإسمائيّة تنفي مثل هذا الوجود، فهي ترفض أنه يمكن للأشياء العامّة والمتصوّرات أن توجد خارجَ الفكر، فالمتصوّرات لا وجود لها إلاّ من خلال الكلمات التي تحملها.

إزاءَ هذه المُساءَلة الفلسفيّة فإنّ اللساني لا يمكن له أن يأتي إلاّ بيقين واحد: تُقدِّم اللغة وجودَ أشياء عامّة ـ متصورات ـ على أنّه وجود خارج اللغة؛ فاللغة تفرض بطبيعتها الإيمان بالواقع، فمن المحال أن تتصوّر أنّه عندما نقول إنّ الحريّة ثروة لا تقدّر أريد أن أقول إنّ متصوّر الحريّة ثروة لا تُقدّر. وليس متصوَّر الإنسان هو الفاني وإنّما هو الذات التي تحيل عليها كلمة إنسان. تفترض الكلمات مسبقاً وُجوداً ما؛ أن نتكلم عن الحرية فإننا نفترض مسبقاً

أنه يوجد في العالم شيء ما يمكن أن نسمّيه بكلمة حريّة؛ لكن أفليس لفيظ مثل الحرية لا توجد لفيظاً في هذه الحالة مُفارقاً؟ يفترض الاسم حرية وجود الحرية، وينفيه المسند. يكمن الحلّ في المعنى الذي نعطيه لـ وجد؛ وجد معناه «كان في الواقع» (كان تامّة هنا). يعتبر اللسان أنّ الشّيءَ يوجد في الواقع إذا لم تكن إحالتُه عديمة القيمة. فأن تقول إنّ الحرية لا توجد معناه أنه لا توجد كائنات حرّة، وهذا لا يجعل من وجود الحرية موضوع نظر. تطابق هنا فائدةٌ قابلة للتحديد ومعتبرة كذات من ذوات العالم إحالةً فارغةً. يقدّم اللسان الحرية كذات موجودة، ويقول في آن واحد إنها لا توجد باعتبار أنّ إحالتها عديمة القيمة.

يبقى الجدل الفلسفي مطروحاً بكامله. أمّا اللساني فهو يدرك فقط خاصيّة من خصائصِ اللغة، ولا يمكن له أن يقول شيئاً بشأن الواقع ذاته.

اللغة والحقيقة

يختلف اللسانيون في ما بينهم حول قضية الحقيقة: يعتبر الكثير منهم أن مفهوم الحقيقة لا يمكن أن يكون إجرائياً في اختصاصهم (كما هو الشأن في المنطق)، والمتصوّر الوحيد القابل للاستعمال في نظرهم هو متصوّر الصحّة: يعتبر اللّفيظ صحيحاً ـ كما هو الشأن تماماً في المنطق ـ إذا أُحكِمَتْ صياغتُه، بمعنى إذا كان موافقاً للقواعد التي يحملها اللسان في ذاته.

إنّ فكرةَ الصحة هي فعلاً ضرورية، فهي التي تقوم عليها التركيبيّة. لكن ليس من غير المعقول أن نتساءل، متجاوزين التركيبيّة، عمّا إذا كان أيضاً مفهومُ الحقيقة، الذي يجب مع ذلك تدقيق وضعه، مفهوماً مركزياً تماماً في اللسانيات. لقد رأينا سابقاً الدّوْر

الذي يضطلع به الاستدلال بين مناهج الوصف والاستكشاف، وأشرنا كذلك إلى أهميته النظرية في التوقعيّة. ومن شأن فلسفة اللغة أن تحملنا على قبول أنّ اللغة هي بطبيعتها موضعٌ للحقيقة قبولاً أشدّ عمقاً.

اللسان محلاً للحقيقة

1 ـ نذكّر قبل كلّ شيء أنّ اللسان يُسنِد إلى اللفيظ ـ كلّ لفيظ (وهذا من كليات اللغة) ـ وضعاً حقائقيّاً، فمن المستحيل إنتاج أيّ لفيظ في أيّ لسان من الألسن من دون أخذ موقف من حقيقته. يمكنني طبعاً أن أرفض الالتزام بالأمر، لكنني مُجبَر على التّعبير عن رفضي تعبيراً صريحاً: فمن المستحيل ألاّ نُعدّل اللفيظ. لنفترض هذه الفرضية التي يجب أن نعترف بأنّها غريبة بعض الشيء: لو كان الناس سمكاً لكانت المحيطات وحدها هي الملوّثة: فحتى هذه الفرضية الجريئة يدرجها المتكلم في ما هو حق: من الممكن الاعتراض عليها، فنضيف مثلاً قائلين: كلّا! من البديهي أنّهم إذ ذاك يخترعون حُوَيْضاً متحرّكاً لتلويث سائر [الأماكن]. وباختصار فإنه لا يمكنني الخروج على الحق أو الباطل لسانياً مهما كان الزعم الذي أزعمه. والكلام عن اللفيظ «المعدَّل» يكاد يكون من تحصيل الحاصل باعتبار أن كلّ لفيظ هو بطبيعته معدَّل. ومن أجل التعديليّة فإن جانباً بأكمله من اللسانيات مخصّص لقضية الحقائقية.

2 ـ لمُعترض أن يعترض على أن الحقائقية تضع الحقَّ في اللفيظ، ومن المجازفة أن نستنتج من ذلك أن اللسان ذاته مرتبط إن قليلاً أو كثيراً وثيقَ الارتباط بمفهوم الحقيقة. ومع ذلك فهذه الصلة تبدو لا جدال فيها لكن لسبب آخر.

توجد لفيظات هي حق بمجرد معناها، وهي اللفيظات التي

تسمّى «تحليلية» (ل. فتغنشتاين) (L. Wittgenstein)؛ فبقولنا إن السمك حيوان نعبّر عن حقيقة تحليلية، ولو لم يكن الأمر كذلك لوُضعت كلمة سمك ذاتها موضع نظر. يمكن بالتأكيد أن توضَع الحقيقة التحليلية ذاتها موضعَ شكّ: لو كان الناس سمكاً؛ لكن هذا يمكن أن يتمّ فقط ـ إن لم يكن عن خطأ أو عن معرفة غير كافية باللسان ـ في عوالم مصطنعة تفترض أن الحقيقة التحليلية هي في عالم ما هو كائن (الناس في الواقع ليسوا سمكاً) إذا قبلنا التعريفات التي يفترضها اللسان.

تضطلع التحليلية في اللسانيات بدور حاسم. فقاموس اللسان لا يعتمد إلاّ على لفيظات من هذا القبيل (حيث يعرض المعجم الموسوعي لفيظات «تأليفية»: فهو من خلال الكلمات يتكلم عن الأشياء)، والحدودُ هنا وفي أمور أخرى هي لا محالة غير ثابتة بين اللفيظات التحليلية وغيرها. وتتسم التحليلية اللسانية أيضاً بالضبابية، فمن قاموس إلى آخر يتأرجح المحتوى التعريفي، لكن تبقى التعريفات مع ذلك متكافئة إجمالاً. وهكذا تكون الحقيقة التحليليةُ أحد أقطاب الاشتغال اللساني، وهو بلا شكّ القطب التأسيسي.

لنَقلْ ثانية إنّ معنى الجملة يمكن أن يحدّد بأنّه مجموع الشروط التي يجب أن تتوفّر لتكون حقاً. ما معنى: زيد عاد؟ هذه الجملة (ج) حق إذا كان وإذا كان فقط، في فترة سابقة زيد هنا (د) حق. إذا كانت (د) في فترة لاحقة باطلة (لأنّ زيداً غادر المكان الذي يوجد فيه المتكلم حالياً) وكانت (د) من جديد حقاً في فترة تتضمّن زْ. أي اللحظة التي أنجز فيها اللفيظ (ج).

يمكن لعلاقات الحقيقة هذه أن تقال بصفة تحليلية، فهي مرتبطة بالمعنى الذي تحمله الجُمل، وتندرج في صلب الآلية الدلالية. يمكن أن يُمثَّل معجمُ اللسان عن طريق التصرف في التعريفات في شبكة عريضة من العلاقات التحليلية.

هكذا فإنّ اللسان محلٌّ للحقيقة لا باعتباره مصدر الحقائقيّة فقط بل كذلك باعتباره ظرفاً لاحتواء التحليلية.

لكن هذا يقتضي الاتّفاقَ على نمط الحقيقة التي يجب إقرارُها فيه، فحسب كلّ الظواهر فإنّ المنوال الثنائي (أي منوال حقيقة ذات قيمتين) لا يكفي، فالحقيقة في اللسانيات حقيقة نسبيّة.

نسبية الحقيقة اللغوية

لتكون الحقيقة في اللسانيات إجرائيّة يجب تنسيبها بالنظر:

- إلى «محيطات معتقديّة»؛
- إلى مجموعات من «العوالم الممكنة»؛
- إلى مستويات سُلّميّة تفترض أنها «متعدّدة التقييم».

إنّ التصوّر الأرسطي للمطابقة (تقول الجملة الحقَّ إذا قالت عمّا هو كائن إنّه كائن، وعما ما ليس كائناً إنّه غير كائن) الذي رجع إليه عالم رياضي مثل أ. تارسكي (A. Tarski) في تحليل اللغة الطبيعية («الثلج أبيض» حقيقية إذا كان الثلج في الواقع أبيض) غير كافٍ لحاجيات اللساني.

1 ـ عندما يكون اللفيظ اللساني إخبارياً فهو حقيقي بالنظر إلى الحقائقيّة، لكن المتكلم هو الذي يتحمّل مسؤولية حقيقته، وهذا يعني أنّ المسند «كوْن الشيء حقيقياً» هو في اللسانيات مُسند ذو مَوضعين، فـ «حقيقي» معناه «حقيقي» في نظر بعضهم، في نظر من يقول إنّه «حقيقي»؛ فما هو حقيقي في نظر إمرئ ليس كذلك في نظر غيره. فالحقيقة في اللسانيات هي حقيقة يتكفل بها المتكلم، وهي رهينة «المحيط المعتقدي»، ويمكن أن نسمي محيطاً معتقديّاً مجموعة الأقوال الملفوظ بها أو غير الملفوظ بها والتي يكون

المتكلم وهو يتكلم في وضع من يُسنِد إليها قيمة الحقيقة. والجُمل التحليلية الحقيقية باعتبار معناها هي حقيقية في كلّ المحيطات المعتقديّة.

يمكن للمتكلم أن يشير إلى محيط شخص آخر (يبتدع إذ ذاك «صورَة محيط»)، بصفة صريحة كما هو الشأن في «الخطاب غير المباشر». (يقول/ يظنّ/ يتصوّر أنّ ج. . .)، أو بصفة ضمنيّة (ليس فيكتور هوغو ابن أبيه. يمكن أن تُفهَم هذه الجملة المفارقة كما يلي: «فيكتور هوغو ليس ابن من يظنّ أنّه «أبوه»؛ ويجب أن نكتب فيكتور هوغو ليس ابن «أبيه»؛ فالأب المعني ينتمي إلى محيط شخص آخر، أو ربّما إلى محيطي لكن في الماضي). تزوّج أوديب بجوكاست هي جملة حقيقية في عالم المتكلم وفي عالم أوديب. أوديب تزوّج أمّه جملة حقيقية في عالم المتكلم فقط، إذ إنّ أوديب يجهل أن جوكاست أمّه عندما تزوّجها. إنّ استبدال المتماثلات بالمعنى الوارد عند لايبنتز (Leibniz) لا يضمَن الحقيقة من خلال عوالم الاعتقاد. تؤدي السياقات المسماة «انحنائية» (في الخطاب غير المباشر)، إلى لفيظات باطلة: «أوديب يعلم أنه يتزوّج جوكاست» جملة حقّ؛ أوديب يعلم أنّه تزوّج أمَّه جملة باطلة.

2 ـ إنّ الحقيقة اللسانية النسبية بالنظر إلى المحيطات المعتقديّة هي أيضاً نسبيّة باعتبار مجموع العوالم الممكنة: لو كنتُ أنت لما فعلتُ هكذا. هذا اللفيظ ككلّ لفيظ يدّعي قول الحق (حقاً لو كنت أنت . . .)؛ فالضمير أنا الذي يعيّنُني كائناً حقيقياً يُنقل إلى عالم حيث لا يكون لفقده هويتَه إلاّ أنت؛ ففي هذا العالم المصطنع (أعلم أنني لستُ أنت) يتم التثبّت من صحة الجملة: لمَا فعلتُ كذا. وفي عالم ما هو كائن فالعلاقة الصحيحة هي فقط: «إذا ج إذن د»؛ فهذا فقط هو ما يُلتزَم به.

تتحدد العوالم الممكنة بأنها مجموعات من الأقوال غير المتناقضة (لا يكون فيها أي قول قابلاً للاستدلال حقاً وباطلاً في آن واحد)؛ لنقُلْ مرّة أخرى إنّ هذه العوالم «كامنة» إذا لم تتضمّن قولاً نعلم أنّه باطل (إن يأت غداً يمكننا . . .؛ إتيانه يبقى ممكناً، سيأتي غداً، يندرج في العالم المفكّر فيه، وليس في العالم الذي هو قوْل باطل)؛ وفي الحالة المعاكسة تكون هذه العوالم «مصطنعة» (لو كان أتى غداً لأمكننا. . .»، نعلم مسبقاً أنّ سيأتي غداً قول باطل).

3 ـ إنّ الحقيقة اللسانية نسبية بالنظر إلى مستويات ملاءَمة سليمة، فهي «متعددة التقييم». يقبل المرء تماماً هذا اللفيظ المفارق: إنها سيارة من دون أن تكون كذلك (*C'est une voiture sans en être une*)؛ السّيارة المعنية لها خصائص السيّارة (وهي بهذا المعنى سيارة)، ولكنها ليس لها كل الخصائص المنتظرة (التي يعتبرها المتكلم ضرورية ليستحق الشيء المعني تسميته بسيّارة)؛ وهذا يعني أن اللفيظ «إنها سيارة» هو في آن واحد حق وباطل. نقول إنه لفيظ حق إن قليلاً أو كثيراً، أو ـ والمعنى واحد ـ باطل إن قليلاً أو كثيراً. إجمالاً فالمقابلة الثنائية بين الحق والباطل غير كافية، فالأمر يقتضي تدرّجاً سلمياً بأكمله ـ قِيَم متعدّدة ـ ولربّما عدداً لا متناهياً من الدرجات.

أن نقول بشأن إنسان إنه مريض، وأنّه ثري، وأنّه أحمق، وأنه يعزف على البيانو، وأنه يدخن . . . يعني أننا نصوغ إسنادات حقيقية إن قليلاً أو كثيراً من دون أن نعرف حتى ما يجب قوله بدقة لتكون حقّاً تماماً. فما هي اللحظة الدقيقة التي تكون فيها الثروة كافية ليكون الوصف «ثريّ» ملائماً؟ يمكن [للتقييم] التقريبي أن يوسَم وسماً صريحاً: «بل هو ثريّ بالأحرى» (*Il est plutôt riche*). لكن ماذا يجب أن يتوفّر ليكون «ثريّاً بالأحرى»؟ لقد أجّلتُ المشكلة بمقدار

درجة، ذلك أنّ الحقيقة اللسانية هي بطبيعتها حقيقة تقريبية.

اللغة والفكـــر

عندما يتساءل السكولستكيون (Scolastiques) عن موضع «الكلّيات» هل هو الواقع أم الذهن، فإنهم يطرحون أيضاً مسألة العلاقة بين اللغة والفكر. المسألة فلسفية لأنّه يستحيل بلوغ مُنتهى الأمر عن طريق تمشٍّ موضوعيّ تماماً. هل الفكر ممكن خارج اللغة؟ هل هو في حدّ ذاته لغة؟ هل توجد متصوَّرات خارج اللغة متميّزة عن المدلولات؟

الفكر باعتباره لغةً

إذا كان لفرضيّة «اللغة الفكريّة» (Mentalais)، أي مجرّد لغة (داخلية) للفكر والتي صاغها اللساني الأمريكي ج. أ. فودور (J. A. Fodor) كلّ مظاهر الوهم فإنّ النّحو الجدَلي (Grammaire spéculative) في التراث الإسلامي لمدرسة البصرة، وفي تفكير «الموديّين»[21] في القرون الوسطى، وفي «النحو العام» في العهد الكلاسيكي، وفي النحو المسمى «توليدياً»، يَعتَبِر أن النحو في جوهره شيء واحد في كلّ الألسن، وأنّ الاختلافات ليست إلاّ فروقاً عرَضية. فالفكرة [المقصودة] هي فكرة بنية كونية للفكر البشري كامنة في كلّ الألسن ومستقلة عن الاختلافات السطحية.

في القرن الثامن عشر كان جايمس هاريس (James Harris) هو الممثل البارز للنّظرية الفلسفية الكونية؛ حَدّد كتاب

---

(21) «Modistes»: جماعة اشتقّ اسمُها من العبارة اللاتينية = modus significundi) طريقة التعبير) يقرّون استقلال العبارة والنحو عن المنطق، فالمقولة النحوية لا تُحدَّد حسبهم بمدلولها وإنما بالعلاقة بين هذا المدلول والطريقة التي يعبّر بها عنه.

هرمس[22] Hermes)، ما يميّز الاختلافات الهيكلية الخاصّة بالألسن عن المبادئ الأساسيّة المشتركة بينها. فبما أن الدّور نفسه تقوم به هنا العلامات الإعرابية وهناك مجموعات من الأدوات فإنه يتحتم البحث تحت التنوع السطحي عن ثبات علاقة لا تتغيّر. وفي فرنسا عبّر نيكولا بوزي (Nicolas Beauzée) عن وجهة نظر مماثلة، فالنّحو في نظره يخضع لنوعين من المبادئ: المبادئ الناجمة عن المواضعات المتغيّرة التي تكوّن أنحاء الألسن الخاصّة، والمبادئ الآتية من طبيعة الفكر البشري والصالحة بصفة كونية. ويعتبر النّحوي الألماني ج. و. ماينر (J. W. Meiner) (1723 ـ 1789) أنّ الألسن «نُسَخ» متنوّعة من أصل واحد ليس هو إلاّ كونيّة الفكر البشري (الذي يماهى إن قليلاً أو كثيراً كما هو الشأن عند أرسطو باليونانية الكلاسيكية). إنّ تطابق النّسَخ شديدُ التغيّرِ وكذلك تمامُها: يدافع ماينر من منظار نحوي صرف عن المبدأ الذي يجب بمقتضاه أن يؤوَّل كل لسان في ذاته، وأنّ مقولات بعض الألسن لا يمكن فرضُها على البعض الآخر بلا سوء عاقبة: لكن هناك فكرة كونية تهيكل في العمق الفوارق اللسانية.

لقد أمكن لهذه التقاليد العقلانية أن تؤدي حتى إلى محاولة وضع «لسان كونيّ» لتصيّره قابلاً مباشرة للاستعمال. وانطلاقاً من نظام ترميز جديد للفكر متحرّر من تردّد الألسن الطبيعية وتقريباتها أراد لايبنتز أن يبتدع لغة توليفية يكون فيها كل شيء قابلاً للتعبير الدقيق، إنها كانت محاولة فاشلة. نصل من جديد إلى مسألة كلّيات اللغة التي ذكرناها سابقاً لكن بهذا الفارق المتمثل في أنّ المقاربة التي هي هنا استنتاجية تنطلق من اعتبارات فلسفية.

---

(22) هو في الأساطير اليونانية ابن الإله زوس وهو خاصة إله الفصاحة.

المدلول والمتصوّر

إذا كانت فرضيّة النّحو الكوني شديدة الاتسام بالنّظر الجَدلي فإنّ المسألة المتمثلة في معرفة ما إذا كان من الممكن وجود متصوّرات متميّزة عن المدلولات قابلة لنقاش تكون السّيطرةُ عليه أيسر وأكثر موضوعية. من الأكيد على الأقلّ أنَّ الألسن مؤهّلة انطلاقاً من مدلولات تحملها دوالُها لتوليد متصوّرات عن طريق نوعين من العمليّات: التعريف الاصطلاحي وتسمية مجرّدات تُبنَى بناء.

1 ـ انطلاقاً من دال عادي من دوال اللغة العادية يحوّر التعريفُ الاصطلاحي المحتوى قصد جعله ملائماً لاستعمال تقني، ويمكن أن يكون هدفُ التعريف تقييس معطى من المعطيات المادية. هذا ما يحدث في التعريف التجاري للشوكولا (على الأقل 33 بالمئة من مسحوق الكاكاو)، خليط من العجين والبيض (على الأقل ثلاث بيضات في الكيلوغرام)، ماء صالح للشرب (أقل من 0,05 ميليغرام من الرّصاص في اللّتر)... يستعمل التعريف الاصطلاحي أيضاً في اللغة العِلميّة. تنتمي كلمة مثل حقيقة إلى اللغة العادية. أمّا في الفلسفة أو المنطق فكأنما يكتسب محتواها صبغة موضوعية عن طريق التبصر، وتُضبَط حدوده ضبطاً دقيقاً، ويحوَّر بحسب مقتضيات الفكر العالِم المختص؛ وتصبح إذ ذاك تصوّرات مختلفة قابلة ليُميّز بعضها عن بعض: فالبون كبير جدّاً بين حقيقة موافقات النظرية الأرسطية وحقيقة المنوال (في النظرية المسماة بنظرية المناويل)، وبين المنطق الكلاسيكي وحقيقته ذات القيمتين، ومنطق العوالم الممكنة أو أنواع المنطق الضبابي (بعدد لا نهائي من القيم): الفكر ينطلق من كلمة حقيقة فيبني متصوَّراً تتغيّر حدوده طبقاً للأنظمة التي يندرج فيها، وحيث تكون المدلولات اللسانيّة تداليّةً (لا تطلق كلمة حقيقة على خاصّية القول ـ أي أن يكون حقّاً ـ بل القول الحقّ ذاته ـ قول الحق

وما يُحدثه تمثيل شيء من الواقع من شعور بواقعيّته ـ حقيقة رسم لملامح شخص. . . إلخ). يُقصر معنى المتصوّر قصراً على أحادية الدلالة، فتستقر حدودُه: ويُحدث التبصّر العالِم استقرارَ المعنى.

2 ـ عِوض أن تَعتمد المتصورات على مدلول لساني يمكن أن تنشأ أيضاً من تسمية مجرّدات تبنى بناءً ؛ يجب للمتصورات التي توضع في المنطق أو الرّياضيات، وللظواهر التي تكتشِفها العلومُ أن تُسمّى في يوم ما، وهكذا تولِّد العلومُ والتقنيات متصورات مستقلّة عن اللغة العادية إلى حدّ كبيرٍ.

اللغة والنشاط العرفاني

يوجد ما يتجاوز ما تقدّم. كلّ الظواهر تبعث على اعتقاد أن النشاط اللغوي ذاته يفترض إنتاجَ متصورات إضافةً إلى المدلولات. لقد رأينا قبلَ هذا أنّ نشاط الترجمة ونشاطَ التعبير بالصّوْغات، باللسان الواحد (حيث يقول المرءُ الشيءَ ذاته بصياغات متنوّعة) يفترضان طاقة «تحليلية» تؤدّي حتماً إلى أشياء من صنف آخر تتجاوز المدْلولات ولها طبيعة تصوّرية. هذا مثال آخر على ذلك: في العربية[23] كون (أ) **أخ لـ** (ب) **معناه أن** (أ) و(**ب**) من الأبوين نفسيهما، وأنّ (أ) من جنس ذكر (جنس (ب) لا يهمّ)، وكون (أ) **أخت (ب) معناه أنهما أيضاً من الأبوين نفسيهما، ولكن (أ)** أنثى. وفي البوروشاسكي (Burushaski) (لسان باكستاني) فكون (أ) «*cho*» لـ (**ب**) معناه أنّ (أ) و(**ب**) من الأبويْن نفسيهما، وأنّهما من جنس واحد. وكون (أ) «*Yas*» (**ب**)، يعني أنّهما من جنس واحد. إنّ الانتقال من لسان إلى آخر ـ وهو أمر ممكن تمام الإمكان ـ يفترض

(23) ترجمنا المثال الفرنسي لأنه يتطابق تماماً مع العربية.

تحليلاً متصوّرياً كفيلاً ببناء مفهوم مثل مفهوم «سيبلينجس» (Siblings) (أيْ أخ وأخت) غير الموجود في العربية والقابل للتصور حقاً، والذي يؤلَّف بعد ذلك مع مفهوم المذكّر والمؤنّث.

إنّ لهذا التّمشي العرفاني (يجب في العربية بناء مفهوم سيبلينجس غير الموجود فيها) دخْلاً أيضاً في إنتاج اللفيظات وخزنها في الذاكرة. كثيراً ما يحدث لنا أن نعطي تصوّراً ضبابياً لما نريد أن نقوله وألاّ نهتدي إلى الصّياغة الدقيقة لفكرة نَروم التعبير عنها: «لا أجد الكلمات اللازمة»، «كيف نقول هذا . . .»، «ليس هذا هو بالضبط ما أريد قوله». يمكن إذن أن نفترض وجودَ تصورات انتقالية في الذاكرة المشتغلة بواسطة «متصورات تحليلية» هي بصدد البروز. لنفرض أنني في ما يُشبه السّديمَ أريد أن أعبّر عن رغبة ما يكون محتواها: «ستكون زينب هنا يوم الأحد»، وأنّ وسيلة تحقيق ذلك تكون: «مريم تهتِف إلى زينب»، يُصاغ هذا مثلاً كما يلي: يجب على مريم أن تهتف إلى زينب حتى تلحق بنا يوم الأحد، أو يجب على مريم أن تنادي زينب وأن تطلب منها الالتحاق بنا يوم الأحد، أو كذلك لو أمكن لمريم أن تتصل هاتفياً بزينب لطلبت منها الالتحاق بنا يوم الأحد . . . الصّيغ الممكنة لهذا كثيرة جدّاً، ويرجع النشاط التحتي ذو الطبيعة العرفانية والمستقل إن قليلاً أو كثيراً عن الأبنية اللسانية إلى آليات الفكر ذاتها.

اللغة والأعمال

تربط فلسفة اللغة موضوعَها بمنطق العمل أيضاً. ففي النصف الثاني من القرن العشرين انفتح أمام اللسانيات مجال وصفي كفيل تماماً بتجديد [البحث]، وقد اضطلعت الفلسفة التحليلية هنا (ج. ل. أوستين (J. L. Austin)، ج. ر. سيرل (J. R. Searl) بدور حاسم.

ويكمن أساسٌ من أسُس المقاربة «التحليلية» في هذه الملاحظة التي مُفادها أنّه عندما يتلفّظ المتكلمُ بجملة في مقام تواصليّ معيّن فإنّه يُنجز نمطاً معيّناً من عمل اجتماعي. ومن هذه الأعمال ـ التي يسميها أوستين «عملاً تحقيقياً» ـ يمكن ذكر أعمال الأمر، والاستفهام، والتأكيد، والنصح، والاقتراح، والتنبيه، والتهديد، والانتقاد، والاتهام، والثناء، والشكر، والتوسل، والوعد، والشتم، والاعتذار، والقسَم، وغيرُها كثير. فعندما أقول أعِدُك بأن آتي فإنني أعد فعلاً بالإتيان، ويكفي أن أقول أعدك بأن آتي ليكون الوعد قد تم. والفعل من قبيل وعد هو فعل «إنجازي»، فهو يحقق إنجازَ العمل الذي يصفه (على الأقل عند استعماله مسنداً إلى المتكلم في الحاضر الإشاري). كلّ اللفيظات ـ لا فقط التي تتضمن فِعْلاً إنجازيّاً ـ هي محلّ «قوّة تحقيقية»، فالقوة التحقيقية في اللفيظ هي قصْد الإنجاز الذي يظهره المتكلم بتلفظه هذا العمل التحقيقي أو ذاك. قُلْ: شكراً تكُنْ قد شكرتَ، لكنْ ليست كل اللفيظات خاليةً من لبس تحقيقي، هكذا [فقولنا] رُفِعَت الجلسة يمكن أن يكون مجرد ملاحظة أمر وقع. عندما يتفوّه الرئيس بهذه الجملة فإنها يمكن أن تصبح العملَ الذي بواسطته تُرفَع الجلسة فِعلاً. من المستحيل هنا التعرض ببعض التدقيق للنظرية المعقدة للأعمال اللغوية ؛ ونريد فقط أن نسعى إلى الإقناع بوجود علاقات بين اللغة والعمل. وقد أصبح جانب بكماله من اللسانيات مخصّصاً لذلك، فقصدية المتكلم (ما هو الأثر الذي يريد إحداثَه؟)، والتفاعُل اللغوي في الحوار وبصفة أعمّ في التحادُث، والاستراتيجية الحِجاجيّة وما تُحدِثه من آثار، كل هذا راجع إلى منطق للعمل قابلٍ ـ بعيداً عن الاختيارات الفلسفية التي يفترض اعتمادها ـ ليعالَج بواسطة طرق البحث اللساني الموضوعية.

الفصل الخامس

اللسانيات التاريخية

الألسن كلها تتطوّر: فبين فرنسية القرنيْن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين وفرنسية اليوم من عظيم الفرق ما يستحيل معه أن يفهم المرء، من دون دراسة معمّقة، [كتاب] **تريستان** (*Le Tristan*) لبيرول[1] (Béroul)، أو كتاب **بارسفال** (*Le Perceval*) لكريتيان دو تروي (Chrétien de Troyes)[2]؛ ولا يبقى متحجراً إلا الألسُن الميّتة (السنسكريتية واليونانية واللاتينية . . .) التي يتمّ تعليمها على أساس أنها أشياء لا تُمَسّ، فأصبحت أحياناً ألسُنَة النصوص المقدّسة كالعِبرية التوراتية أو عربية القرآن الكلاسيكية[3] . . . فاللسان ما دام حيّاً لا ينفكّ يتحوّل ويتكيّف بحسب حاجياتِ مجموعة هي نفسها تتطوّر، ويعكس رؤيةً للأشياء تتجدّد باستمرار. فللألسُن تاريخ شأنها شأن الجماعات التي تتكلمها، فهي أشياء حادثة لا أشياء ثابتة.

---

(1) بيرول هو شاعر فرنسي غنائي من القرون الوسطى.

(2) كريتيان دو تروي (1135-1188) شاعر فرنسي رائد رواية الفتوّة.

(3) تجدر الملاحظة إلى أنه لا يمكن اعتبار عربية القرآن تمثل لساناً ميتاً، فالصلة بين العربية الحديثة وعربية القرآن ما زالت قائمة بل إنّ جل خصائص عربية القرآن من صرفية وتركيبية وإعرابية متوفر في العربية الحديثة على الرغم مما اعتراها من تطوّر.

للسانيات إذاً بُعد تاريخي حتماً؛ يمكن للمرء بالتأكيد ألاّ يكترث بالتاريخ، فاللسانيات «البنيوية» الأمريكية أو الأوروبية تَعتبر أنّ اشتغال اللساني المحكَم لا يقتضي في شيْءٍ معارفَ تاريخية. ويمكن لمتخاطبيْن بالفرنسية أن يتفاهما تمام التفاهم حتى ولو جهِلا تماماً تاريخ الفرنسية. هذا أمر لا جدال فيه، لكن هل يمكن لهذا السبب تجاهلُ التاريخ؟ يستحيل ذلك لأنواع عدة من الأسباب.

تبرير اللسانيات التاريخية

التاريخ الاجتماعي وتاريخ اللسان

يعسر تصور مجتمع لا يأبه بتاريخه: كيف يمكن للإنسان أن يهتدي إلى أين يذهب إذا كان يجهل من أين أتى؟ فالذاكرة الاجتماعية، وتجربة الماضي، والتأصُّل في التاريخ ضرورية للوعي الذي يمكن أن يكون للمجتمع بذاته. يساهم التاريخ على نطاق واسع في تأسيس تناسق هذا الوعي، وهو وحده الذي يُنشِئ الشعورَ بالهوية، ولا يمكن فصل الثقافة ذاتها عن التاريخ بما فيها الثقافة العِلمية التي لا تكون خارج المراحل التي شيّدَتْها. إن تاريخ المجتمع وثقافته وعقلياته لا تنفصل عن تاريخ لسانه: تقتضي الحياة الاجتماعية لساناً مشترَكاً، ويحتفظ هذا اللسان بآثار التاريخ المشترَك. ويعرف المؤرخون ذلك وهُم الذين يولون لمحتوى الكلمات الدقيق أهمية لا تنفكّ تتزايد.

انظرْ إلى كلمة مثل أمّة[4] (*nation*) وإلى المفردات المشتقة

---

(4) ترجمنا هذه الكلمة ومشتقاتها إلى العربية، لكن المقابل العربي يختلف أحياناً باختلاف المقام، ولذا وضعنا في كلّ مرّة بعد الصّيغة العربية الصّيغة الفرنسية التي تظهر فيها دائماً كلمة «nation» أو إحدى مشتقاتها.

منها: اذهب وعلِّم جميع الأمم (*Allez enseigner toutes les nations*)، يتسم هذا بصبغة توْراتية، والأمم (*nations*) هنا هم جميع الناس وجميع الأسر الإنسانية؛ ويرجع تاريخ أمّة (*nation*) بمعنى «الذات القانونية المتكوّنة من مجموع الأفراد الذين تتكوّن منهم الدولة» (سيياس) (Sieyes (1748 ـ 1836))[5]، إلى الثورة الفرنسية. وبهذا التصور تذكّر كلمة أمّة (*nation*) باسم مجلس الأمّة (*Assemblée nationale*)، لعام 1789؛ وتحت الثورة الفرنسية تمّ تأميم (*nationalisation*) أموال الكنسية. ويجب انتظار القرن التاسع عشر لينشأ وعي أمَمي (*International*) وبخاصة عام 1864 مع نشأة أوّل رابطة شيوعية أممية (*Internationale communiste*). أما في ما يتعلق بما يعْلو على القوْمية (*Supranationalité*) فلئن وُجد المفهوم منذ بداية القرن العشرين فمدلوله السياسي أقرب عهداً. وتوحي أوروبا الأمم (*L'Europe des nations*) بتصور لأوروبا ظهر منذ قليل ـ والاشتراك في قبوله متفاوت. متى استُعمِل الدخل الوطني الخام (*le produit national brut*)، والطرق الوطنية (*les routes nationales*)، والتربية القومية (*L'Education nationale*)، والخدمة الوطنية (*le service national*) التي أُلغِيت حديثا[6]؟ يجب القيام بشيء من البحث للجواب عن هذا بدقة[7]. ما يهمّنا هنا هو أن كل هذه

---

(5) أحد رجال الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر، وكان خاصة ممن ساعد بونابرت على القيام بالانقلاب الذي آل الحكم بعده إلى قناصل ثلاثة ومنهم سيياس نفسه.

(6) يشير المؤلّف هنا إلى إلغاء الخدمة الوطنيّة في فرنسا.

(7) كلمة «قوم» العربية وما اشتقّ منها بحاجة هي أيضاً إلى دراسة تبيّن ما حفّ بها من معان وظروف ذلك، ويمكن أن نقول ارتجالاً إن كلمة قومية (قوميات) المشتقّة منها شاعت خصوصاً ابتداء من منتصف القرن العشرين للتعبير عن الرابطة التي تجمع العرب (القومية العربية)، وأن صيغة الجمع يرجع استعمالها إلى طغيان النزعات القومية في أواخر القرن التاسع عشر.

المفاهيم جزء من تاريخنا، وأن هذا هو شأنُ عدد لا يُحصى من اللّفاظات والعبارات والتراكيب وكلها محملة بالتاريخ فهي مواطِن ذاكرة.

وهذا مثال آخر مختلف تماماً يؤيد أن اللسان ـ كل لسان ـ هو وعاء للتاريخ الثقافي: *décharger ou déverser sa bile* (حرفياً لفظ مِرّته)، معناه صبّ جامَ غضبه. ففي نظرية الأخلاط القديمة يُعتبر المزاج الصفراوي (*Bilieux*) مزاجاً قليل الصّبر وكثير الغضب؛ لكن se faire de la bile معناه انشغل. ذلك أنّ ما يُستحضر هنا هو نوع آخر من المِرّة، لا مِرّة الكبد، وإنّما «المِرّة السوداء» (*l'atrabile*) التي يفرزها الطحال والتي تغلُب على المزاج الكئيب القلق. هكذا يحمل اللسانُ أثرَ طبّ عتيق، وينحدر ما فيه من صور واستعارات من تاريخ المجتمع والعقليات والمعتقدات والعلوم. فالتاريخ الاجتماعي وتاريخ اللسان مرتبطان ارتباطاً لا ينحَلّ.

فهم اللسان بتاريخه

لكن ليس هذا هو المبرّر الوحيد لدراسة اللسان زمانياً. لنفرض أنّنا نقتصر على وصف اللسان المعاصر وحده: تبقى إذاً جوانب كاملة منه لا تفسَّر من دون الاستعانة بالبعد التاريخي، وهذه بعض الأمثلة من الدّلالة والصرف والتركيبيّة في آن واحد.

ـ كلّ لسان ـ وقد رأينا ذلك سابقاً ـ يتضمّن قسطاً مهماً من اللاتركيبيّة [فقولنا] ذهب في عطلة (*Partir en vacances*) مفهوم عند من يعرف معنى ذهب ومعنى في عطلة، فمعنى الكلّ ناتج من معنى الأجزاء. لا شيء من هذا القبيل في *reprendre du poil de la bête* (استعاد شعر الدّابة)، فعلى الرغم من معرفة المرء معنى كل الكلمات الواردة فيه (*reprendre, poil, bête*) (استعاد، شعر، دابّة) فمن المستحيل أن يستنتج منه معنى «استعاد قواه» الذي تحمله هذه العبارة؛ فـ *reprendre du poil de la bête* ليس ترَكيباً، والتاريخ وحده

هو الكفيل بتوضيح محتواه. وتبريرُه يكمن من دون شكّ في اعتقاد أنه يجب ليشفى المرء من عضّة أن يضع فيها شيئاً من شعر الدابة التي أحدثتها. فالمرءُ يستعيد قواه بتناول شعر الدابة. كيف يمكن الاهتداء إلى هذا المعنى بواسطة محتوى اللّفاظات وحده؟ لا بد لذلك من مفتاح لا يوفّره إلاّ الرجوع إلى التاريخ[8].

تحتلّ العِبَارِيّة ـ أو ـ إن اعتُبر ذلك أفضل التكلّس الدلالي ـ مكانة عُظْمى في كل الألسن، ولا يمكن اقتحامُ الكثافة النّاجمة عنها إلاّ بمسالك بعيدة كلّ البعد عن التفسير الآني: فالرّؤية التاريخية تفرض نفسها حتى في مقاربة اللسان المعاصر.

ـ قد تبقى أنواع متنوعة من الظواهر الصرفية مُلغِزَة أيضاً بالإعراض عن المقاربة التاريخية. انظرْ إلى ما يسمّى بالتنوّع التوليفي، فبجانب *chair* (لحم) تظهر ـ *char* في *charcutier* (جزّار الخنازير) ف. قـ. (= فرنسية قديمة) (*de cuire char-cuit-ier*)[9]. «*charn*» في «*charnel*» (جسدي أو شهواني) و*carn* في «*carnivore*» (مفترس)[10]؛ لا يمكن آنياً إلاّ أن نلاحظ ذلك، وزمانياً يكون فهم هذه [الاختلافات] ميْسوراً اعتماداً على ظواهر صوتية يؤيّدها الواقعُ إلى حدّ كبير: تحت تأثير النّبرة، *ar* تميل إلى *er* (ف. قـ.: *sarpe* < *serpe* (مِشذَب) *jarbe* < *gerbe* (حزمة)، من هنا جاءت

---

(8) نورد مثالاً من العربية لا يمكن فهم معناه بفهم مكوناته هو: «أخذ الشيء برمّته» ومعناه أخذه بجملته، ولا يوجد هذا المعنى في كلمة رمّة التي تطلق على قطعة الحبل البالية أو الحبل يُشدّ في عنق البعير، وأصل المثل بحسب الميداني أنّ رجلاً دفع إلى رجل جملاً بحبْل في عنقه **مجمع الأمثال** 1).

(9) تتكوّن الكلمة المعنية من أصل *char* يفيد اللحم و*cuit* من فعل *cuire* ومعناه طها والتابعة *ier* الدالة على المهنة.

(10) يفسّر المؤلف بهذه الأمثلة كيف أنّ كلمة *chair* (لحم) تظهر في المشتقات بأشكال مختلفة في كلمات لها علاقة بهذا المعنى وهي *char* و*charn* و*carn*.

[الصيغة] الفرنسية القديمة *charnel* بجانب *charn* > *chair* حيث تقع النبرة على المقطع الثاني؛ في آخر الكلمة مطلقاً تسقط *n* بعد حرف صامت (*chair/ charnel* كما هو الشأن في *hiver/ hivernal* (شتاء/ شتوي)؛ *enfer/ infernal* (جهنم/ جهنّمي)، *cor/ cornu* (بوق قرني/ أقرَن))؛ في بداية الكلمة «تُحنّك» *c* في الكلمات «الشعبيّة» فقط - لا في الكلمات «العلمية» (*chair*، *charcutier*، *charnel*، *s'acharner* (تكالَب) / *carnivore*، *carné* (لحْمي)، *incarnation* (تجسيد) *s'incarner* (تجسَّد)). كلّ لسان يحمل في ذاته آثار التاريخ الذي ينتمي إليه. فالتغيّر التوليفي المدهش لا يمكن أن يُبحَث عن تبرير له في مكان آخر. انظر أيضاً إلى «الأفعال اللاقياسية التصريف - في الألمانية والإنجليزية، وأفعال «المجموعة الثالثة» في الفرنسية، فلا يمكن فهم التصريف «اللاقياسي» (*Irrégulière*) إلاّ بواسطة التاريخ.

- نقول مثل هذا في رسم مثل الرسم الغريب للفرنسيّة؛ لماذا تُرسم *tant* (تفيد المقدار أو الدّوام) خلافاً لِـ *temps* (زمن)، و *chant* (غناء) خلافاً لـ *champ* (حقل)، فالتأثيل هو الذي يسمح بتوقّعه. *tantum*) بمقدار)؛ *tempus* (زمان)؛ *cantus* (غناء)؛ *campus* (حقل) ؛ فالرّسم المحمّل بالتاريخ كما هو رسم الفرنسية ينزع نحو تقليص التنوع التوليفي. فحرف *p* من كلمة *temps* (زمن) غير المنطوق يبرز من جديد في النطق بـ *temporel* (وقتي)، وحرف *p* من كلمة *champs* (حقل) يبرز في *camper* (خيَّم). كل هذا قد يبقى بلا تفسير خارج التاريخ.

- يصلح الأمر ذاته للتركيبية. يقال ...*je ne sais si* أو *je ne sais pas si...*[11] (لا أعلم ما إذا . . .)، *je n'ose le croire* أو *je n'ose pas*

(11) المثال يدلّ على أنّ التركيب نفسه قد يخلو من جزء أداة النفي.

le croire (لا أجرؤ على تصديقه . . .) (لكن لا يُقال *je ne le crois*★ مكان *je ne le crois pas* ـ لا أصدّقه).

هذه آثار وضع لسان قديم حيث لا يحتاج التعبير عن النّفي إلى التوكّؤ على الأداة pas[12]، فالتّركيب *je ne sais si...* (لا أعلم ما إذا . . .) تبدو عليه صبغة القِدم. فبعض الصّيغ تنتمي إلى عصور مضت في حين أن صيغاً أخرى تصدُم بجرأتها التجديدية (tinquiète ! va، مكان ne t'inquiète pas, vas «لا تقلق»! «اذهب»!) حيث تكفي صيغة تعجبية ـ علامة غير المنتظر ـ للإيحاء بالنفي.

ـ يتكوّن كل لسان من طبقات متنوعة، ولا بد من قدر أدنى من الثقافة التاريخية لتبيُّنها، فتفسير اللسان يتمثل على الأقل جزئياً في فهم تاريخه.

البعد المزدوج للسانيات التاريخية

هذا إذاً ما يبرِّر المقاربة التاريخية حتى في محْض الآنيّة المعاصرة. ومن الطبيعي أن يكون للسان في تاريخه ما يبرِّر ممارستَه، بل إنّ له نوعين من الأهمية مطابقين لبعده المزدوج: فموضوع اللسانيات التاريخية هو قبْل كلّ شيء آنيّات قديمة وأوضاع للسان في عصور مختلفة (على سبيل المثال فرنسية القرون XI وXII وXIII المسماة بالفرنسية القديمة؛ وفرنسية القرنين XIV وXV المسماة بالفرنسية الوسطى؛ وفرنسية ما قبل الكلاسيكية ـ في القرن XVI وبداية القرن XVII؛ والفرنسية الكلاسيكية للقرنين XVII وXVIII). وتهدف اللسانيات التاريخية من ناحية أخرى إلى [البحث] في التطور

---

(12) تتكوّن أداة النفي في الفرنسية من جزأين *ne ... pas* يكونان متجاورين مثل *ne pas venir* (عدم الإتيان)، أو منفصلين بالفعل المنفي مثل *je ne viens pas* لا آتي.

بصفته تلك، أي الظواهر التي تفضي إلى الانتقال من وضع إلى وضع، من آنية قديمة إلى آنية أحدثَ منها.

وتختلف طرُق اللسانيات التاريخية باختلاف البُعْدِ المقصود. فالبحث في آنية قديمة كالفرنسية الوسطى مثلاً يعتمد منهجية شبيهة تماماً بالمنهجية التي تتطلبها الآنية المعاصرة. والفرق الوحيد (المهم والحق يقال) يتمثّل في استحالة الاستعانة بحكم «كفاءة» متكلم في شأن المقبولية. ويقوم الأمر كلّه على مدونات وشهادات [معتَرف بحجيّتها]، وهذا يعني أنّ لسانيات آنيات قديمة لا يمكن فصلها عن الفيلولوجيا ونقد النّصوص وتأويلها، وتلتقي اللسانيات بالفيلولوجيا، لكن لا يتعلق الوصف ولا التفسير بمنهجية خاصّة.

لكنْ بمجرّد أن تُقْبِل اللسانيات التاريخية على [النظر] في تطور اللسان تصبح الطرق ـ الزمانية الصّرف ـ مختلفة تماماً؛ هذا ما نسلط عليه الآن نظرنا.

طرُق اللسانيات التاريخية

الميادين والمصادر

التاريخ الداخلي والتاريخ الخارجي: يتمّ التمييز عادة ـ اقتفاءً لأثر فردينان برونو (Ferdinand Brunot) مؤلّف **تاريخ اللّسان الفرنسيّ** (*Histoire de la langue française*) الضّخم، بين التاريخ الخارجي والتاريخ الداخلي؛ فتاريخ اللسان الخارجي يتعلق بالمكانة التي يحتلها في المجتمع. ويتعلق التاريخ الداخلي بتطور اللسان ذاته، بأبنيته ومكوناته من صوتية وصرفية وتركيبية ومعجمية.

يدور التاريخ الخارجي حول أسئلة كالتالية: ما هو الوضع الاجتماعي السياسي الممنوح للسان المعني؟ هل هو لسان الأمّة أم

لهجة جهوية؟ هل هو لسان الإدارة والعدالة أم لسان العلاقات الخاصّة فقط؟ هل هو لسان يعلَّم أم يُنقَل بالاستعمال فقط؟ ما هو مدى ما يحظى به من الانتشار (في القُطر المعني وخارجه)؟ يصف التاريخ الخارجي أيضاً تطورَ الوعي الاجتماعي اللساني المتعلق باللِّسُن: هل لِمُتكلّميه شعور بأنّ لهم تراثاً؟ أم هل يرغبون خلافاً لذلك في التعجيل بالتخلي عن لِسُنهم لفائدة ألسِنة أخرى أكثر شهرة وانتشاراً، وأنجع في العلاقات الاقتصادية؟ وباختصار فإن التاريخ الخارجي يعالج اللسانَ باعتباره شيئاً اجتماعياً، وأداةً للعلاقات البشرية، وللثقافة ونقل المعرفة.

لا تبتعد الطرُق هنا عن طرق البحث التاريخي بعامة: فمن الممكن أن يخُطّ المرء تاريخَ اللسانِ الخارجي بصفة موفقة من دون أن يكون لسانيّاً البتة، فالتاريخ الداخلي هو وحدَه الذي يتطلّب طُرُقاً خاصّة.

ميادين التاريخ الداخلي: في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تطور التاريخ الداخلي خصوصاً في ميدان الصّوتيات والصّرف، وهكذا أمكن استنباط «القوانين الصّوتية؛ ففي تاريخ الفرنسية مثلاً أصبح صوت[13] a اللاتيني المنَبَّر في مقطع حرّ (غير متبوع بصامت في المقطع نفسه) é بصفة منتظمة (mer < mare [بحر] ؛ père < pater [أب])؛ ولقد بلغت الصّوتيات التاريخية عملياً بخاصّة في الألسُن الرّوْمنية ضرباً من الاكتمال لا يترك مجالاً لتوقّع الكثير من الاكتشافات.

بل إن «النحو المقارِن» قد حقق بممارسة «النحويين الجدد» فتحاً متمثلاً في إعادة تشكيل اللسان الأصلي المشترك ـ الهندو ـ

(13) تقابل هنا الفتحةَ في العربيّة.

أوروبية ـ تشكيلاً يحظى باحتمال كبير في مجال الصّوتيات والصرف، مع أنه ليس لدينا منه أي أثر مكتوب، فقد أدّت المقارنة بين الألسن المتولدة عنه (السنسكريتية، واليونانية، واللاتينية ...) ومعرفة تاريخها، إلى وضع جداول من الأشكال البدائيّة مفصّلة تفصيلاً مدهشاً.

ولم تبلغ التركيبية والدلالة التاريخيتان، على الرغم من الأعمال اللافتة (حول تاريخ أدوات التعريف والتنكير وتاريخ الأزمنة والصيغ، وتاريخ العطف والبعّة ...) الدّرجة نفسها من التقدم، والحالُ أنه قد توافر لبعض الألسن شروط انطلاقة جديدة؛ هذا هو شأن الفرنسية.

شُروط انطلاقة جديدة لتاريخ الفرنسية الداخلي: نلاحظ بادئَ ذي بدء ما طرأ من ازدياد كبير للمصادر (ومعالجتها إعلامياً بصفة تدريجية)؛ وقد توفّرت نصوص محقّقة تحقيقاً جيداً مزوَّدة لا بحواشٍ نقديّة ثمينة فقط (الاختلافات بين المخطوطات، والرّوايات المرفوضة)، بل كذلك بكُشوف مفصّلة توضّح كل الصّعوبات المعجمية، وتُبرز في كثير من الأحيان ما تتسم به من تجديد. وقد اضطلعت مصنفات تأليفيّة بجمع كمّية هائلة من المعلومات. هذا هو خاصّة شأنُ **قاموس الفرنسيّة التأثيلي** (*Französiches Etymologisches Wörterbuch*) لفارتبورج (W. v. Wartburg) الذي يجمع في 25 مجلّداً كل الآثال الملائمة (لاتينية، يونانية، جرمانية ...)، وكل المفردات الغالو ـ رومانية، الأدبية والتقنية، والجهوية، واللهجية. يمثّل هذا القاموس كمّاً عظيماً يمكّن من تحديد مكانة الروافد الجديدة. ويمكن له أن يكون أكثرَ فائدة لو عُولِج إعلامياً (لكنّ ما يحتاج إليه من أشكال حرفية بالغة الكثرة لرسم الصيغ اللهجية بخاصة، يتطلب من سوء الحظ تكاليف باهضة). يتوفّر لنا أيضاً عدد كبير من القواميس القديمة التي ما تمّتْ بعدُ معالجتها إعلامياً (على

سبيل المثال قاموس نيكو (Nicot)، وإتيان (Estienne)، وفورتيار (Furetière)؛ ومختلف طبعات قاموس الأكاديمية، وقاموس لاكورن (La Curne)... إلخ)؛ ومن ناحية أخرى صيّرت قواعد نصّية ذات اتّساع كبير (وبخاصّة قاعدة فرنتاكست (FRANTEXT) من وضع المركز الوطني للبحوث (CNRS)) في متناول الباحثين نصوصاً قديمة وحديثة بحسب كيفيات ملائمة جدّاً [للبحث].

ـ كما قلنا سابقاً، إنّ المقاربةَ الزمنية تقتضي معرفة دقيقة للآنيات المتعاقبة؛ ذلك أنه يمكن أن يوصف هذا الجانب، أو ذاك من الآنيات القديمة (استعمال الأزمنة، استعمال الصيغ، استعمال أدوات التعريف والتنكير ... في هذا العصر أو ذاك) ويفسر بواسطة تقنيات المقاربة الآنية تفسيراً يبلغ من الدقّة ما لا يختلف عن بحوث اللسان المعاصرة. هكذا تنشأ للمقاربة الزمنية قاعدة تضمن لها متانة أساس جديد.

ـ نضيف أخيراً أنّ مجال البحث في الدراسات التاريخية قد اتسع اتساعاً ملحوظاً. فالمكانة التي أُوليت للـ«تنوّع» (الاستعمالات الكتابية والشفاهية؛ العوامل الاجتماعية الثقافيّة؛ ألسنة الاختصاصات؛ الأُرْغَيات (Parlers argotiques)...، وبروز متصوّر «الجهوية» ومعالجتها التاريخية (تنتمي الكلمات إلى فضاءات واسعة إن قليلاً أو كثيراً بحيث لا تكون النصوص موسومة جهويّاً بصوتياتها ورَسمها فقط بل توسم أيضاً بانتماء مفرداتها الجهوية) كل هذه الجوانب تُكسِب الدراسات التاريخية ثراءً جديداً. صحيح أن تذليل الطريق إلى هذا المجال ما زال في بدايته، وحتى المصادرُ في هذا الميدان ليس من اليسير الفوزُ بها: بصفة خاصّة فإنّ عدداً مهماً من المخطوطات المحفوظة في أرشيف المقاطعات من شأنها أن توفّر، لو حققت تحقيقاً موفقاً، مادّة لسانية ذات ثراء عجيب.

هذه هي الشروط، والمشكل الأساسي الذي يبقى مطروحاً على نطاق واسع هو بيان ما يمكن أن يكون التفسيرُ التاريخي، وهل يمكن تجاوزُ المرحلة البسيطة، مرحلة يُكتفى فيها بالملاحظة لربط ظاهرة معيّنة بسابقتها في الزمان. فالقول إن *chair* (لحم) مبدّلة من *caro*، *carnis*، يتمثل في إقامة علاقة تناسلية هي بالتأكيد ضرورية، ولكن ليس لها سوى صبغة وصفيّة ومحليّة، فالتفسير يقتضي تعميمية لا تكفي مجرد علاقة سلفية للاستجابة [لشروطها].

التفسير التاريخي

يعتمد التفسير التاريخي على نوعين من المفاهيم: الكليات الزمانية والنزعات الأنماطية.

الكلّيات الزمانية: لماذا تتطوّر الألسن؟ العوامل هي كونياً إما خارجية وإما داخلية.

أ ـ تدرك العوامل الخارجيّة بيسر.

ـ تتطوّر الألسن قبل كلّ شيء باتصال بعضها ببعض، هكذا تدخلت في تاريخ الفرنسية ما يسمى بطبقة تحتية وطبقة فوقية وكل أنواع الطبقات جانبية. عندما احتل الرومان بلاد الغال كان لسانهم هو الذي فرض نفسه، فأصبح اللسان الغالي، وهو اللسان الأصيل ولكنه المسيطَر عليه، مجردَ طبقة سفلى بالنسبة إلى اللاتينية لسان الغازِين، فلم يحدث فيه أكثر من بعض الأثر، فبعضُ الكلمات الفرنسية هي من أصل سِلتي (Celte) مثل *bruyère* (الخَلَنْج)، وبلا شكّ *chêne* (بلّوط)، وبعض المصطلحات مثل *benne / banne* (عربة/ وصندوق نقل)، وقبْل ذلك «charrette» (عجلة نقل)، *jante* (إطار العجلة) (كان الغاليون نجّاري عجلات بارعين)، *charrue* (محراث) *soc* (سكة المحراث)، *raie* (خطّ) «sillon» (خط المحراث) أو «talus»

(تَلعة). وكذلك كلمة مثل *vassal* (مولى الإقطاعي) المفيدة لعلاقة اجتماعية لم يكن الرّومان يعرفونها: مجموع هذا شيء قليل. والأمر مختلف تماماً بالنسبة إلى لسان الإفرنج؛ لم يستطع غزاة القرن الخامس فرض لهجتهم، فقد قاوم اللسان الغالي الرّوماني الآتي من اللاتينية مقاومةً ناجحة، واضطلع هكذا اللسان الإفرنجي (Le Francique) بدور طبقة فوقية، أي لهجة أثّرت في اللهجة الأصيلة من دون أن تعوّضها: لقد تناولت ثلاثة مجلدات من **قاموس الفرنسية التأثيلي** (*FEW*) (المجلدات XV، XVI، XVII) الكلمات التي هي من أصل جرماني. وقد تعرّضت الفرنسية خلال تاريخها لتأثير العديد من الطبقات الجانبية، أي الألسن التي كانت على صِلة بها، لكن من دون وجود علاقة سيطرة (الألسن الأوروبية، اللسان العربي، الألسن الشرقية).

ـ تتطوّر الألسن أيضاً بالضغط الخارجي المتمثل في الحاجة إلى التسمية، فمن اللازم تسمية الوقائع الجديدة، وتصوُّر ما يحصل لنا حول الكوْن والمجتمع من تجربة يُعاد تكييفُها باستمرار؛ ولا يمكن لتطوّر الأشياء والرّؤية التي تهيكلها أن تكون بلا نتائج تحدث في اللسان الذي يلتقطها. جميع الناس يعرفون أن التسميات ليست محايدة، [فعبارتا] clandestins (المهاجرون خفية) وles *sans-papiers* (من ليس لهم وثائق رسمية)[14] تدلاّن على الأشخاص أنفسهم، لكن ما أعظم ما بينهما من فرق في الحُكم! يَعكس اللسان تصورنا للأشياء، ولا مفرّ من التغيّر المتبادل بينهما في تكافل شديد.

ـ نضيف إلى هذا ضغطَ الجِفاف، فالكلمات لا تحيل على الأشياء فقط، وإنما تحيل أيضاً على من يستعملها. فما أسميه

---

(14) في التسمية الأولى شحنة تهجينيّة لا تحملها التسمية الثانية.

بالتسمية المبتذلة *jaunisse*، يسميه الطبيب *ictère* (برقَان)؛ فـ *ictère* تفيد تماماً المعنى نفسه الذي تفيده *jaunisse*، لكنها تدل على أن الذي يستعملها عارفٌ بحقيقة الأمور. فهي تشير إلى أنّ مستعملها خبير في الميدان. إنّ أُرغات المهن كما هو شأن لهجات الضّواحي، ولغْوَيات عُدول الإشهاد كما هو الشأن في لغة «الموضة» (branché). كلّ هذا يحيل من وراء الإحالة على الأشياء، على انتماء المتكلم المعني إلى العشيرة المعنيّة. إلاّ أن الابتذال والبِلَى يهدّدان القوّة الحفافيّة. فلا بدّ من التّجديد حتى يتسنى التميّز عن العموم بحيث يوجد هنا أيضاً عامل تطوّر لساني مهم.

ب ـ هذه الضّغوط الخارجيّة اليسير تصوّرُها تتآلف مع ضغوط أخرى أشدّ دقّة ينتج منها أن اللسان كائن متطور بطبيعته.

ـ إنّ الأشياء اللسانية أشياءُ ذات حدود ضبابية؛ لنفرض أنّه يوجد أمامنا كُومة رمل ضخمة، وأنّني آخذ منها حبّة ثم ثانية ثم أخرى وهكذا دواليْك. فمتى لا يكون من المشروع أن نسمي ما بقي بكومة رمل؟ لا أحد يستطيع أن يحدّد ذلك بدقّة؛ فكم يجب من حبّة رمل على الأقلّ لتكوين كومة؟ بالتأكيد عدد كبير. لكن ما هو العدد الكبيرُ؟

فما ينطبق على كومة الرمل ينطبق على كل ما تعيّنه اللغة من الأشياء، اللّهم إلاّ إذا ضُبِطت حدودها باصطلاح صريح (هذا هو شأن المتر، والكيلوغرام، وسنّ الرّشد، أو كذلك الرسم الدماغي المُسطَّح باعتباره علامة الموت السريري)؛ ماذا يجب أن يتوفّر ليُقال في المرء إنّه ذكي، وإنّه طيّب وإنّه مريض؟ أحياناً تكون التعريفات دقيقة، دقة تامة (كما هو شأن المربع)، لكن يُتسامح بسهولة إزاءَ تطبيقها تطبيقاً تقريبياً (الغرفة مربّعة ـ هي كذلك تقريباً). يقول المرءُ عن نفسه إنّه مُنهَك، مُضنًى، مُجهَد من التعب ولو كان قادراً تماماً

على القيام؛ هذا من دون شكّ مغالاة، ولكنّ مصدر هذه المغالاة يكمن في الإبهام الذي من طبيعة الأمور أن يحفّ بالعبارات اللغوية.

إن ما تتّسم به الأطرافُ من تردّد يجعل هذه الأشياء قابلةً لمرونة يمكن مع مرور الزمن أن تغيّر وجهة محتواها: ففي الفرنسية الكلاسيكية *étonner* معناها إحداث صدمة كعمل الرّعد إلى حدّ الارتجاج الجسمي أو الخُلُقي، ومعنى *étonner* اليوم هو إحداث مفاجأة بواسطة أمر غير منتظر؛ و*consterner* معناها الدقيق جعل المرء ينهار انهياراً شديداً، لكننا نطلق اليوم على أنفسنا consterné لأشياء بسيطة، كما نقول في مقام آخر *navré* أو *désolé*[15] (آسف).

- إنّ الأشياء اللسانية أشياء قابلة لتغيير صورة معناها، وتسمح طرق كثيرة التنوّع من توسيع وكنايةٍ وحصرٍ وقياسٍ بتكييف محتواها تكييفاً لا متناهياً. ففي الفرنسية القديمة **On *équipe* une embarcation** (يُجهّز الزّورق): أي يزوّده بكلّ ما يلزم للملاحة؛ وعن طريق التوسيع تدل *équiper* منذ عهد الفرنسية الوسطى على تزويد شخص أو شيء بكلّ ما هو ضروري لنشاط ما. وخلافاً لذلك كان معنى *traire*: «جذب من» (كما هو الشأن في *extraire* = استخرج)؛ وعن طريق الحصر لم يعد الفعل يدلّ إلاّ على معنى «جذب حلمة البقرة»[16]. يتمثّل التوسيع في إهمال سمة خاصّة (هي فكرة الزّورق في *équiper*)، ويتمثّل مفعول الحصر في زيادة سمة إضافية (حلمة البقرة في *traire*)؛ والطريقة في الكناية هي طريقة الجِوار، فمعنى *bureau* هو قبل كلّ

(15) لا تدلّ هاتان الكلمتان في الأصل على مجرّد الأسف وإنما على الشعور بالحزن الشديد والألم لحادث طرأ أو ضرر لحق.

(16) يمكن أن نذكر في العربية مثال «السيارة»، فالكلمة هي مؤنث «السّيار» أي الكثير السير، وقد حصر المعنى في القرن العشرين في العربة التي تسيّر بالوقود، ويتمثل الحصر هنا في زيادة سمة إضافيّة هي مفهوم الآلة التي تسير بطاقة غير حيوانيّة.

شيء نسيج خشن من الصّوف (*bure*)، وهو أيضاً في أواخر العصر الوسيط غطاء من الصّوف يوضَع خصوصاً على طاولة الكتابة. وعن طريق ما يمكن تصوّره بيُسر من الجوار أمكن أن تدلّ في القرن الرابع عشر على طاولة الكتابة، وأفادَت في القرن السادس عشر الغرفة التي يضع فيها المرء مكتبَه. أمّا معنى «الأعوان الذين يشتغلون في مكتب» فإنه لم ينتشر عن طريق جوارٍ جديد إلاّ في القرن الثامن عشر.

فالتوسع والحصر والكناية، تلك هي الطرق المتوفّرة دائماً والتي لا تنفكّ تغيّر شكل أشياء قابلة لتعديل لا نهاية له يبلغ حدّ القطيعة أحياناً (كما هو الشأن في *traire*). وأكثرُ الطرق تغييراً ـ أكثرُها توفيراً للاكتشافات التعيينية ـ هو القياس. يكفي الاشتراك في خاصّية مهما كانت ضئيلة لتطلَق كلمة أو عبارة على شيء آخر. فكلمة **bouche** (فم) (الآتية من اللاتينية الشائعة *bucca* «خدّ متنفّخ»، والتي عوّضت اللاتينية الكلاسيكية *oris, os* أطلِقت تدريجياً على كلّ أنواع الفتحات: *bouche d'une arme à feu* (فوهة السلاح الناري)، bouche *d'égout* (الصنبور)، *bouche d'un fleuve...* (مصبّ النهر)[17]؛ وكلمة *cadre* (من الإيطالية *quadro* «مربّع» أطلقت أوّلاً على ربع القمر، ثم أفادت في القرن السادس عشر الإطار [ذي الشكل المربّع ثم المستطيل توسعاً])[18] المحاط بلوحة أو مرآة.

---

(17) يمكن أن نذكر في العربية كلمة «رأس» التي استعملت للدلالة على مسميات تشترك مع رأس الإنسان في الموقع (أعلى كل شي أو أوله) أو الاستدارة فيقال: «رأس المركب» (مقدمه)، «رأس السنة»، «رأس النهر»، «رأس القوم» (سيدهم) «رأس لفت»، ودلّ على الأصل في رأس المال، وعلى السبب أو المنبع: «الفقر رأس كل بلاء».

(18) في العربيّة تفيد كلمة «إطار» في الأصل ما يحيط بالبيت، وقضبان الكرم تلوى للتعريش وبصفة عامة كل ما أحاط بشيء (**لسان العرب**: مادة «أطر») وبتأثير الترجمة من الفرنسية دلّ على ما يحيط بالرسوم الزيتية والصور الفوتوغرافية، ثم للدلالة دائماً بتأثير تطور المقابل الفرنسي على الموظف أو العوْن السامي الذي يوجّه منظورِيه ويأتمرون بأمره ونصحه.

ويجب انتظار القرن الثامن عشر لتطلق عن طريق القياس على الذين يؤطرون مأموريهم (في الجيش أوّلاً، وفي القرن التاسع عشر بالمؤسسة أو الإدارة). وكلمة *saisir* معناها «تسلّم...»، «استولى على»؛ ولها أيضاً معنى «فهم» لكن منذ تاريخ أَحدَث (هل هو القرن السابع عشر؟). بمقتضى كثرة أنواع التجانس اللامتناهية يكِنّ اللسان في ذاته بفضل بـ مركّبته القياسيّة إمكانيات لا تنفد، فهو في حدّ ذاته موطن اكتشاف لا متناه ومن ثمّ موطن تطور مستمر.

- يوجد أكثر من هذا: فالأنظمة اللسانية أنظمة بطبيعتها غير مستقرة، وكثيراً ما تكون المقابلات التي تقوم عليها قابلة للتحييد لأنها «موْسومة»، وفي ما يلي أمثلة بسيطة يتيسّر الإقناع بواسطتها. فكلمة *jour* (يوم) تقابل *nuit* (ليل)، لكنّ *nuit* كلمة «موْسومة» بالنسبة إلى *jour* لأنّه في المقامات التي لا تفيد المقابلة فيها تكون الغلبة لكلمة *jour* غير الموسومة: قضينا خمسة عشر يوماً بباريس (خمسة عشر يوماً وخمس عشرة ليلة). ويقابل الحاضر الماضي والمستقبل: *il est rémunéré par* (يُؤجر من قبل ...) / *il était rémunéré par...* (كان يُؤجّر من قبل) / *il sera rémunéré par...* (سيُؤجّر من قبل ...)؛ لكن إذا كان الملفوظ صالحاً للماضي والحاضر والمستقبل يُستعمل الحاضر: (*la terre tourne autour du soleil* تدور الأرض حول الشّمس)[19]: فالحاضر زمن غير موسوم. تحمل المقابلات القابلة للتحييد بذرة انخرامها في ذاتها. وإذا أضفنا أنّ الألسن أنظمة إطنابيّة (سأفعله غداً يسِمُ المستقبل بالسين وبغد؛ أفعله غداً يفيد تقريباً المعنى نفسه. ندرك أنّ اختفاء مقابلة لفائدة

---

(19) في العربية أيضاً يُستعمل المضارع الدال على الحال للتعبير عما يعتبر من قبيل الحقائق العامّة كما تدلّ عليه ترجمة المثال الفرنسي، أو هذا المثال: يتكوّن الكلام من اسم وفعل وحرف.

أخرى عند الاقتضاء لا يعرّض للخطر مجموع النظام والتفاهم الذي يحققه، فاللسان متفتح بطبيعته لكل ضروب إعادة الهيكلة المفيدة.

هكذا تتراءى لنا كلّيات تطوّرية: قابلية الأشياء للتغيُّر وعدم استقرار الأنظمة: تتغيّر صورة الأشياء بالتوسيع والكناية (الجوار) والقياس (التشابه)؛ وتتطور الأنظمة بإقامة مقابلات جديدة مقام أخرى يتمّ تحييدُها. ها هو مثال آخر هو مثال الماضي المركّب الفرنسي (Passé composé)؛ يفيد الماضي المركب قبل كلّ شيء (وهذه هي وظيفته الوحيدة في الفرنسية القديمة) أنّ الحدث قد اكتمل في الحاضر (*j'ai fini mes devoirs* «أنهيت إعداد واجباتي المدرسية» = واجباتي المدرسية انتهى إعدادها)؛ لكنّ الحدث المكتمل مظروف حتماً في الماضي، ومن هنا جاءت إمكانية انطباق الماضي المركب عن طريق التوسيع على كل حدث ماضٍ (*hier soir j'ai fini mes devoirs à 8 heures* «مساء أمس أنهيت إعدادَ واجباتي المدرسية على الساعة الثامنة»)؛ ينظر إلى هذه الأحداث قبل كل شيء من خلال نتائجها في الحاضر، بحيث إنّ الماضي المركّب يُستعمل للقصّ غازياً مجال الماضي البسيط (Passé simple) الذي قُصِر استعماله شيئاً فشيئاً على اللغة المكتوبة المعتبرة أدبيّة بصفة مصطنعة إن قليلاً أو كثيراً. هكذا تنشأ مقابلات جديدة: مقابلات بين نظام تواصل عادي ونظام موسوم أسلوبياً؛ مقابلات بين الحاضر زمن الواقع الرّاهن (Actualité)، والماضي المركب زمن الأحداث السالفة لا زمن الاكتمال فقط.

تتم التطورات عن طريق غزو متعاقب يمكن أن يصل إلى إعادة هيكلة المحتوى؛ والألسن قادرة تماماً ـ وهذا كلّي زمني آخر ـ على أن تحتفظ بأنظمة مختلفة الهيْكلة احتفاظاً يدوم قليلاً أو كثيراً؛ فقد أقصي الماضي البسيط عملياً من اللسان الشفوي، لكن بقي استعماله

في الكتابي ـ على الأقل في التواصل الذي يروم الاتّسام بالأدبية (الرّواية مثلاً) أو موضوعية النص المكتوب (الصحف على سبيل المثال)؛ وفي المُراسلات العادية لا يخلو الماضي البسيط من التكلف. أما ماضي الديمومة الاحتمالي (Imparfait du subjonctif) فقد تقمّص هيئة التنازل الأرستقراطي وازدراء العامّة، وهو بصدد الانقراض. إنّ تعايش أبنية متنافسة يدوم قليلاً أو كثيراً، وتمكن المقاربة الإحصائية من قياس ذلك قياساً دقيقاً في نقاط زمنية مختلفة.

النزعات الأنماطية: بجانب «الكلّيات» يشتغل زمنياً أيضاً ما يمكن تسميته بـ«النزعات الأنماطية»، أي المبادئ ـ ذات الصبغة التفسيرية العريقة ـ الصالحة الاعتماد في تاريخ هذا الفريق من الألسن أو ذاك، بل حتى تاريخ لسان خاص. هذا هو شأن النزعة التحليلية ـ ويقال أيضاً زوال الإعراب (Déflexivité) ـ أي نقل المقابلات النحوية إلى الكلمة بعد أن كانت في العلامات الإعرابية، فقد اعترى زوال الإعراب مجموعَ الألسن الرّومانية مقارنة باللاتينية. فقد تقلّص التغيّر الإعرابي شيئاً فشيئاً لفائدة الأدوات. وقد أصبحت الفروق المعبّرة عن المظهر[20] (بخاصّة المنجز واللاّمنجز؛ في اللاتينية أصبحت علامة infectum (غير المكتمل) وعلامة *perfectum* (المكتمل) */amat* *amavit*) توسم تدريجياً بنظام من الأفعال المساعدة (*aimer* «أحب»/ *avoir aimé* «قد أحبّ») ؛ *sortir* «خرج» / *être sorti* «قد خرج»، وتنتمي أدوات التعريف والتنكير إلى النزعة نفسها بتوضيحها مع الاسم تعريفَه أو تنكيرَه (*l'homme* «الرجل» / *un homme* «رجل»).

في تاريخ الفرنسية تبرز بجانب الاتجاه التحليلي نزعات متنوّعة

(20) المظهر هو مقولة نحوية تعبّر عن تصور المتكلم للحدث الذي يفيد الفعل أو مشتقاته من حيث استمراره أو انتهائه أو تدرجه.

لها بفضل صبغتها العامة قوة تحليلية، وها هو البعض منها:

ـ التطور نحو منوال فـ مف (فعل/مفعول) لا منوال مف ف السّائد في اللاتينية (حوالى 80 بالمئة عند قيصر)؛ اختفى تصدّر المفعول الذي كان ممكناً في الفرنسية القديمة من الفرنسية الوسطى إلاّ مع الضمائر (*il le sait* «يعلمه»)؛ صَيّرت الفرنسية تدريجياً التعبير عن الفاعل ضرورياً (باستثناء العطف، *il s'habille et s'en va* «لبس [هو] ثيابه وذهب») واستقام أكثر فأكثر لسان من نمط فا ف مف.

ـ هناك نزعة أخرى واضحة البروز وهي الفصل بين الضمائر والمحدِّدات. تُستعمل في اللاتينية على السواء الإشاريات والمِلكيات وأدوات التنكير في وظيفة المحدِّد والوظيفة الضميرية (*hic* «ce *(livre)-ci*» (هذا «الكتاب»)؛ «celui-ci» (هذا)[21] *meus* (كتابي)[22] «le mien»؛ *quisqe* «chaque»؛ chacun[23]؛ أحياناً تستعمل حتى *quis* و*aliquis* صفات كما تستعمل على عكس ذلك، *qui* و*aliqui* ضمائر). وهذا هو جزئياً الشأن في الفرنسية القديمة. هكذا يتقابل في الإشاريات دلاليّاً جريدان (القرب/ البعد)، كلّ واحد منهما يمكن أن يكون محدِّداً أو ضميراً (*cil viendra*) هذا سيأتي/ *cist chevaliers viendra* ذلك الفارس سيأتي). لكن يبرز شيئاً فشيئاً تمييز نحوي صرف *cette/ cet/ ce* (هذا، هذه) وهي صفات، و*ceux/ celles/ celui/ celle* (هذا،

---

(21) في العربية أيضاً تستعمل أسماء الإشارة محددات للاسم بعدها (هذا الكتاب) كما يمكن أن تعوّضه (هذا) فتكون لها وظيفة الضمير.

(22) تعبّر العربيّة عن الملكية بضمائر متصلة تلحق الاسم المعني فليس لها ما يشبه الفرنسية أو اللاتينية.

(23) الاسم المقابل لهذه الأدوات هو «كلّ (واحد)»، ويأتي هو أيضاً محدّداً للاسم كما يمكن أن يعوّضه.

هذه، هؤلاء) وهي ضمائر؛ تقابل كذلك الصفة *chaque* (كل واحد) الضمير (*chacun*).

تنحو ظواهر عدة متنوّعة في اتجاه التمييز النحوي، فعلى سبيل المثال تترك الصيغة الفرنسية القديمة *moult* التي ترد مع كل أقسام الكلام (الفعل، الصّفة، الرّديف) مكانها لـ *beaucoup* (كثير)، مؤكّداً للفعل ولـ *très*، مؤكداً للصّفة وللرّديف.

- هناك أيضاً نزعة أخرى هي نزعة «الإنحاء»[24] (وهي فوق ذلك واسعة الانتشار في الألسن): نذكر بخاصّة الردائف واللامحددات المنفية الراجعة كلها تقريباً إلى أسماء لاتينية (*pas, point, mie, mot, rien, personne*)[25]، أو أيضاً الأفعال المساعدة التي مصدرها في أفعال مثل *habere* أو *esse*.

- يأتي الرّديف مثل *beaucoup* (كثير) من إنحاء + *beau coup*[26]؛ وترجع بعض الأدوات ذاتها إلى أسماء كما هو شأن *chez* (عند) الآتية من *casa* (بيت).

- توجد نزعة أخرى تتمثّل مع الضّمائر خاصّة في إنشاء أزواج من الجريدات أحدُها مساوٍ لمقولة الاسم والآخر يسمّى «ضميراً انضوائيّاً» يتموضع في مدى الفعل لا ينفصل عنه، ولا يمكن أن

---

(24) الإنحاء هو ظاهرة من ظواهر تطور اللسان بخاصّة، ويتمثّل في تطوّر كلمة من وحدة معجمية إلى مقولة أو أداة نحوية، فلا يستبعد أن يكون حرف الجرّ «على» منقولاً من الفعل «علا» إلى الحرفية؛ ويعتبر النحاة أن الظرف «الآن» (وهو مقولة نحوية) أصله الفعل الماضي أُدخِل عليه الألف واللام.

(25) هذه أدوات ترد كلها في دوالّ النفي.

(26) تتكوّن الكلمة من *beau* المفيدة بحسب السياق للجمال أو العظمة أو الكثرة، و*coup* بمعنى ضربة.

يُدرج بينهما سوى انضوائيّات أخرى، فمن المستحيل أن يُقال ★je, qui connais la situation, sais que... (أنا الذي يعرف الوضع، أعلم أن . . .)، لكن [يقال] moi qui connais la situation, je sais que[27].

فالضمير moi مساوٍ للاسم، أما je فهو انضوائيّ؛ ولا يمكن للانضوائيّات أن تتركّب مع أداة (تبعدها عن الفعل)؛ [يقال] pour moi (لي أنا)، لا ★pour je. ومن الرّدائف، فإنّ النافية ne أداة انضوائيّة خلافاً لـ Non (لا)، فبهذه الأداة يمكن أن يُجاب عن سؤال (Il est là?- Non- هل هو هنا؟ ـ لا) لا بـ ne التي لا تَرد خارج الفعل؛ وفي: je ne le sais pas (أنا لا أعلمه) فإنّ التتابعة je ne le هي تتابعة من الانضوائيّات لا يمكن فيها الإدراج ولا الوقْف.

لا وجودَ لهذا التقابل في اللاتينية؛ وفي الفرنسية القديمة لم تصبح بعد ضمائرُ الفاعل من الانضوائيات (من هنا مخلّفات الأسلوب القانوني ....je, soussigné أنا الممضي)[28]. لم ينفك جريد الانضوئيات يتسع خلال تاريخ الفرنسية إلى حدّ أنه في اللغة الشفوية العادية تنزع صيغة انضوائية للفاعل إلى ازدواج الفاعل (mon papa, il m'a dit que... ـ أبي (هو) قال لي إنّ. . .).

إنّ هذه النزعات البارزة كثيراً أو قليلاً بحسب العصور والتي يمكن أن تقاس إحصائياً توفّر للفرنسية نوعاً من التماسك، وتكتسب لهذا بعداً تفسيرياً.

---

(27) للفرنسية ضميران لكلّ من المتكلم والمخاطب والغائب، فللمتكلم كما في المثال ضمير أول je يأتي دائماً قبل الفعل ولا ينفصل عنه، وثانٍ moi ليس مكانه مقيداً؛ ولا يقابل الضميرين في العربية إلا «أنا»، ولذا فترجمة المثالين واحدة ولا تعتبر ترجمة المثال الأوّل غير مقبولة في العربية خلافاً للصّيغة الفرنسية.

(28) فُصِل هنا الفاعل je عن فعله بصفة soussigné خلافاً لما ذكر من استحالة فصل هذا الضمير عن الفعل، ويقتصر هذا الاستعمال المستمد من اللسان القديم على لغة الإدارة والقانون.

نرى إذن أنّ التفسير التاريخي يتجاوز حقاً مجرّد ملاحظة التناسُل. لكن من المجازفة اعتبارُ أنّه يمكن هنا بلوغ صلابة التفسير الذي يمكن أن يكون من حيث الآنية: الواقع أن التاريخ خارج عن كل توقّعية. من يمكن له أن يتصور ما ستكون عليه الفرنسية أو الإنجليزية بعد قرن أو قرنين؟ فللنزعات الأنماطية التي أبرزناها قبل هذا قوةٌ تفسيرية مؤكّدة، ولكنها لا تنكشف إلاّ بطريقة بَعدية بحيث يمكن أن نقول، كما يقول غ. غيوم، إنّ نورَ النهايات يضيء البدايات. وفي نهاية الأمر يبرز ضرب من التماسك التاريخي. لكن لماذا هذا الضّرب لا ضرب آخر؟ لا شيءَ يسمَح بالحكم ولا شيء يسمح بالتكهن باللاحق.

بعد مدة من الغياب النسبي استرجعت اللسانيات الزمنية حيويّة جديدة تماماً، فلا تنفك المعطيات يتسع نطاقها، والطّرُق التفسيرية تتسم بالمتانة. يقتضي التقدّم هنا ـ كما هو الشأن في مجالات أخرى ـ مجهوداً جدياً في سبيل التّوحيد، وإذا كانت الرّغبة في توحيد الطّرق أمراً وهمياً ـ بل ربما لا يخلو من تسرب الضرر ـ فالحاجة ماسّة إلى مزيد التنسيق للنفاذ إلى المعطيات، فعدد الوثائق التي يمكن الاطلاع عليها إلكترونياً في ازدياد متواصل، والتوحيد النسبي لتضبيط نصوصها المترابطة هو وحده الذي يمكن أن يسمح باستغلالها استغلالاً ناجعاً حقاً. فمستقبل اللسانيات التاريخية يمرّ من غير شكّ باختراع قواعد ضخمة يمكن للمرء أن يجد فيها طريقَه بيُسر. ما زال كل شيء تقريباً ينتظر الإنجاز في هذا الميدان المرهِق بما يقتضي القيام به من مهام التشخيص والمعادلة (على سبيل المثال في الإحالات على النصوص)، والممتع بكل ما يفتحه من آفاق.

الفصل السادس

اللسانيات التطبيقية

اللسانيات هي أحياناً وصفيّة، وأحياناً نظريّة، وأحياناً عامة، فلسفية أو تاريخية، ويمكن أن تكون أيضاً اختصاصاً تطبيقياً، بل إن تطبيقاتها كثيرة التنوّع جدّاً. سنتناول باختصار تعليمية الألسن، وعلاجية الاضطرابات اللغوية، وما يسمى «بالتهيئة اللسانية» وبخاصّة «الصناعات اللغوية»، أي بصفة إجمالية التطبيقات الآلية.

من التعليمية إلى العلاجية

التعليمية

يمكن أن يتصوّر المرء بسهولة ما يمكن أن تقدّمه اللسانيات من إعانة لتعليم الألسن ـ الألسن الأجنبية واللسان الأم.

1 ـ إنّ اكتساب لسان أجنبي هو قبل كلّ شيء رهين الاستعمال و«الانغماس»[1] كما يقال الآن. لكن التعليم المنتظم أي حفظ مجموعات الصيغ والتطبيق الواعي للقواعد التي يصيرها الاستعمال

(1) Immersion، ويعني به الإقامة في الوسط الذي يتكلم أهله اللسان الذي يريد المرء تعلمه.

تلقائية تدريجياً قد برهن منذ زمان بعيد على نجاعته، وتلزمه أدوات بخاصّة (من قبيل الكتب أو الوسائل السمعية البصرية) تسمح اللسانيات بتحسينها، وتقتضي اختيارات قائمة على التواتر (تواتر الأشكال واللُّفاظات والتراكيب . . .) وقواعد صيغت بدقّة وقابلة لتطبيق آلي، وتدرج محكم التسيير. كلّ هذا يقتضي من مدرس اللسان، زيادة على كفاءة لغوية، تكويناً لسانياً متيناً. وتمثل اللسانيات في الجامعة مكوّناً أساسياً من برنامج دراسة اللسان.

2 ـ ولها دور مماثل في تعليمية اللسان الأم، تتوفّر هنا للتلميذ فوراً كفاءة تسمح له بالتواصل بيسر، باستثناء حالات الاضطراب اللغوي: فالأمور الأساسية تُكتسب تلقائياً من الوسط العائلي، وقد أصبح للوسائط مفعول كبير في تعليم اللسان وبخاصّة التلفزة. وكثيراً ما يندهش المرء أمام سهولة التعبير عند صغار السّن لفرط ما أشبعوا بالمدّ التلفزي؛ لكنّ الفائدة الحاصلة شفاهية فقط ولا يتعلّم المرء القراءة أو الكتابة تلقائياً.

إنّ تعلم الكتابة محله المدرسة، فللسان المكتوب كما رأينا مقتضيات ليس الشفاهي معنياً بها، وعلى المعلم السّعيُ إلى إكسابها. لكنّ عملَه يتجه بطبيعة الحال إلى الكتابي والشفاهي في آن واحد، والشغل الشاغل يتمثّل في دعم الصّرف (بخاصّة الصيغ الأقل شيوعاً [مثل] *il cueillera* «سيَجني»؛ *il courra* «سيجري»)؛ ولكن أيضاً *il prévoira* «سيتكهّن»؛ *il pourvoira* «سيزوّد أو سيدبّر . . .)[2]، وفي تركيز أمتن للمقابلات النحويّة والمعجمية (مثلاً ما الفرق بين

(2) تتمثّل صعوبة تصريف هذه الأفعال في ما يطرأ عليها من تغييرات غير قياسيّة. ويمكن التمثيل هنا في العربيّة بصيغ الأفعال المعتلة مثل «يجرُون» و«ينهَوْن».

الماضي البسيط وماضي الدّيمومة؟[3]، وبين المبني للمعلوم والمبني للمجهول؟ وبين كلمات مثل *paresse* «كسل»، *flegme* «هدوء المزاج»، *indolence* «تراخ»)؛ وفي العمل على إكساب التلميذ التنوع الضخم للعبارات المتكلّسة تكلّساً متفاوتاً ([يقال] *on rompt le silence* «يكفّ المرء عن الصمت»؛ on brise le silence «يقلع المرء عن الصمت»؛ ولا [يقال] ...on le casse «يكسر المرء الصّمت»)[4]، وفي تنشيط العمل الصّوْغي لأن المرء لا يتحكّم في لسان إلا إذا كان قادراً على أن يقول الشيء نفسه بصِيغ بالغة التنوّع، وأن يدرك ما بينها من فُوَيرقات، وفي تكوين الشعور بتنوع المعاني الحافّة (لا يقال *bouquin* أو *livre* «كتاب» في المقامات نفسها)[5]؛ يُضاف إلى هذا رؤية وصفيّة تماماً: فحتى التلاميذ الصغار قادرون، إن أخذ المعلّم بيدهم، على اكتشاف القواعد البسيطة التي توجّه لسانَهم، ومن ثَم على استعداد أحسن لتعلّم الألسن الأجنبية، وهذا يقتضي من جديد أن يكون للمعلم معارف لسانية متينة.

نلاحظ في هذا الصدد ألاّ مفرّ من أن يكون التعليمُ معياريّاً، فـ«أخطاء استعمال الفرنسيّة» صادِرة عن تحكّم غير كافٍ؛ ففي مجال الرسم يتيسّر رصد [الأخطاء]، إذ القاموس هو المعوّل عليه (من الوجهة الرسمية: «قاموس الأكاديمية»)؛ أمّا في الجوانب الأخرى فالعدول راجع إلى سُلّمية نحوية، فهو يتراوح من العدول المرفوض إلى تأرجح الصيغ المعياري ممّا هو أنيق إلى ما دونه، وإن كان لهذه

---

(3) في العربية مثلاً الفرق بين المضارع المنصوب والمضارع المجزوم.

(4) كلّ الأفعال الواردة في هذه الأمثلة تدلّ على عمل ماديّ ففعل *rompre* معناه قطع، وفعل *briser* معناه كسّر ولا يختلف عن معنى *casser*، لكن الأوّل والثاني استُعملا مجازياً للدلالة على وضع حدّ للصمت، ولم يستعمل الثالث بهذا المعنى.

(5) كلمة «*bouquin*» تستعمل في مقام الكلام العادي ذي الصّبغة الشعبية خلافاً لـ *livre*.

فضل التواتُر *après qu'il sera revenu; après qu'il soit revenu* بعد أن يكون رجع؛ *il est probable qu'il viendra/ il est probable qu'il vienne* الأرجح أنه سيأتي؛ *encore que l'an prochain il soit à l'étranger/ encore que l'an prochain il sera à l'étranger* إضافة إلى أنّه سيكون السنة المقبلة في الخارج[6] ـ فالصّيغ الأولى من الأزواج هي وحدها المعتبرة صحيحة، ولكنّ الثانية شديدة التواتر). النحو من الناحية التاريخية هو قبل كل شيء علم معياري؛ فالنحوي يعلمنا كيف نقول ما علينا قوله، وهذا الدور يبقى دورَ اللسانيات حتى ولو كدّر صفوَ الذين يعتبرونه خارجاً عن مجال العلم، ويرفضون أن يعدلوا شيئاً من موضوع بحثهم؛ لكن لا يمكن من دون عواقب وخيمة قطع صلة اللسانيات بتعليم الألسن، ولا يمكن للتعليم أن يتجنب قضية المعيار. صحيح أنّ منظورَ النّحوي كثيراً ما كان منظورَ الحريص على صفاء اللسان الذي لا يقيم وزناً إلاّ للمعيار الأشدّ أناقةً؛ أما اللسانيات فهي تطلعنا على ما في المعايير من تعدد، وتعتبر أنّ امتلاك لسان ما يتمثل في استعمال كلّ طبقاته بيسر من أنيق وعادي، بل أيضاً سوقي ـ أو على الأقل في التفطن إليها (*se dérober / se défiler / se débiner* ـ تهرّب . . .)؛ */ s'embêter s'ennuyer /s'emmerder...* ـ ضجر ـ سئم[7]. لقد أجابتني طالبة أجنبيّة رأيتها قد أخرجت مظلتها الصغيرة في الوقت المناسب، فعبّرت لها

---

(6) لكلّ زوج من أزواج الصيغ مقابل واحد في العربيّة.

(7) من العسير أن نجد في العربية الفصحى مقابلاً للطبقات التي تنتمي إليها كلّ مجموعة من المثالين، وبديهي أن الأمر راجع إلى عدم استعمال الفصحى في اللغة العادية اليومية، لذا يجب الركون إلى الدارجة، ففي التونسية مثلاً يمكن اعتبار فعل **تهرّب** من الطبقة الأنيقة، في حين أن خْلِسْ من اللغة السّوقيّة؛ أما بالنسبة إلى المثال الثاني المعبّر عن الضجر أو السآمة فالدّارجة التونسية الأنيقة هي **قْلَقْ** بينما اللغة العادية ولربّما السوقية بحسب المقام هي **فَدْ**.

عن إعجابي بأنّها «superbement équipée» ـ إنها مجهزة تجهيزاً رائعاً ـ فقالت في تواضع إنها ليست «super bien équipée» ـ إنها ليست مزوّدة «بجسم» رائع[8] ـ وظاهر هنا أنّها لم تتفطن إلى فويرق راجع إلى الطبقة اللغوية. يتكفّل تعليم الألسن بمراعاة التنوّع العجيب للتغيرات المعيارية: لقد حصل أن ذكر زميل ألماني الـ *Agrégationdeutsch* «ألمانية التبريز» المتسم بصحّة بالغة إلى حدّ أنّه لا يمكن أن تكون حقيقية. كلّ هذا بالغ الصّعوبة، واللساني يعرف ذلك؛ وتمثل تعليمية الألسن في مجال التطبيق أهمّ شيء في نظره.

العِلاجية

يمكن أن يتّجه المجهودُ نحو جانب العلاجية؛ فتقويم النطق السّاعي إلى تلافي عيوب التلفظ يقتضي معارفَ جيدة صوتية وصوتمية؛ وبصفة عامة المطلوب إحكام كافة المناهج اللسانية في معالجة الاضطرابات اللغوية مثل الفِصام اللغوي وهو اضطراب في تعلم القراءة والكتابة، واللانحوية وهو الكف عن إدراك التركيبية على الأقلّ جزئياً، والاضطراب النحوي المتمثل في الالتباس الحاصل بين الأبنية التركيبية أو اختلاط بعضها ببعض. ويمكن في الحُبْسات (الحبسة الحركية عند بروكا (Broca)، أي اضطراب التصويت، والحبسة التقبّلية عند ويرنيك (Wernicke) أي اضطراب الفهم) التخفيفُ من أثر الإصابات إلى حدّ ما وبصعوبة تتفاقم ـ والحق يقال ـ مع تقدم السنّ، وذلك بالتحويل الوظيفي إلى مناطق أخرى من الدماغ: تساعد تمارين خاصة على استعادة [الكفاءة] جزئياً. من

---

(8) سوء التفاهم ناجم هنا عمّا حدث في ذهن الطالبة من التباس في عبارة superbement équipée فخلطت بين superbement وsuper bien، ما حوّل المعنى ممّا تصطحبه من أدوات إلى قوامها.

وراء الملاحظة المفيدة في اللسانيات على غرار إفادتها في العلوم العصبية والتي تحقق تقدماً عجيباً بفضل ما تم من إتقان في التصوير الطبّي، تجد اللسانيات هنا أيضاً تطبيقات مفيدة، لكنّ صبغة هذا الميدان التقنية تحول دون تقديم المزيد من المعلومات.

لا نقول شيئاً كذلك، لافتقارنا إلى الكفاءة، عن العلاقات المعقّدة بين اللّغة وعلم التحليل النفساني. ولمّا كان النظر في التحليل النفساني قائماً على الصّياغة اللغوية، واللغة هي الوسيلة المثلى للعلاج، فإنّ المحلّل يهتمّ حتماً بخصائص اللغة. ومن بين أعمال س. فرويد (S. Freud)، يحتل مكانة خاصة من وجهة نظر لسانية [مصنّفُه] **علم النفس المرضي للحياة اليومية** (1901) (*La Psychopathologie de la vie quotidienne*)، حيث تؤوّل أخطاء اللغة على أنها نتيجة ما للمتكلم من نوايا لاشعوريّة جزئياً.

التهيِئة اللسانية

يوجد مجال تطبيقي آخر هو «التهيئة اللسانية» التي يجب الاعتراف بأنّه أحياناً موضوعُ أخذٍ وردٍّ، وهو فعلاً قابل للنقاش.

تكون التهيئة خارجيةً وداخليةً، فهي خارجية كما هو الشأن في اللسانيات التاريخية عندما يتعلق بالوضع الاجتماعي للِّسْن موضوع التهيئة؛ وهي داخلية عندما يتعلق بالمكوّنات أو باشْتغال اللِّسن ذاته.

التهيِئة الخارجية

يمكن أن يعلن دستور الأمّة بأنّ هذا اللسان أو ذاك «لسان رسميّ»، أو «لسان وطني»: منذ 1992 يصرّح الدستور الفرنسي (وهذا ما كان إلى هذا التاريخ من تحصيل الحاصل) بأنّ «الجمهورية لسانُها الفرنسية»؛ ونودّ أن نذكر من تاريخ الفرنسية فصلاً من مرسوم

فيلار ـ كوتراتس (Villers - Cotterêts) (1539)، يقضي بأن تكون أحكام العدالة محرّرة «بالفرنسية لا بغيرها»؛ وكانت لهذا نتائج جسيمة.

يمكن أن يتمثل التدخل الخارجي في فرض لسان في هذا الظرف أو ذاك: عام 1975 صدر قانون (قانون با ـ لوريول (- loi Bas Lauriol))، يراد منه حماية المستهلكين ويقتضي ـ من جملة ما يقتضي ـ أن تتضمّن البيانات المصاحبة للمنتوجات المسوقة نسخة بالفرنسية، وهو قانون مستوحى من الكيباك (Québec)، ونعرف كم هو حادّ في الكيباك الدفاع عن اللسان الفرنسي وعن مستعمليه.

تمسّ السياسة التدَخليّة تعليمَ الألسن أيضاً: ما هو الموقف إزاء تفوّق المكانة العالمية للإنجليزية؟ فهل يجب أن يكون هذا اللسان مادّة إجبارية؟ ألا يكون للسان العالمي (هنا بمعنى «لسان مفهوم في كلّ أرجاء العالم» لا بما ذكرناه من المعنى الذي قصده لايبنتز) أهمية عملية عظمى؟ وهل يمكن لأي لسان آخر أن يحظى بهذه المكانة؟ لكن في هذه الحالة ما هو الوضع الذي يُمنح في الدراسة للألسن الأخرى حيّة كانت أو ميّتة؟ وما هو شأن الألسن المسماة «جهوية»؟ أفليس اللسان ـ كل لسان ـ تراثاً لا يحق للمرء أن يتركه عرضة للضياع؟ نرى إذن ما يتسم به النقاش من تعقّد.

كلّ هذه المسائل هي من مشمولات السّياسة؛ لكن كيف يمكن للساني ألاّ يكترث بها؟ ماذا يمكن أن يقال في الاقتصادي الذي يتملّص من العمل الاقتصادي أو ـ وهذا أتعس ـ في البركاني الذي يستخف بالوقاية؟ إنّ الأسئلة المطروحة أساسية لمستقبل الثقافة ولمكانة الأمة في العالم، وهي جديرة بأن يفكّر المرء فيها تفكيراً عميقاً؛ وبعد هذا فالتدخل ليس حتماً تدخلاً دَوْلياً، فالتخلي عن اللاتينية في الطقوس الكاثوليكية، واختيار الإنجليزية في مجال

الطيران العالمي، والفرنسية (لم يترتب عن هذا مع الأسف النتائج نفسها) في مباريات المبارزة بالسّيف، وقوائم الألسن المسموح بها في هذا المؤتمر أو ذاك، كلّ هذا من العمل «الخارجي».

التهيِئة الداخلية

يمثّل عمل التهيئة الداخلية بالتّأثير في اللغة ذاتها، والعناصر المكوّنة لها، وفي القواعد التي تسيّرها. ليست مشروعية التهيئة الداخلية ـ بل حتى إمكانيتها ـ في هذه الحالة أمراً بديهياً، ولكن فيم تتمثّل مع ذلك؟

ـ يمكن أن يكون هدفها **الإثراء** وبخاصّة إثراء اللُّفاظ العلمي والتقني، فمنذ قانون با ـ لوريول، تعمل رسمياً في فرنسا «لجان وزارية للمصطلحات» مكلفة بإتمام رصيد أنواع اللّفاظ المختص التي تتطلبها العلوم والتقنيات، وذلك تحت رقابة الأكاديمية الفرنسية وعلى صلة مبدئية مع الدوائر المعنية في سائر البلاد الفرنكوفونية؛ ويقوم التدخل في هذه الحالة بتنظيم عمل إبداعي مهدَّد بالفوضى، وللساني هنا دور مهم جدّاً بالتعاون مع أهل الاختصاص في المجال المعني.

ـ ويمكن أن يهدف العمل أيضاً إلى **التّقييس**، وهكذا يتم السّعي في مجال المصطلحات قدر المستطاع إلى تعويض ما اجتاح [اللسان الفرنسي] من مصطلحات إنجليزية بتعابير فرنسية أو مُفرْنسة، فقد أقصى *logiciel* (برمجيّة) *software*، و*banques de données* (بنك المعطيات)، *data bank*، و*covoiturage* (الاشتراك في سيارة أجرة) *carpooling*؛ ويكون نجاح التعويض رهين عوامل لسانية عدة (حسن الصّياغة الصّوتمية والمعجمية الملائمة للإنجليزية وسائر الألسن الأوروبية قصد وضع ما يسمى بـ«عالميات» ...)، وكذلك عوامل اجتماعية (هكذا حظي *covoiturage* بحملة واسعة النطاق قامت بها

نقابة النقل الباريسية). بل إنّ قانون طوبون (1994) (Loi Toubon) أراد أن يعطي المصطلحات صبغة «رسمية»، وقد أبطل المجلس الدستوري مفعوله حول هذه النقطة بسبب حرية التعبير.

يمكن أن يهتم العمل التقييسي بالرسم: فبما أنّ الرسم يُضبَط بطريقة اصطلاحية، فالاصطلاحات الجديدة هي وحدها الكفيلة بإصلاحه أي تحديثه وتلافي ما فيه من خلل، وكذلك (وهذا ما يُرجى شديد الرجاء للفرنسية) تبسيطه. وليست هذه المسألة هيّنة، فأبسط مبادرة تصطدم في فرنسا بمقاومة عنيفة؛ ولعلّ الطريقة السليمة (المطبَّقة على الروسية مثلاً) تتمثّل في إيجاد فضاءات حرية في الرسم وفي غيره تترك للمستعمل حرية الاختيار من دون أن تفرض شيئاً حول النقاط المتنازع فيها ولكنها ليست ذات بالٍ، وذلك إلى أن يستقر الاستعمال (مثلاً تحرير رسم الكلمات المركّبة، بجرّة وصل أو من دونها). فمن فرط التشريع تُفقد كلّ مرونة، أي الميزة الأساسية للغة العادية. يجب بطبيعة الحال توفرُ رسم منتظم، لكنه يجب من الأكيد ألاّ يكون فيه من التضييق والتعقيد ما يجعله غير قابل للتطبيق من دون تعلّم مفرط (كثيراً ما لا يكون لأشكال الرسم في الفرنسية مبرّر نظامي أو تاريخي: لماذا لعمْري نكتب *ballottage*[9] (ضرورة دورة ثانية في الانتخابات)، ونكتب *alourdir* (أثقل) خلافاً لـ*alléger* (خفف)[10]، وتكتب *agréger* (جمع، ضمّ) خلافاً لـ *agglomérer*[11] (كتّل)... إلخ؟)؛ إنّ التدخل في الرسم أمر ضروري، على أنّه

(9) يتساءل المؤلّف عن سبب كتابة هذه الكلمة بتكرار حرفي l و.t

(10) التساؤل يتعلق بظهور *l* واحدة في الكلمة الأولى، واثنتين في الثانية على الرغم من أنّ الفعليْن ينتميان إلى حقل معنوي واحد.

(11) الخلاف هنا أيضاً في وجود حرف *g* واحد في الكلمة الأولى، واثنين في الكلمة الثانية على الرغم من تقارب المعنى.

يجب أن يتجه نحو المرونة والتبسيط.

أحياناً يحقق نجاح باهر، فقد وجب هكذا بالنسبة إلى بعض الألسن، وبخاصة الإفريقية منها، وضعُ نظام رسم لتجاوز مجرّد الرواية الشفوية، ومن ثم وضع أسس نحو لَلمكتوب. وهذا هو بالتأكيد أبعد ما يتوغل فيه مجهود «التهيئة».

نضيف إلى هذا أنه يجب نوع من التوجيه في التعليم، فتعلّم النحو يقتضي مقداراً أدنى من المصطلحات، ويفسح الجهاز الاصطلاحي حتماً المجالَ إلى قوائم رسميّة، ويرجع آخرها في فرنسا إلى عام 1975.

في كلّ هذه الميادين يمكن إذن أن يبرَّر التدخّل ولو كان «داخلياً»، لكن سرعان ما يبلغ المرءُ حدودَ ما يمكن تحمّله، ويكفي لذلك أن يُقصد تحويل مُصطَنع لوجهة الاستعمال. أخيراً ظهرت قائمة غريبة مصحوبة بمقدّمة من تحرير رئيس الوزراء لأسماء تمّ تأنيثها (*la cafetière* ـ صاحبة المقهى؛ *la sapeuse pompière* ـ امرأة المطافئ؛ *la trésorière-payeuse* ـ أمينة الخزانة . . .)[12]؛ ومما زاد الطّين بِلّة أننا نجد *sage-homme* ـ القابِل (مذكر القابلة)؛ و*messieur de compagnie* ـ المرافق[13]؛ بجانب *arrondisseuse*[14]، *arroseuse* ـ

(12) تدلّ هذه الكلمات على وظائف يقوم بها الرّجال والنساء، لكن الاستعمال لم يميز بينها في التسمية ولعل غرابة الصيغ المؤنّثة تبدو في الكلمة الأولى أنها تستعمل لأداة إعداد القهوة، وفي الثانية والثالثة لما يحدثه التأنيث من ثقل في كلمتين لا تخلوان من ثقل لأنهما مركبتان.

(13) مذكر *dame de compagnie* وهي المرأة التي تعيش مع شخص (رجل أو امرأة) للإيناس أو الإعانة.

(14) توجد هذه الكلمة في قاموس **لاروس** (1977) بمعنى آلة تستعمل لتدوير أسنان المشط.

الساقية، و*aviveuse*[15]، *barbotteuse*[16]، *bichonneuse* (مزيّنة القبّعات)؛ و*boucheuse*[17]، *boudineuse*[18]. . .إلخ، ألا يُخشى من الرغبة في تكلف خلق الاستعمال هكذا أن تحرَّك مجرّد أشباح؟ هل يكون لهذه اللُّفاظات المفترضة أدنى وجود؟[19]؛ أفلا ينبغي رصد الاستعمال قبل ادّعاء «التّوجيه»؟ وهل يمكن أن تعالج بهذه السذاجة مسألة الجنس النحوي البالغة الدقّة، وذلك بقصْرها قصراً ساذجاً على المقابلة بين الجنسين؟ هذا من حسن الحظ مثال شاذ من كلّ النواحي، ورجاؤنا أن يبقى كذلك.

اللسانيات الآلية

لِنأتِ إلى مجال تطبيق ذي أهمية خارقة وموعود لمستقبل لا نعرف إلى حدّ الآن إلاّ بداياته: هو مستقبل اللسانيات الآلية.

للسانيات الآلية وجهان على الأقلّ:

ـ يمكن للسانيات أن تتعالَج هي ذاتها آلياً، فعندما نستمد من قاموس ورقي قاموساً إلكترونياً، وعندما نبني قاعدة معطيات رسمية، أو معجمية أو نحويّة فهذا في حدّ ذاته نتيجة البحث اللساني الذي يأخذ شكل شيء إلكترونيّ؛

---

(15) لا توجد هذه الكلمة في القواميس وهي مشتقّة من الفعل *aviver* أي صقل، ولعلّها تدل على الصاقلة.

(16) توجد هذه الكلمة في القواميس **لاروس** (1972) مؤنّثاً لـ *barbotteur* وهو المتخبّط في الوحل، وترد مؤنثاً للدلالة عن نوع من ثياب الرضّع.

(17) لا توجد هذه الكلمة في القواميس ولعلها تدلّ على الذي يقوم بسدّ القارورات.

(18) ترد هذه الكلمة في القواميس في صيغة المؤنث بمعنى آلة الفتل أو البرم، ولعلها هنا تدلّ على صانعة النقانق.

(19) الواقع أن أكثر هذه الكلمات لم توردها القواميس باعتبارها مؤنثاً لصيغة مذكر موجودة.

ـ يمكن للسانيات أن تحوِّل بعضَ المهام اللغوية إلى أعمال آلية: فعندما تصبح الترجمة آليةً على الأقل جزئيّاً فإن عمل المتلفظ نفسه هو الذي تنجزه الآلة.

لن نعود إلى الجانب الأوّل الذي تناولناه لمناسبة التقنيات الوصفية، لكننا نودّ أن نعطي فكرة عن الوجه الثاني.

ماذا يعالَج آليّاً من المهام؟

ما هي المهام اللغوية القابلة بالقوة للمعالجة الآليّة؟

ـ يقتضي بعضها **التعرّف** فقط إلى الأشياء اللسانية؛ هذا هو شأن الآلية المسيّرة، فالآلة المسيّرة يجب ـ لتقوم بالمهمّة المطلوبة منها ـ أن تتعرّف إلى الأمر الموجّه إليها، ويكفي لذلك برنامج تعرّف صوتي: فإذا تعرّفت الآلة المسيّرة على صوتي ينفتح الباب استجابة لطلبي. ويتعقد المشكل إذا وجب أن يكون النظام ذا أصوات متعدّدة (أي مستقلاً عن الآمرين). في مستوى بدائي يكون الأمر مقنّناً، ويلزم لإثارة ردّ الفعل المرغوب فيه حضورُ لُفاظة أو تتابُع لُفاظات (عند الاقتضاء مع لُفاظات أخرى غير مفيدة)؛ وتكون الصّياغة حرّة عندما يكون الشكل محكمَ الإعداد، فيقوم البرنامج بتأويل ما يقال. وقد كان المنوال المرموق الذي أعدّه ت. وينوجراد (T. Winograd) في بداية السّبعينات قد مكّن الآلة المسيّرة أن تنقل عدداً محدوداً من الأشياء ذات الشكل الهندسي والألوان المختلفة بحسب تعليمات الإنسان المتكلم المؤوِّلة تأويلاً صحيحاً. لكن ما أن يتسع المجال حتى تتراكم الصعوبات.

ـ لا تقتضي مهامّ أخرى إلا **التّوليد**، هذا هو شأن المهمّة البسيطة التي تُنتج في مجال المكتبية وثيقةً (مثلاً رسالة) توافق ما هو منتظر انطلاقاً من مقياس يجب على المستعمل أن يحدّد قيمته.

ـ لكنّ أكثَر المهام التي أصبح إنجازُها ممكناً جزئياً تقتضي وظيفتيْ **التعرّف** و**التّوليد**.

هذا هو شأن الترجمة الآلية. في البداية حاولوا تجربة مناويل بسيطة «لفكّ الرّموز»؛ في أثناءَ الحرب العالمية الثانية يسّرت أولى الحاسبات الرقمية ـ أي أسلاف الحواسيب ـ حَلقَنَةَ الرّسائل المشفّرة تيسيراً مذهلاً؛ هكذا أمكن للرياضي و. ويفر (W. Weaver) أن يظنّ (1949) أنه يمكن أن يعالج الألسن بطرق مماثلة، فقال: «عندما أرى فصلاً بالرّوسية أقول لنفسي إنّه نصّ إنجليزي قُنّن برموز غريبة». ما أغربها مفاجأة! فهذا ما يفضي إلى أسوأ حالات الترجمة الحرفية، وسرعان ما تمّ التفطّن إلى أنّه يلزم، لغياب المطابقة لفظاً بلفظ بين اللسان الهدف واللسان المصدر، تمثيلُ النصّ المنطلق منه، ومن ثم توليد نصّ مكافئ معنوياً له في اللسان الهدف. وقد اتجهت البحوث في البداية نحو تمثيل في «لغة محوريّة» صالحة لكل الألسن، وهذا يعني أن تُبعث من جديد مسألة لسان كوني (بالمعنى الذي قصده لايبنتز) ولغة للفكْر كفيلة بالتمثيل الأمين لكلّ ما نقول. هذا أفضى مرّة أخرى إلى خيبة أمل لا مفرّ منها! هذا العمل مهدّد إمّا باختزالية لا تُحتمل، وإمّا بانفجار متصوّري مع ما يتّسم به من هشاشة. حديثاً اتّسمت المطامح بمزيد من الاتّزان، فقد اعتمدت المعالجة على أزواج الألسن، وهذا أقل استجابة للمطلوب، إذ يجب أن يوضع عدد من مناويل التعرّف ومناويل التوليد على قدر ما يوجد من أزواج الألسن، لكنّ لهذا التمشّي نجاعة أحسن؛ ومن ناحية أخرى فحسبَ ما يتوفّر في الوقت الحاضر من المهارة تقتصر الترجمة على نصوص تقنية عالمُها ـ ولو كان معقداً ـ مقصورٌ دلالياً على علاقات يمكن التّكهن بها، فالنشرات الجوية تترجم هكذا تقريباً بلا صعوبة.

تقتضي أيضاً مُساءَلة قواعد معطيات بلغة عادية وظيفة التعرف

والتوليد المزدوجة. في مستوى بسيط يمكن بالتأكيد الاقتصار على الاهتداء الآلي إلى اللّفاظات الدّالة بواسطة مَكنَز وفهرسة النصوص المخزّنة بفضل ذلك، ويمكن لإجراءات إحصائيّة أن تزيد التمشّي تهذيباً فتبرز ما في النص من اللّفاظ الموصوف بأنه «خصوصي». لكن كل هذه الإجراءات تتجاهل المعطى الأساسي، معطى العلاقات بين اللّفاظات ومن ثمّ معطى المعنى الذي تحمله النصوص. وللتوصل إلى «تلاخيص آلية» يضع التمثيل الدلالي وإنتاج نصوص مختصرة مشاكلَ شبيهة بمشاكل الترجمة الآلية.

وهذا هو شأن مهمّة بسيطة في الظاهر، هي مهمّة المِمْلاة القادرة على كتابة كلّ ما يُملى عليها. عليها أن تتعرّف إلى الكلمات والأبنية، ثم عليها أن تنتج التتابعة الموافقة للسلسلة الأصلية، وقد تم تقطيعها تقطيعاً صحيحاً، وتزويدُها بكلّ علامات المطابقة، وتجهيزُها بالتنقيط الذكي. ونحن أبعد ما يكون من ذلك.

الأداة المثلى هي مترجم آلي (في الهاتف مثلاً) يفهم ما يقوله المتكلم ويؤدّي شفوياً معناه في لسان السامع. . . عندما تقول شركة تجارية في إعلاناتها الإشهارية إنّ هذا قريب المنال، نميل إلى اعتقاد أن قولها من قبيل الدّعابة الخفية لا الغش.

التمشيات

حققت المحللات والمؤلفات الصّوتية تقدّماً باهراً، لكن اعتمادها في التطبيق محدود جدّاً لانعدام التحكم الكافي في المعطيات الدلالية. ولنا للكِتابي كذلك محللات صرْفية جيّدة، فالآلة تتعرّف إلى كل الكلمات المستعملة مع نسبة خطأ ضئيلة. لكنّ الأمر أقل بساطة ممّا يبدو؛ يجب حل مشاكل تجانس الرسم الشديد التواتر حتى يتسنى للصّيغ المصرّفة (صيغ تصريف الفعل وجموع الأسماء،

وصيغ تثنية الصّفات مفردة ومجموعة . . .) أن تتجه نحو اللّيّم الملائم (الفعل اللاّمصرَّف، والاسم المفرد، وصيغة التذكير والإفراد في الصّفة. . .) : *Nous les avions revues* ـ لقد رأيناهن من جديد؛ فـ *avions* هي هنا صيغة من فعل *avoir*[20]، وليست جمعاً لـ *avion* (طائرة)؛ و*revues* هي صيغة من فعل *revoir* (رأى ثانية)، وليس الاسم *revue* (مجلّة. . .)؛ في هذا المثال يمكن رفع الالتباس بفضل حضور [الضّمير] *nous* (نحن)[21].

Nous allions à la ferme intention de...; celle de... : «نوفق بين ما لنا من حازم النية ونية كذا. . .:» فالتعرّف هنا إلى فعل *allier* ـ وفّق (لا فعل *aller* ـ ذهب) أعسَرُ، ويجب على البرنامج الاهتداء إلى التركيب *allier qqc. à qqc.* ـ وفّق بين شيء وشيء، (في حين أنّ *nous allions à la ferme* (كنّا نذهب إلى الضّيعة. . . توجه أوّل الأمر إلى الفعل *aller* ـ ذهب)[22].

إنّ «التّلْيِيم» الصّحيح يقتضي إذن معالجة تركيبية. ويتمثّل دور المحللات التركيبية في الاهتداء إلى مجموعات الكلمات والوظائف التي تؤديها هذه المجموعات: كلمة *ferme* من *à la ferme intention* هي هنا نعت (وليست اسماً أو صيغة من فعل *fermer* ـ «أغلق»)،

---

(20) هو هنا فعل مساعد يدلّ على دلالة الصيغة الفعلية التي تأتي بعده على ماضٍ بعيد نسبياً.

(21) يتفاقم الالتباس في العربية من جرّاء غياب الشكل، ففي قولنا حَضَر كاتِبُ الرواية يمكن أن تلتبس **حضر** (إذا لم تكن مشكولة) **بحضَر** المفيدة للمدن والقرى، وكاتب بفعل كاتَبَ؛ لا شكّ هنا في أن الفعل يُعين على رفع التباس كاتب.

(22) مثال عربي لالتباس كلمة بأخرى لتجانسهما خطا (من دون شكل): جاد النبيذ وصْفا (الجاحظ): فعبارة «وصفا» ليست مصدراً وإنما هي مركبة من واو العطف وفعل صَفَا، والحال أن فعل جاد يمكن أن يوجّه الذهن إلى الوصف، أي جودة الوَصْف.

وتحتل المجموعةُ مكانَ *à qqc* في التركيب *allier qqc. à qqc.*، ويقتضي التحليل التعرّفَ الصّحيح لـ *intention* (نيّة) (متبوعَةً بالفعل اللامصرّف). كلّ هذا يقتضي خوارزمات مفصّلة (تتابعات منظّمة للمعالجة) يتيسّر أن نتصوّر أنّه يمكن أن تكون شديدة التعقيد.

لكن الصعوبات تتعدد إذا أراد المرءُ النفاذ إلى المعنى ذاته، والسؤال الأولي هو معرفة ما معنى «فهم اللّفيظ» من قِبل الآلة، أي الاهتداء إلى معناه. هناك جواب ممكن (هو من دون شكّ الجواب الأوجَه) يتمثل في أن الآلة تفهم جملةً إذا كانت قادرةً على استنتاج نتائجها الدلالية. لنفرِضْ الجملة *Pierre en veut à sa femme* (آخذ بطرس زوجته).

ـ يُشترَط بادئ ذي بدء رفع الالتباس فعبارة *sa femme* ملتبسة إحالياً. هل آخذ بطرس زوجته أم زوجة شخص آخر؟ إذا كان السياق السابق لا يشير إلى أي شخص آخر مذكر فالآلة يمكن أن تعتبر بالخلف (بحسب قاعدة تفترض أنها صريحة الصّياغة) أنّ *sa*[23] تحيل على الفاعل بطرس. هناك صعوبة دلالية أخرى: ليس هنا لفعل *vouloir* صلة بفكرة الإرادة ـ *volonté*، لكنّ له صلة بمعنى المؤاخذة أو اللّوم، وهذا بسبب الصّياغة *.en vouloir à qqn* (آخذ فلاناً على شيء. . .)[24]؛ يفيد *vouloir* بالقوة معاني عدّة (فهو تدالّي)، وعلى الآلة أن تكون قادرة على انتقاء المعنى الوجيه، والأمر هنا يسير، فتركيب الفعل يرفع الالتباس. والاسم *femme* (امرأة ـ زوجة) هو أيضاً تدالّي، ويفيد هنا الزّوجة، والاهتداء إلى هذا المعنى يسير هنا

---

(23) هي أداة الملكية المقابلة في العربية لضمير الغائب المفرد المتصل بالاسم: ه من زوجته.

(24) معنى المؤاخذة أو اللوم ناتج هنا عن حضور الضمير en قبل الفعل، ما يتسبب في الخروج عن المعنى الأصلي.

إذ تمثل أداة الملكية sa كاشفاً موثوقاً به(25).

ـ بعد رفْع كل الالتباسات يجب أن يقوم المرء بحساب استدلالي. إذا آخذ بطرس زوجته فمعنى ذلك أن بطرس متزوج، وأنه يلوم زوجته لأمر ما، وأنّ سلوك زوجته قابل في نظره للانتقاد. فكيْف يمكن للآلة ذاتِها أن تستنبط هذه النتائج؟

يمكن لها أن توفّق في القيام بذلك انطلاقاً من «صيغ قوْليّة» من نوع *qqn¹ en vouloir à qqn²* ـ بعضهم¹ آخذ بعضَهم² (غير «مشبعة»؛ تتضمن هذه الصّيغ «متغيّرات مثل qqn¹ ـ بعضهم¹، qqn² ـ بعضهم². . .) وتسجّل نتائج ذلك في قاموس:

Qqn¹ en vouloir à qqn² =>

Qqn¹ pense	*que qqn² a mal agi (envers qqn¹)*
بعضهم¹ آخذ بعضهم²	بعضهم¹ يظنّ أن بعضهم² أساء السلوك (إزاء بعضهم¹)
estime	*a fait qqc de repréhensible*
	يعتبر أتى أمراً مذموماً
a le sentiment	*a nui à qqn¹...*
	يشعر أضرّ ببعضهم. . .¹

(25) يمكن اعتماد المثال العربي ضرب زيد موعداً لزوجته وتحليله كما يلي: يشترط قبل كلّ شيء رفع الالتباسات فعبارة **زوجته** ملتبسة إحالياً، فهل ضرب زيد موعداً لزوجته أم لزوجة غيره؟ فإذا لم يرد في السياق السابق ذكر لأي شخص آخر يمكن للآلة أن تعتبر بالخُلف أنّ الضمير ه يعود على الفاعل زيد؛ هناك صعوبة دلالية أخرى، فليس لِ **ضرب** هنا صلة بمعنى الجَلد وإنما تفيد التحديد، وهذا بسبب معنى المفعول به موعد؛ تفيد **ضرب** بالقوة عدّة معاني عدّة (فهو تدالي) وعلى الآلة أن تكون قادرة على انتقاء المعنى الوجيه، فهذا يسير إذ يرفع المفعول به الالتِباس.

وعن طريق تكافؤات متعاقبة ينقلنا القاموس من تعريف إلى تعريف آخر:

Qqn¹ nuire à qqn² => qqn¹ faire du tort à qqn²

بعضهم¹ يلحق الأذى ببعضهم²   بعضهم¹ يضرّ ببعضهم²

=> qqn¹ faire du mal à qqn²

بعضهم¹ يسيء إلى بعضهم²

تعتمد الإجراءات حتماً على معايير شكلية (تهتدي إليها الآلة فعلاً) لرفع الالتباسات و«للحساب الاستدلالي» في آن واحد، ويضطلع القاموس بدور حاسم. فهو يُبرِز عديد الوصْلات المتكلّسة (مثل *en vouloir à* ـ آخذ) ويحدّدها واحدة واحدة، وتُحَلّ قضية الوحدات التدالية بهذه الطريقة في حوالى نصف الحالات. ويعيِّن القاموس كذلك التغيرات التدالية بحسب التركيب (*changer* ـ «غيّر» ليس لها المعنى نفسه في *changer de* ـ انتقل، تبدّل و*changer en* ـ تحوّل)[(26)]، وبحسب الموقع (*une ancienne abbaye* ـ دير غابر، لم يبق ديراً. *une abbaye ancienne* ـ دير قديم، هو ما زال ديراً منذ زمن بعيد)[(27)]، وبحسب «التفريع المقولي» (*femme* ـ امرأة اسم «مفرَّع مقولياً» لِـ *humain* ـ إنساني؛ جبن اسم «مفرع مقولياً» *non animé, chose* ـ لا حي، شيء؛ *aimer une femme* «avoir de l'amour pour une femme» ـ أحبّ امرأة «كنَّ حبّاً لامرأة» لا تفيد المعنى نفسه المستفاد من *aimer le fromage* ـ أحبّ الجبن «استحسن طعْم الجبن»).

---

(26) في العربية مثلاً ليس لضرب على وضرب في المعنى نفسه.

(27) الصّفة نفسها *ancienne* يتغيّر معناها بحسب موقعها من الموصوف، ففي المثال الأوّل سبقت الموصوف وأفادت بأنه أمر كان قديماً وزال الآن، وفي المثال الثاني جاءت بعده فدلت فقط أن الموصوف قديم وأنه ما زال قائماً.

هذا ما يقدم فكرة غير واضحة تمام الوضوح عن الإجراءات.
وسرعان ما تصبح هذه الإجراءات معقّدة. والأمرُ المؤكّد أنّ في هذا مجالاً شاسعاً للبحث والتجريب، لقد تبيّن أن المناويل التي تمّ تصوّرها في البداية (بخاصة من قبل الرّياضيين والإعلاميين) شديدة الاختزال وكذلك حتى ما بادر إليه ر. شانك (R. Schank) في السبعينات من تقنيات التحليل البالغة الفائدة والمسماة «متصوّرية»: فـ «الرسوم المتصورية» التي لها بالتأكيد كفاءة هي مع ذلك أبعد ما تكون عن ثراء اللغة العادية التي تأخذ بالاعتبار حتى تركيبيَّتها. ولعل مستقبل البحث يكمن في مناويل متكوّنة من خليط من العناصر تَستَغِل في تمشٍّ لولبيّ (حيث يتسنّى في كلّ وقت إمكانية الرّجوع إلى الوراء) المكتسباتِ الحقيقيةَ للبحث اللساني. إنّ الأنحاء والقواميس توفّر أكداساً هائلة من المعلومات: والمُشكل لم يعد فقط في تنميتها وجعلها أكثر ملاءَمةً، ولكن في إعادة تهيئتها وتنظيمها تنظيماً تامّ الجلاء مّا به تصبح قابلة للاستعمال من قبل الآلة. وهذا أُفق من الآفاق الأكثر إثارة للاهتمام في لسانيات اليوم.

الخاتمة

إنّ الصّورة العُلوميّة التي رسمناها هي بداهةً صورة مُجمَلة إلى حدّ بعيد، فكيف يمكن أن نقدّم في مثل هذا العدد القليل من الصّفحات فكرةً دقيقة عن اختصاص في مثل هذا التعقد؟ قد قلّصنا المجال عمْداً. لم نقل شيئاً ـ أو نكاد ـ عن تضافر الاختصاصات الذي تساهم فيه اللسانيات: فقد كان يمكن للسانيات النفسية، واللسانيات الاجتماعية، واللسانيات العَصَبية، وبخاصّة علم الأصوات وجهازه المعقّد أن تتطلّب عدداً من الأبواب المفصّلة مناسباً لعددها. لقد أعوَزَنا، للاستجابة إلى ذلك، الفضاءُ وأكثر من الفضاء الكفاءة. ومن ناحية أخرى فقد تغاضينا عمْداً عن المنظور التاريخي. فمن الطبيعي ألاّ يُفهم الوضعُ الراهن للمجال العلميّ المعنيّ كاملَ الفهم إلاّ من خلال ماضيه، فلا يكتسب هذا المفهومُ أو ذاك مدلولَهَ الحقيقي إلاّ إذا عُرِفت الظروف التي تسببت في بروزه. بل إنّنا عدلنا عن تقديم اللسانيات من خلال تنوّع تياراتها، متجاهلين بذلك تعقد المناقشات النظرية التي تحركها.

لكن لعل لكل هذه الحدود على الرغم من كلّ شيء مزيّة علّها آتية من حافز أعمق من مجرّد الحرص على التّبسيط. فالعِلْم يتمثل

موضوعه في مظهر من مظاهر الواقع: ويهدف إلى هيكلته وإلى وصفه، وتنظيره؛ فتاريخُه الخاصّ والاختلافات التي تخترقه تفسِّر بالتأكيد المجالَ العلميّ المعنيّ بما هو مجال علميّ، لكنها لا تفسّر موضوعَه بصفة مباشرة! إنّ التّمشي الانعكاسي الذي ينظر فيه العِلمُ إلى ذاته من خلال تطوُّر مناهجه لا ينفذ ـ مهما كان ضرورياً ـ إلى الموضوع إلاّ بصفة غير مباشرة وذلك بفحص التقنيات المؤدّية إليه. ولعلّ العلوم الإنسانية تنزع أكثر مما يجب إلى النظرة الانعكاسية. يمكن أن يعتقد المرءُ أنّ نضج مجال علميّ ما يُعرَف بوحدته النسبية ـ في المناهج والنتائج والاختيارات النظرية التي يستند إليها؛ ولعلّ اللسانيات نضجت نضجاً كافياً يسمح، كما هو الشأن في العلوم المسماة «صلبة»، بتقديم مشهد منتظم من دون أن تستعرَض حتماً مراحلُ تاريخه ومن دون أن يُعرض تنوّع اختياراته، وهذا هو الرّهان الذي حاولناه.

ومقابلَ ذلك فقد خصّصنا مكاناً لآفاق المستقبل. يستحيل تأكيداً التكهّنُ بأيّ فكرة من الأفكار الجديدة التي يمكن بفضل إشراقة مفاجئة أن تغيّر مجرى الأشياء. وأقصى ما يمكن ذكرُه الاتجاهات التي يُحتمل بعضَ الاحتمال أن تكون للسانيات لأنّها واعدة ولأنّ الظروف ملائمةٌ لذلك.

في العَشريّات القادمة ستتكاثر المعطيات تكاثراً هائلاً في الميادين كلها، وبالنسبة إلى عدد كبير من الألسن (لا يكاد يحظى عدد كبير من الألسن إلاّ بوصف مجمل). ولعل التقدّم الحقيقي يكمن في تحسين التوازن بين دراسات الموضوع الواحد والأبحاث الجامعة، فالمجهودات مشتتة في أكثر ما يلزم من الحالات، بينما نفتقر إلى الأعمال التأليفية، ويجب أن يمارَس بنجاعة متزايدة ما تقوم به مؤسّسات البحث من عمل تعديلي.

من الأكيد أن المستقبل هو لفائدة معالجة إعلاميّة لكل مكونات هذه الثروة، وإخضاعها لتنظيم تأليفي، وتنويع المنافذ. لقد تحققت نتائجُ جيدةٌ في مجال القواعد النّصية، وبدرجة أقل في مجال معالجة القاموسيّة إعلاميّاً. لكنّ مجال المهامّ شاسع جدّاً، وقد يعين كثيراً على تسهيل إنجازه ضربٌ من توحيد المصطلحات، وهذا مشكل بالغُ الدقّة، لكنه بحاجة إلى المعالجة. ويمكن الاعتقادُ بأنّ البحوث المتعدّدة الاختصاصات تسمح بفتح أبواب من التقدم. يمكن للسانيات العصبية أن تكون بفضل التصوير الطّبي من أغنى الميادين المستقبلية، ويمكن لبعض المشاكل اللسانية أن تجد فيه ما يوفر لها إنارة جديدة.

لنذكر أخيراً مجالَ اللسانيات الآلية الشاسع الذي بدأت تُرسم شيئاً فشيئاً معالمُه، فآفاقه متعدّدة ـ لا التطبيقية منها فحسب ـ لأنّ الاختيارات التي يجب توخّيها تبعثُ بشدّة على إعادةِ النظر في مناهج الوصف وأسسِها النظرية. وكلُّ المعطيات تبعثُ على الاعتقاد بأنّه سيترتّب عن هذا تجديدٌ عميقٌ للسانيات المستقبل.

ملحق

اللسانيات «الأسلوبية»: من اللسانيات إلى الأدب

أمكن أن يوجَّه اللّوم عن صواب إلى الطبعة الأولى لهذا الكتيب لتجاهله بُعدَ اللغة «الشعري» ـ وإن آثرتَ تعبيراً آخر بعدها «الأدبي». وإذا كانت للغة في تداولها اليومي كل مظاهر الابتذال فإنه يوجد أيضاً ـ ومن ينكر ذلك ـ استعمال يكون لطريقة التعبير فيه عن الأشياء أهمية تساوي الأشياء التي تقال إن لم تتجاوزها بكثير، فـ «الشكل» و«المضمون» يتضامنان فيها: ويسعى المرء إذ ذاك إلى أن يبلغ ضرباً من الكمال الشكلي. هذا هو بداهةً شأنُ الكتّاب والشعراء. وهذا يصدُق أيضاً على المستعمل العادي الذي يحسّ ولو إحساساً غامضاً بما يتّسم به قولُه الشفاهي أو الكتابي بعدم التوفيق أو بالتوفيق النسبي، فنحن نشعر قليلاً أو كثيراً بالجمالية اللغوية، وقراءتنا لكبار الكتاب تبعث في النفس الشعورَ بالكمال؛ وأحياناً تقترن خطاباتنا ذاتُها بِرضىً هو مصدرٌ للَذة الكتابة، ولا يمكن للسانيات ألاّ تكترث ببعد على هذا المقدار من القيمة التأسيسية. ويمثل «الأسلوب» حتماً موضوعاً من مواضيع النظر فيه.

من الأكيد أنّه ليس أيسرَ المواضيع؛ فالصعوبة هي قبل كل شيء في أن نقول ما هو الأسلوب وأن نحدّد مكوّناته(*)؛ وهي بعد ذلك في تحديد ما يعتبر دراسة علمية للأسلوب(**)، فبتدرّج حفيّ يترك العلم مكانه للفنّ: إلى أي حدّ تذهب اللسانيات وهي تطمح أن تكون علماً في تناول ما يخص الأسلوبَ؟

«الأسلوب» ومكوّناته

«الأسلوب» بحسب ما يقوله **قاموس** ريشليه (Richelet) (1680) «هو طريقة كلّ شخص في التعبير: لذا يوجد من الأساليب بقدر ما يوجد من الأشخاص الذين يكتبون». إنّ الاختلافَ في «طرق التعبير»، أو الاختلاف في الأسلوب راجع إلى ثلاثة عوامل على الأقلّ:

- إلى ما تتسم به اللغة من «مرونة» عجيبة تمكن من أن يقال الشيء نفسه بأشكال متنوّعة تنوعاً لا حدّ له؛

- إلى «إبداعية» اللغة التي تمكننا انطلاقاً من أشكال متوافرة لدينا من ابتكار استعمالات على جانب قليل أو كثير من الطرافة، منها على سبيل المثال «صور» جديدة، أو تأليف بين الكلمات غير مألوف؛

- إلى «موسيقية» اللغة التي ينتج منها اقتران الاستعمال الأدبي للغة بآثار إيقاعية ورنات بل بنوع من التناغم.

(*) انظر: *Actes du colloque international. Qu'est-ce-que le style?*, linguistique nouvelle, sous la dir. de Georges Molinié et Pierre Cahné (Paris: Presses universitaires de France, 1994), et Gérald Antoine, *Vis-à-vis ou le double regard critique*, écriture; ISSN 0222-1179 (Paris: PUF, 1982).

(**) انظر في ما يخص الأسلوبية بصفة عامة: Georges Molinié, *La Stylistique*, que sais-je?; 646 bis (Paris: Presses universitaires de France, 1989), وللمؤلف نفسه الكتاب الذي ذكرناه في قائمتنا للمراجع.

الأسلوب والمرونة

إنّ إتقان لسان من الألسن معناه القدرة على التعبير عن الشيء الواحد بأشكال متنوعة. انظر إلى إعلان إشهاري كالتالي: إن كنتَ لا تريد أن تربح مالاً كثيراً فاجتنب بخاصّة دخول [صناعة] البناء. إنّ مثل هذا اللفيظ قابل لعدد كبير من التغييرات: تغييرات مَوْضعية: إذا أنتم / إذا المرء / إذا أنت / إذا بعضهم . . . ؛ إذا لم تريدوا . . . / إذا لم تبتغوا . . . / إذا لم تروموا . . . / إذا لم يكن لديكم رغبة في . . . / إذا لم يكن شغلكم الشاغل . . . / إذا كنتم لا تكترثون . . . / إذا كنتم لا تهتمون بـ . . . ؛ . . . ألاّ تكسبوا مالاً كثيراً . . . / ألا تكسبوا قوتكم بيسر . . . / ألا تتقاضوا أجراً مرضياً . . . / ألا تعطوا مكافأة مرضية . . . ؛ بخاصّة / قبل كلّ شيء (يمكن أيضاً أن تُحذف هذه العبارة من دون أثر يذكر)؛ اجتنبوا ولوج . . . / لا تختاروا دخول . . . / لا تؤثروا دخول . . . / تخلّوا عن . . . ؛ البناء . . . / مهن البناء . . . ؛ أضِفْ إلى هذا التغييرات التي تطرأ على تركيبية الجملة: تريد ألا تربح كثيراً من المال؟ اجتنب بخاصّة . . . / إذا كان المرء لا يريد . . . فعليه ألاّ يدخل بخاصّة . . . / لا تدخل صناعة البناء إذا . . . ؛ ويمكن قلب المبنى المنطقي للكلام أصلاً: تريد أن تربح مالاً كثيراً؟ أدخل في . . . وَلّفْ بين كلّ هذه العبارات تفزْ بمئات الإمكانات ـ وهذا من دون اعتبار تغييرات من نوع آخر، أي تغييرات مستوى اللسان (من البديهي أنّها هنا أجنبية عن نيّة صاحب الإشهار . . .)[1] «إذا كان ما يِهِمِّكش

---

(1) ذكر المؤلف هنا إمكانيتين: *Si ça ne te dit rien d'avoir du pognon, surtout ...;*
Si tu te fiches de gagner plein de ronds ..

ومن البديهي أنه يعسر أن نجد في الفصحى صيغاً تنتمي إلى مثل هذا المستوى وصالحة لترجمة هذه الأمثلة التي لا يمكن أن يوجد مقابلها إلا في اللهجات المحلية؛ لذا أخذنا أمثلة من الدّارجة التونسية قريبة المعنى من الأمثلة الفرنسيّة.

تَدْبِير الكْعابْ رُدْ بالِكْ . . . ، إِذَا كانْ تِتْمَلّح من رِبْح بَرْشَا حْنَيْنَات . . . »؛ ومن اليسير أن نتصوّر أنّ الإمكانات تتزايد تزايداً عجيباً، في حين أنّ الفكرة في كلّ هذا فكرة واحدة مع استثناءات ضئيلة.

إن هذه المرونة وهذه التغييرات الصَّوْغية تُمثلان مَنبعاً لا ينفد للتنويعات الأسلوبية؛ ويضفي الاختيار، المنتظم قليلاً أو كثيراً في غضون النص لشكل من دون غيره، أو على عكس ذلك البحث الدقيق إن قليلاً أو كثيراً عن التنوع، على المقول طابعاً يجسّم أسلوبه، فالأسلوب هو قبل كل شيء أمر راجع إلى الاختيار؛ وهو اختيار قد يبلغ من ناحية أخرى حدّ العادة المُفرِطة (Le tic). إن التعديلات الفردية البارزة قليلاً أو كثيراً تجعل المحاكاة مُمكنة؛ ويكمن للمرء أن يكتب على طريقة فُلان كتابةً متفاوتة التوفيق. لكن الأمر الأساسي يكمن في مجال آخر. . .، فثراء الإمكانات والاختيارات التي يمكن تصوّرها هي شرط الأسلوب.

الأسلوب والإبداعيّة

إن النشاط اللغوي حتى في أبسط مظاهره هو دائماً مجال للإبداعية، فالجُمل التي ننتجها مهما كانت مُبتذَلة لم يتم من قبل إنتاجها أبداً في هذا الشكل بالذات. من الأكيد أن خطابنا مشحون بأنواع متنوعة من العبارات الجاهزة وترد فيه حتماً صيغ تقليدية (كيف حالك؟ مساء الخير؛ ما أشدّ البرد!. . .). لكن ما أن يتوسّع الخطاب ولو بمقدار قليل حتى يصبحَ التوليد غيرَ مألوف؛ لكن هذه الإبداعية لا تكفي لتوليد أسلوبٍ، لأنه يمكن أن تكون الصّيغ اللغوية الكامنة تحتها مبتذلة إلى أقصى حدّ.

إنّ الإبداعية الأسلوبية هي من جنس آخر، فهي تتمثل في الانطلاق من أشكال تبدو لا تتغيّر فتُنتزَع منها آثار لم يتفطن إليها من

قبل. هذا هو شأن الاستعارة الملقبة «بالحية». من الأكيد أن اللغة تحمل في ذاتها صيغاً استعارية متكلسة، فعندما تقول في شخص: هو شُعلة فأنت تستعمل استعارة جاهزة (يقال شعلة [ذكاء] وشعلة [نشاط])[2]؛ توفّر اللغة للتعبير عن الأفكار المجردة أنواعاً متنوعة من الاستعارات المقَوْلبة حيث يحوَّل المعنى الأصلي القريب عامة من المحسوسات لفائدة المعنى المجرد؛ وليس ما نقيمه من توازيات بين وضعيات أو أحداث توازياتٍ هندسيّةً. ليست ثمار نشاط من الأنشطة ثمار أشجار، ولا يمكن الخلط بين حياة المؤسسة وحياة الكائن الحي، وكل هذا تتوقعه محتويات اللغة، لكنّ الآلية الاستعارية هي آلية مفتوحة تجعل من اللغة من جملة ما تجعله مجالاً عجيباً للاختراعية.

انظر إلى هذا النص لبول فاليري (Paul Valéry) التنوعات II (*Variétés II*) الذي يتناول جملة بوسوّيه (Bossuet) ـ ذات الجُمل المتسلسلة ـ ينطلق بوسوّية من الصمت انطلاقاً قويّاً، فيبعث شيئاً فشيئاً الحياةَ في جملته التي ينفُخ في روحها، ويرفعها وينسقها فتشيَد في شكل قبة، وتعتمد جُملاً فرعية جانبية موزعة توزيعاً عجيباً حول اللحظة الراهنة، وتعلن عن ذاتها، وتدفع أجزاءَها الاعتراضية وتذلّلُها لتبلغ أخيراً مفتاح عقدها، وتنحدر بعد جمّ عجيب من الجمل التابعة والتوازُن إلى النهاية المحتومة وبلوغها مدى قواها. شُبّهت الجملة في تسلسلها بحركة معمارية: تشيَّد في شكل قبة، تعتمد جُمَيْلات جانبية موزعة حول؛ تذلّل، تبلغ مفتاح عقدها . . . كل هذه أشكال تنطبق متجاوزة معانيها العادية انطباقاً قوياً على التنسيق الخَطابي؛ تساهم

(2) النص الفرنسي هو: Dire de quelqu'un qu'il n'est pas une lumière, c'est utiliser une métaphore toute faite (*une lumière* «quelqu'un de très intelligent, de très doué»).

مثلُ هذه الصور وإصابتها المرمى وفي آن واحد التناسُق العجيب في «الاستعارة الترشيحية» (Métaphore filée) مساهمةً قوية في طرافة الأسلوب.

ليست الاستعارةُ على الرغم من تبوّئها مكاناً مرموقاً محلَّ الإبداعية الأسلوبية الوحيد. فكل الصور التي أحصتها البلاغة التقليدية منذ أرسطو قابلة لهذه الاختراعية التي يستمد منها الأسلوب ثراءه. ومن اليسير أن نذكُر الكناية، أو الكناية المزدوجة (Synecdoque)، أو مجاز الشغوري (Catachrèse)، أو المغالاة (Hyperbole)، أو التلطيف (Euphémisme)، أو التعبير المركّب (Périphrase)، أو التغييب (Ellipse). . . يقترن النشاط اللغوي في كلّ المجالات باختراعية تمثل منبعاً حاسماً للثراء الأسلوبي؛ ينبغي ألا نتصور أن هذه الاختراعية خاصّة بالأدب وحده، يدل على عكس ذلك فيض الصور في اللهجات الأرغوية؛ وانظر كذلك إلى تدفق التلاعب بالألفاظ، أفليست أيضاً سِمَة لأسلوب معيّن؟ ألا يوجد «أسلوب» يُعتبَر أسلوب صحيفة *Le Canard enchaîné* (صحيفة البطة المغلولة، بالمعنى المجازي). والأمر الأكيد أنّ الإبداعية اللغوية تساهم مساهمة عريضة في بروز الأسلوب.

الأسلوب والموسيقية

لنعُد إلى جُملة فاليري المذكورة؛ الفكرة المعتمدة فيها أنّ تسلسل الجملة عند بوسوّيه ينشأ من نَفَس هائل تمتدّ الجملة بمفعوله وتزداد اتساعاً شيئاً فشيئاً بحسب هندسة معمارية ذات تعقيد عجيب تتشابك فيه الجُمل الفرعية لتبلغ قمّة تنحدر منها بعد ذلك إلى أن تُستنفَذ تدريجياً. وأبرز ما في الأمر أن جُملة فاليري ذاتها تمثل جملة متسلسلة رائعة ذات بنية تركيبية غير منتظَرة (حيث تنشأ القمة من

تركيب موصولي شاسع يفضي بعد ذلك إلى نهاية غريبة متمثلة في جُمل متصدَّرة بلام التعليل: لتبلغ أخيراً مفتاح عقدها، وتنحدر بعد. . .) يُنشِئ كلّ هذا إيقاعاً فاخِراً. يكفي هذا لنقول إن الإيقاع عنصرٌ حاسم في الأسلوب.

إنّ تعاقب الجُمل المتسلسلة والجُمل القصيرة، وانقطاع الإيقاع، وعودة الوصلات المتجاوبة، وبكلمة وجيزة البنية الإيقاعية هي ما تقرّب الأسلوبَ من التقنيات الموسيقية. صحيحٌ أنّ الألسن ذاتها تفرض إيقاعاً. هكذا تتسم العربية بالنزعَة الواضحة إلى وضع المركبات الطويلة في آخر الجملة، فتفضل الجملة التالية: أعيد انتخابه في السنة الماضية شيخاً لمقاطعة مورث وموزال (Meurthe-et-Moselle) على جملة متعثرة كالآتية: أعيد انتخابه في السنة الماضية شيخاً حيث كانت شيخاً ـ بالمقارنة مع السنة الماضية ـ أقصر من أن توضع في آخر الجملة (الأحرى أن يُقال: أعيد انتخابه شيخاً في السنة الماضية، أو جواباً عن سؤال مختلف بعض الشيء: في السنة الماضية أعيد انتخابه شيخاً)[3]. لكن الإمكانات الإيقاعية التي تبقى مفتوحة في اللغة تسمح بتشكلات متنوعة أقصى التنوع؛ ودورُها كبير في بروز الأسلوب.

على أن الموسيقية اللغوية لا تقتصر على الإيقاع، فالوقع الصوتي يحتل مكانة مهمة خاصّة في الشّعر كما يعلم الجميع: «عيد بأيّ حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تسهيد؟»[4] فبعودة نغمات متماثلة (تكرار ياء المدّ، الجناس بين عيد وعدت) ينشئ

---

(3) تنزع العربية إلى تأخير الأجزاء الطويلة إلى آخر الجملة. وترجمتنا للمثال الفرنسي تدلّ على ذلك.

(4) المثال الفرنسي هو: *Il pleut dans mon cœur comme il pleut sur la ville. Quelle est cette langueur qui pénètre mon cœur.*

المتنبي أثراً أسلوبياً يوحي بالتحسّر. لبعض الكتّاب إحساس بقوّة إيحاء الأصوات أكثر من غيرهم (مثلاً شاتوبريان) (Chateaubriand)[5]. لكن للسّمة الموسيقية مكانة في كلّ شيء، ويجتنب المتكلم التتابُع الحَرَكي (وصلْت هنا أمس: التمس المعذرة لهذا التتابع الفظيع، بول - لوي كوريي (Paul - Louis Courier)، **مكنز اللّسان الفرنسي**)[6]، كما يخشى من تتابع صوامت متماثلة (باع علي علبته)[7]، ويبحث المرء تلقائياً ألذ التتابعات وقعاً في السمع، ويكون التوفيق في ذلك بارزاً أحياناً.

يوجد مظهر آخر من التقارب مع الموسيقى هو التناغُم، أكيد أن التناغُم ليس هنا هو ما يستفاد بالضبط من المصطلح الموسيقي، ففي الإنتاجات اللغوية لا تتراكَب أنواع الوقع الصوتي وإنما تتعاقب فقط؛ فالتناغُم المعني هو من صنف آخر، فللكلمات فعلاً تلك الخاصية المتمثلة في أنّ أنواعاً متنوعة من الروابط تجمع بينها. هكذا فكلمة كآبة توجّه الفكرَ إلى كلمات متقاربة معنوياً مثل حزن وفتور وتراخ وإرهاق وقلق والأسى[8]، وتولّد تأليفات مألوفة قليلاً أو كثيراً

يعلق المؤلف على هذين البيتين من الشعر بقوله ما ترجمته: بعودة نغمات متماثلة يحدث فيرلان (Verlaine) أثراً أسلوبياً يوحي بكآبة غريبة (mélancolie)، ونترجم البيتين كما يلي وإن كان يعسر أن يتوفر في الترجمة الوقع الصّوتي نفسه: تمطر السماء في قلبي كما تمطر على المدينة. ما هذا الفتور الكئيب الذي يتسرّب إلى قلبي.

(5) شاتوبريان (1768-1848)، كاتب فرنسي عرف بنثره الشعري ويعتبر ممن كان له أثر كبير في الحركة الرومانسية.

(6) *J'arrivai ici hier: voilà un affreux hiatus dont je vous demande pardon*, s.v. hiatus.

(7) المثال الفرنسي *sans sa cession*.

(8) الكلمة الفرنسية هي *langueur* والكلمات القريبة منها في المثال هي: *abattement; alanguissement; épuisement; indolence; mélancolie; tristesse; nonchalence.*

(أضناه الحزن، اعتراه فتور، أصابه ارهاق . . .)[9]؛ وتوحي كلمة كآبة بكلمات ذات وقع صوتي متماثل (كآبة، صبابة . . .)[10]، وتلتقي بالمشتقات وبالكلمات الراجعة إلى الأصل نفسه (كئيب؛ مكتئب . . .)[11]. هكذا تتولد تناغُمات ترنّ في الفكر كما ترنّ التناغمات الموسيقية في الأذن، وهذا أساس من أسس الكتابة الشعرية وما تثيره من تعدّد التأويلات، وبصفة أعمّ فهو من مقوّمات الأسلوب وبالتأكيد أدقها.

الاختيار والإبداعية والموسيقية تلك هي أبرز ما يُرى من مكونات الأسلوب. لا شكّ في أنه توجد مكونات أخرى ولكنّ الإحاطة بها أعسر.

جوانب الأسلوبية

الأسلوبية هي دراسة الأسلوب، لكن المشكل يكمن في معرفة ماذا يمكن أن تكون مشروعيتها العلمية. فبعضهم يقرّ مشروعيتها، وبعضهم يُنكرها، ويبدو أنها ترجع إلى ثلاثة مستويات مختلفة نفصِل بعضها عن بعض لتيسير العرض «أسلوبية الطّرُق»، و«أسلوبية الأجناس» و«أسلوبية النصوص».

أسلوبية الطرُق

تتخذ الأسلوبية لنفسها قبل كلّ شيء مهمّة إحصاء الطرق المولدة للأسلوب وتحليلها، وهذا هو أساساً ما كنا سمّيناه سابقاً بـ «الإبداعية». فـ«الاختيارات» تُجرى على معطيات عادية من اللغة،

---

(9) الأمثلة الفرنسية هي: *tomber en langueur; se consumer de langueur; une maladie de langueur* (سقط في الكآبة ـ استنفدته الكآبة ـ مرض الكآبة).

(10) الأمثلة الفرنسية هي: *cœur, douceur* (قلب ـ عذوبة).

(11) الأمثلة الفرنسية هي: *langueur, langoureux* (كآبة ـ كئيب).

وأقصى ما توليه الأسلوبية من العناية هي ظواهر الدلالة الحافة، ومستويات اللسان، أي مقابَلات من قبيل نُقود/ فْلوسْ/ حْنَيْنَاتْ/ كُعَبْ. . .[12]، وهي كلمات يُحدث استعمالها انزياحات أسلوبية موسومة غاية الوسم. أما الصبغة الموسيقية المتنوعة بقدر تنوع النصوص فهي لا تقبل الخضوع إلا جزئياً لمحاولات التنميط.

تستغل «الإبداعية» «الصورَ»، وقد حظيت هذه بالوصف بحسب سنّة وصفية طويلة المدى. ويميز الأسلوبيون المحدثون عادة بين «صور البنى الصغيرة» و«صور البنى الكبيرة»، فالأولى يمكن تعيين موْضعها في مقطع محدّد من النصّ، بينما لا يمكن ذلك للثانية. هكذا فأساليب الكلمة وبخاصّة الاستعارة (نعني بها الاستعارة الحيّة) أو الصورة هي من قبيل «البنى الصغيرة»؛ ففي النص المقتطف من كلام فاليري المذكور سابقاً تنطبق الجملة تشيّد في شكل قبّة ـ حيث تبعث كلمة قبة على التفكير في كاتدرائية ـ انطباقاً مجازياً على إنتاج لغوي، وتُبنى الصورة بواسطة كلمة محدّدة؛ ومن قبيل «البنى الصغيرة» أيضاً الصورة التركيبية مثل قلب الترتيب المنتظر (Hyperbate)، أو إحداث انفصام في التركيب (Anacoluthe)، أو التقاطع (Chiasme)، (حيث ينتظر حدوث توازٍ بينها)، وكذلك شأن صور التكرار. خلافاً لذلك فمن قبيل «البنى الكبيرة» صور مثل المخاطبة الوهميّة (التوجه إلى مخاطَب وهمي) (Allocution)، وإنطاق الغائب (Prosopopée) (الميّت، أو الغائب، أو كيان ما) أو السخرية أو ازدواج المعنى (Hypotypose) (حيث يوحي المتكلم بشبكة تأويل مزدوجة) ـ وقد توفّر حول كل هذا عدد هائل من

---

(12) الكلمات المعنيّة هي: *argent / fric / pognon / thune...* تعني كلّ هذه الكلمات النقود، وتمثل الأولى المستوى «الرفيع» بينما تنتمي الأخرى إلى لسان سوقيّ. وقد عوضناها بكلمات من الدّارجة التونسيّة.

الأدبيات، وتمثل الاستعارة وحدها موضوعَ بحوث متنوعة حول آلياتها، ومحاولات تطبيقها، وميْل الكُتّاب إلى أخذها من هذا المنبع أو ذاك، أو إلى هذا الشكل الاستعاري أو ذاك. تتسم «أسلوبية الطّرُق»، المعتمِدة على سُنّة «بلاغية» و«شعرية» طويلة المدى تم تحديثها تحديثاً عميقاً، بِسِمة علمية لا جدل فيها.

أسلوبية الأجناس

لا يعبّر المرء بالطريقة نفسها عند كتابة رسالة إلى أحد أقربائه، أو رسالة إدارية، أو عَقد موثق، أو بحث ماجستير، أو دراسة، أو رواية، أو قصيد، فلكل جنس طريقته في الكتابة. وتتخذ الأسلوبية مهمّةَ وصف ماهية أسلوب جنس من الأجناس وتحليله[*].

إن طريقة الكتابة أو التكلم تختلف قبل كل شيء باختلاف وضعيّة التلفظ، فالعبارة تختلف اختلافاً تامّاً بحسب كونها كتابية أو شفاهية، وفي الشفاهي بحسب التوجه أو عدمه إلى مخاطَب قادر على ردّ الفعل، وذلك بإحداث تفاعل يقتضي صيغاً لسانية ملائمة، وبحسب وجود طرف آخر مُصْغ (مثال الحوارات في المسرح)، وبحسب أن يكتب المرء إلى شخص [معيّن]، أو إلى مرسَل إليه له عنه صورة غامضة قليلاً أو كثيراً، أو بحسب بقاء ما يكتب على حاله أو على عكس ذلك تمثيله لنص عرض شفاهي ينوي تقديمه (على سبيل المثال نصّ صحفي في الإذاعة، أو التلفزة)، أو يضبط كتابة ما عُرض شفويّاً، وبقدر ما تختلف الوضعيات تختلف طرق التعبير.

(*) انظر حول أسلوبية الأجناس في **مفاهيم الأسلوبية العامة** لبيار لارتوما: Pierre Larthomas, *Notions de stylistique générale*, linguistique nouvelle; ISSN 0292-4226 (Paris: Presses universitaires de France, 1998),

الأسلوبية في نظر بيار لارتوما هي قبل كلّ شيء أسلوبية الأجناس.

تتغيّر طرق الكتابة كذلك مع تغيّر درجة «الأدبية»، أي طبقاً لما يحدده النص لنفسه من مرام جمالية متفاوتة الوضوح، ويمثل النص الشعري أقصى درجات ذلك(*)، حيث تمحي المرجعية إلى العالم لفائدة الصبغة الموسيقية وما للكلمات من طاقة إيحائية، ومن نتائج ذلك إقصاءُ الكلمات الخالية من رجْع الصدى (على سبيل المثال الكلمات التقنية)، وتتآلف فيه الكلمات «الشعرية» المهتزة إيحاءً قصد تحقيق كمال شكلي وإثارة عواطف جماليةٍ. ونلاحظ في هذا الصدد أننا لا نتكلم عن «أسلوب» قصيد، وذلك من دون شكّ لأن القصيد ذاته أسلوب، وأنه إذا كان موفقاً فهو ما يجب أن يكُونه من دون انزياح ممكنٍ باعتباره أثراً فنياً منغلقاً على نفسه، وغنيّاً بكل التّأويلات الممكن إسنادُها إليه. و«الأدبيّة» وما ينجرّ عنها من طُرق الكتابة هي أيضاً رهينةُ الضغوط الشكلية التي يخضع لها الجنس المعني: ضغوط البيت، وضغوط أشكال متكلّسة قليلاً أو كثيراً (مثال ذلك الموشّح)[13]، ضغوط خاصّة بالأشكال الموجَزة (على سبيل المثال: المَثل أو الحديث المأثور)، وضغوط لغة المسرح . . .

يُضافُ إلى ذلك تغيّرُ الغاية والمرمى، فلا يوجد أي شبه في التعبير بحسب ما يتعلّق به الأمر من الإقناع أو الحِجاج أو المرافعة عن قضيّة، أو وصف واقع حقيقي، أو خيالي، أو كذلك سرد حادثة واقعية، أو وهمية، فما يُعتمد فيها من أشكال لغوية ليست واحدة،

(*) انظر **مدخل إلى تحليل الشّعر** لجان مولينو (Jean Molino) وجويل غارد - تمين (Joëlle Gardes-Temine) في: Jean Molino et Joëlle Gardes-Tamine, *Introduction à l'analyse linguistique de la poesie* (Paris: Presses universitaires de France, 1982-1988).

(13) المثال الذي يذكره المؤلف هو le sonnet، وهو قصيد متكوّن من 14 بيتاً مقسمة إلى قسمين: فقرتان في كلّ واحدة منهما أربعة أبيات، وفقرتان في كلّ منهما ثلاثة أبيات.

على الأقل في ما يتعلق بالأزمنة النحوية (في الفرنسية يقابل زمنْ «الخطاب» - الحاضر والماضي المركب - زمنَ «القصّ» وبخاصّة الماضي البسيط مقابلةً واضحة). وتمثل نصوص المجادَلة والنصوص السردية الخيالية، والحوارات المسرحية نصوصاً من بين أخرى يقتضي كل واحد منها فنياتٍ تعبيريةً خاصّة به.

تحدّد «أسلوبيةُ الأجناس» لنفسها هدفَ وصفِ هذه الجوانب وتنظيمها؛ وما زال الكثير منها في طور البدايات ومجالُها شاسع؛ لكنّ الثابت أنّ في هذا ميداناً لا يمكن الشكّ في قابليته للصبغة العلمية.

أسلوبية النصوص

إن المجال الذي تقترب فيه الأسلوبية من فن دقيق مع ذلك هو عندما تريد (وهذا جانب أساسيّ من جوانب الدراسات الأدبية) إنارةَ نص بالبحث المفصل عن وسائل التعبير التي دُبِّج بواسطتها، فـ «الشّرح الأسلوبي» في فرنسا تمرينٌ جامعيّ ممارَس ممارسةً عريضةً (وناجعة)(*). فيم يتمثل الأمر؟ يتمثل الهدف في صياغة فرضية تأويلية حول النص (يرى صاحبُها أنّها قريبة من نوايا المؤلف - أسلوبية النوايا - أو أنه أوحى بها عن غير وعي إن قليلاً أو كثيراً، سواء أكانت وحيدة أم مفضلة من بين أخرى ممكنة - أسلوبية

(*) توجد مصنفات جيّدة حول تقنيات «الشرح الأسلوبي»، نذكر منها خاصة **شروح أسلوبية**: جان لوي دو بواسيو (Jean Louis de Boissieu)، وآن ماري قارانيون (Anne-Marie Garagnon)، انظر: Jean Louis de Boissieu et Anne-Marie Garagnon, *Commentaires stylistiques*, littérature; ISSN 0249-3292 (Paris: SEDES, 1987); Catherine Fromilhague et Anne Sancier, *Introduction à l'analyse stylistique* (Paris: Bordas, 1991), et Anne Herschberg Pierrot, *Stylistique de la prose*, Belin sup: Lettres; ISSN 1158-3762 (Paris: Belin, 1993).

التأثير)، وفي بيان كيف أن الوسائل اللسانية تدعم التأويل المعني، ويكون المتصور السائد إذ ذاك هو التوفيق، توفيق الكتابة، ويتمثل التحليل في النفاذ إلى أسرارها، ولا يغيب الحكم القيمي قَطّ في «أسلوبية النّصوص». وبمقتضى ذلك يكتسب مفهوم الأسلوب بُعداً لم نفكّر فيه بدءاً هو ملاءَمة الشكل للتأويل الذي يبدو، بحسب المنظور المتوخَّى، أصحَّ تأويل وأشدّه وجاهةً، ومن ثَم الكمالُ الشكلي والجمالي الذي بلغه النصُّ.

إن هذا الشكل من الأسلوبية الذي موضوعُه هو دائماً نص خاص يُسعى إلى تأويله بتفكيك كتابته أقل قابلية بمقتضى طبيعته للتعميمات والممارسات التأليفية. لكنه يمكن أن يسوق من وراء النص المعني إلى الإحاطة بأسلوب كاتب، وتيسير العمل النقدي لتحديد صاحب التصنيف (يمكن نسبة نص مجهول المؤلِف إلى هذا المصنف أو ذاك بالنظر إلى خصائصه الأسلوبية)، أو كذلك وصفْ أسلوب عصر من العصور، أو حركة أدبية (مثلاً أسلوب التحذلُق (Préciosité)، أو الأسلوب الخطابي للقرن السابع عشر، أو أسلوب «الرواية الجديدة» . . .).

الثبت التعريفي

الإحالة (Extension): هي مجموع الذوات التي تدلّ عليها العجمة، فإحالة كرسي مثلاً تحدد بصنف الأشياء التي يمكن أن نعتبرها من قبيل الكرسي.

الاستبدال (Commutation): عملية تتمثل، قصد التثبت من التماثل البراديغمي بين صيغتين، في تعويض إحداهما بأخرى في سياق معيّن، وتعتمد هذه العملية في مختلف مستويات التحليل الصوتي والصرفمي والتركيبي، فإذا حللنا استنجد إلى مكونيها: «است» و«نجد» أمكن لنا أن نعوّض «نجد» بـ «غفر» في استغفر وبذلك يتبيّن تماثل هاتين الوحدتين. وتسمى الوحدتان القابلتان للاستبدال براديغماً.

الاستدلال (Inférence): هو عملية ذهنية تتمثل في الانتقال من قضية تسمى مقدمة إلى قضية أخرى تسمّى نتيجة؛ يتمّ عادة التمييز بين الاستدلال الاستنتاجي وهو الذي تكون نتيجته ضرورية، والاستدلال الاستقرائي الذي نتيجته محتملة. ويعتمد الاستدلال في الوصف اللساني للتثبت من سلامة الأقوال وذلك بالربط بينها وبين ما تستلزمه من نتائج.

الإفادة (Intension): هي مجموع السمات التي يتكوّن منها مدلول العجمة، وتحدد إفادة الكرسي مثلاً بمجموع الخصائص التي تسمح بأن نسمي شيئاً من الأشياء كرسياً.

إنجازي (Performatif): تصنف اللفيظات في التيار التداولي إلى لفيظات ذات صبغة وصفية تسجيلية (Constatif) تعبّر عما يُرى ويلاحظ، ولفيظات إنجازية هي ذاتها تحقيق لأعمال وتأثير في الكون، فعندما يقول الذي يرئس اجتماعاً مثلاً: رفعت الجلسة، فإنه بذلك يحقق عمل البيع، وهذا يسمى لفيظاً إنجازياً.

الإنحاء (Grammaticalisation): عملية تتمثل في تحويل وحدة معجمية إلى أداة نحوية، ويمكن التمثيل لذلك في العربية بفعل علا الذي يبدو أنه قد تولد عنه حرف الجرّ على، أو بالظرف الآن الذي قد يكون تحويلاً للفعل آن.

الانضوائي (Clitique): تستعمل هذه الصفة لتخصيص الصيغ «الضعيفة» في استعمالها مع الفعل، ومثالها في العربية الضمائر المتصلة، وذلك لمقابلتها مع الصيغ «القوية» ومثالها الضمائر المنفصلة.

تتابع الحركات (Hiatus): يمكن للحركة في اللغة الفرنسية مثلاً أن ترد من دون أن تقترن بحرف فتشكل مقطعاً. ويتمثل ما يسمى بـ hiatus تجاور حركتين، وذلك ممّا يجب اجتنابه خصوصاً عندما ينشأ بين كلمتين متتابعتين، وشبيه بهذه الظاهرة في العربية تتابع همزتين، كما هو الشأن مثلاً في مضارع أفعل المسند إلى ضمير المتكلم المفرد: أُأَفعل، ويتمّ التخلص من ذلك بحذف إحدى الهمزتين، أو تعويضها بفتحة طويلة كما هو الشأن في أأْخذ ــــ> آخذ.

التدال (Polysémie): هو وجود أكثر من معنى لمفردة واحدة.

وقد ذكر روبير مارتان (مؤلف هذا الكتاب) نوعين من التدال: التدال الناتج من معان متصل بعضها ببعض. هذا هو شأن سمتين مرتبطتين ارتباط توسع أو تضييق أو مجاز. ويمكن في هذه الحالة استعمال إحدى السمتين لتحديد الأخرى. مثال ذلك العين بمعنى الرقيب التي تحدّد معناها بسمة البصر. والتدال الذي لا ترتبط فيه المعاني بعضها ببعض كما هو شأن العين الدالة على البصر والعين المفيدة للذهب، فلا يمكن استعمال أحد المعنيين لتحديد الآخر.

الترداد (Anaphore): هو في الخطاب علاقة إحالية بين عبارتين تؤوّل إحداهما بالاعتماد على ما قبلها. وبعبارة أبسط فالترداد عملية تركيبية تتمثل في استعمال كلمة أو جزء للتعبير عن جزء آخر من الخطاب سابق له، وأوضح مثال لذلك هو الضمير الذي يحيل على اسم أو معنى قبله ويعود إليه.

التركبية (Compositionalité): هي خاصية الأقوال التي يستفاد معناها من مجموع معنى مكوناتها، مثال ذلك: حلب الراعي الغنم، معنى هذا الكلام رهين معنى المسند والمسند إليه والمفعول به. وخلافاً لذلك تنعدم التركيبية من هذا المثال: حلب الدهر أشطره الذي معناه عرف ما في الدهر واختبر خيره وشرّه، وتعتبر الأقوال التي يتجلى معناها في مكوناتها شفافة، خلافاً لغيرها، إذ لا بدّ من ثقافة لغوية وأدبية تمكن من الاهتداء إلى معناها.

التعدلية (Modalité): هو ما يعبّر عنه المتكلم من الاثبات أو النفي أو الاستفهام أو الأمر. فكل جملة تتضمن مبدئياً شحنة معنوية من هذا القبيل، وذلك يمثل الموقف الذي يتوخّاه المتكلم من خطابه.

التكلس: مجموع الخصائص التركيبية والدلالية لوحدة مركبة

معجمياً، ويتمثل التكليس في تحويل مركب يتكوّن من عناصر مستقلة بعضها عن بعض في الاستعمال إلى وحدة ملتحمة العناصر تفيد معنى غير المعنى المستفاد من كلّ واحد منها مثل قوس قزح أو فرس البحر.

جريد/ جريدات/ براديغم (Paradigme): قسم من الوحدات التي تربط بينها علاقة تعويض بعضها ببعض، فكل واحدة من وحدات القسم قابلة لأن تحلّ محل الأخرى في المحيط التلفظي نفسه، فأسماء الإشارة مثلاً تعتبر قسماً جريدياً، وكذلك الضمائر...

الحفاف (Connotation): مجموع المعاني المعتبرة ثانوية في الدليل اللغوي والتي تضاف إلى المعنى الأساسي أو التعييني. وتستمد المعاني الحافة من مستويات اللغة وسياقات الخطاب ... وتقابل الحفاف العينية (Dénotation).

دلائل إشارية/ أو إشاريات (Signes deïctiques): هي دلائل لا يمكن تأويلها بمعزل عن الاعتبارات الذاتية والمكانية. الزمانية المستفادة من مقام التلفظ مثل الضمائر وأسماء الإشارة وغيرها من الوحدات المفيدة للزمان مثل الآن واليوم وغداً وفوق وبعد ... فالمعنى المستفاد منها يختلف باختلاف المقام. وبعبارة أخرى ليس لها مدلول إحالي قارّ.

السيم/ المعنم (Sème): هي أصغر وحدة في المدلول، وهي وحدة لا تكون مستقلة، ولا يمكن التعرّف إليها إلا داخل المدلول، وبواسطتها يتسنى التمييز بين المدلولات في نطاق مجموعة معجمية معيّنة. يمكن للسمات أن تكون عينية تساعد على تحديد معنى الكلمات. كما يمكن أن تكون حفافية نتيجة مقاييس اجتماعية وتستفاد بفضل قرائن نصّية.

الصوغة (Paraphrase): هي علاقة التكافؤ الدلالي بين جملتين أو كلامين. فالملفوظان يعتبران في علاقة صوغية إذا خضعا لشروط تصديق واحدة. يلجأ إلى الصّوغة عادة لرفع الالتباس، وكذلك في العمل المعجمي.

العُلومية/ الإيبستيمولوجيا (Epistémologie): هي الدراسة النقدية للعلوم قصد تحليل قضاياها النظرية وطرق اعتمادها وتطبيقها.

العنونم (Lemme): هو ما يصطلح عليه من شكل نموذجي للكلمة يسمح بتجميع إنجازاتها المختلفة في الخطاب تحت مدخل واحد. وعلى سبيل المثال يمكن جمع صيغ التصريف لكلّ فعل تحت صيغة الماضي منه، أو ربما تحت المصدر. وتعتمد هذه العملية بخاصّة في مداخل المعاجم، كما تعتمد في المعالجة الآلية للغة قصد ربط انجازات الكلمة المختلفة بشكلها النموذجي المصطلح عليه.

العينية (Dénotation): تفيد عادة الصلة التي بين الدليل اللغوي وصنف شيء من أصناف الكون. ويمثل هذا العنصر المعنوي القارّ في الدليل اللغوي والقابل للتحليل خارج الخطاب. وتقابل العينية الحفاف الذي يتغيّر بتغيّر السياق الاجتماعي وأحياناً الذاتي.

الفصام اللغوي (Dyslexie): اضطراب يصيب تعلم اللغة ويتمثل في صعوبة مستمرة للتحكم في آليات القراءة لدى أطفال غير مصابين بإعاقة ذهنية أو حسية. ويصنف هذا الاضطراب بحسب النظرة العرفانية إلى: فصام معجمي وهو اضطراب في التعرف إلى الأشكال الخطية للكلمة وبخاصّة على أشكال الكلمات يكون رسمها غير قياسي، وفصام صوتمي وهو اختلال ترجمة الخط إلى صواتم.

اللسان (Langue): يحدّ اللسان من حيث وظيفته بأنه نظام

تواصل خاصّ بالمجموعات البشرية، كما يُحدد اعتماداً على طبيعته بأنه نظام من دلائل صوتية ثنائي التقطيع بحسب مستوى الوحدات المفيدة (أي الوحدات المعجمية)، ومستوى الوحدات غير المفيدة (أي الصواتم)، ومما يذكر عادة من الخصائص المتوافرة في كلّ الألسن صبغتها التواضعية واعتباطيتها، وخطيتها.

اللغة (Langage): هي وظيفة يختص بها الجنس البشري وتتمثل في قدرته الفطرية على التواصل والتبليغ.

المحيط المعتقدي (Univers de croyance): هو بعبارة بسيطة مجموع القضايا التي يتلفظ بها المتكلم ويعتبرها حقاً أو باطلاً، أو ما بينهما بحسب درجات مختلفة. ويقوم هذا المفهوم على أن الحقيقة اللغوية المختلفة عن الحقيقة الموضوعية يتكفل بها المتكلم، ولذا فهي حقيقة نسبية لأنها خاضعة لمحيط معتقدي ورهينة ما يعتقده المتكلم أو يوهم بأنه يعتقده.

معمول (Argument): مفهوم يعتمد في التركيبية لبيان خاصّية من أهمّ خصائص الإسناد تتمثل في أن كلّ مسند يقتضي وجود ذات أو ذوات متعددة ينطبق عليها، والمعمول (أو المعمولات) هو هذه الذات (أو الذوات). فالفعل مثلاً في العربية مرتبط بموضع أو أكثر (وظيفة أو أكثر) تشغلها مكونات اسمية. وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر بين اللسانيات والنحو الكلاسيكي فإنه يمكن القول إن المعمولات هي التي تحتل المحلات الناشئة عن الفعل من فاعل ومفاعيل مختلفة . . .

ثبت المصطلحات

أ - عربي - فرنسي

Assertion	إثبات
Assertif	إثباتي
Extension	إحالة
Hypéronymie	احتواء
Réductionnisme	إختزال
Préposition	أداة
Insertion	إدراج
Les Indéfinis	أدوات التنكير
Diflexivité	إزالة الإعراب
Préfixation	إسباق
Inférence	استدلال
Inférentiel	استدلالي
Continuum	استرسال
Déduction	استنتاج
Démonstratif	اسم الإشارة

Substantif	اسم محض
Nominalisme	أسمائية
Saturer	أشبع
Etymon	أصل
Paragrammatisation	اضطراب نحوي
Redondance	إطناب
Flexionnel	إعرابي
Intension	إفادة
Intensionalité	إفادية
Clivage	افتراع
Implication	اقتضاء
Quantification	إكمام
Robot	آلة مسيّرة
Suffixation	إلحاق
Déontique	إلزامي
Agglutinant	إلصاقي
Mécanisme	آلية
Robotique	آلية مسيّرة
Eclectisme	انتقائية
Performatif	إنجازي
Grammaticalisation	إنحاء
Enclitique	إنضوائي لاحق
Clitiques	انضوائيات
Anacoluthe	انفصام التركيب
Synchronie	آنية
Elémentaire	أوّلي

Rythme	إيقاع
Faux	باطل
Structure	بنية
Extraposition	تأخير
Postposition Indexical	تأشيري
Subordonné (s)	تبيعة ـ تبائع
Hiatus	تتابع حركات متماثلة
Suite	تتابعية
Suite graphique	تتابعية خطية
Subordination	تتبعية
Homogénéité	تجانس
Assemblage	تجميع
Sous-jacent	تحتي
Analycité	تحليلية
Palatisation	تحنيك
Neutralisation	تحييد
Polysémie	تدالّ
Débit	تدفق
Anaphore (s)	ترداد ـ دلائل تردادية
Anaphorique	ترداددي
Tournure	تركيب
Apposition	تركيب بدلي
Compositionnel	تركيباتي
Syntaxe	تركيبية
Similarité	تشابه
Homologie	تشاكل

Déclinaison	تصريف الأسماء
Taxinomie	تصنيفية
Conceptualisation	تصوّر
Idéographie	تصويرية
Balisge	تضبيط
Pluralité	تعدد جمعي
Modalisation	تعديل
Généralité	تعميمية
Déformabilité	تغيّر الصورة
Opposition	تقابل
Chiasme	تقاطع الألفاظ
Préposition	تقديم
Normalisation	تقييس
Figement	تكلس
Enonciation	تلفظ
Lemmatisation	تلييم
Cliq	تمرطق
Pertinence	تميّز
Communication	تواصل
Prosopopée	التوجّه إلى الغائب
Allocution	توجه إلى مخاطب وهمي
Extension de sens	توسيع المعني
Prédictibilité	توقّعية
Combinatoire	توليف
Trait d'union	جرّة وصل
Paradigme	جريد

Principale	جملة رئيسية
Genre	جنس
Sexe contiguïté	جوار
Présent générique	حاضر عام
Aphasie	حبسة
Evènementiel	حدثي
Parole	حديث
Connotation	حفاف معنوي ـ دلالة حافّة
Vrai	حق
Véridictionnel	حقائقي
Véridiction	حقائقية
Décoder	حلقن
Discours	خطاب
Circularité	دائرية
Sémiotique	دلالية
Autonymique	ذاتي الإحالة
Autonymie	ذاتية الإحالة
Hiérarchie	رُتبية
Adverbe	رديف
Diachronique	زماني
Echelle	سلّمية
Acoustique	سمعياتي
Contexte oblique	سياق إنحنائي
Validité	صحة
Valide	صحيح
Mode	صيغة ـ وجهة

Morphème	صيغم
Implicite	ضمني
Substrat	طبقة تحية
Adstrat	طبقة جانبية
Superstrat	طبقة فوقية
Fait	ظاهرة
Isolant	عازل
Locutionalité	عبارية
Modaliser	عدّل
Cognitif	عرفاني
Thérapeutique	علاجية
Acte illocutoire	عمل تحقيقي
Mondes potentiels	عوالم كامنة
Sujet	فاعل
Dyslexie	فصام
Infinitif	فعل لا مصرف
Auxiliaire	فعل مساعد
A priori	قبلي
Proposition	قضية ـ جميلة
Hyperbate	قلب الترتيب المنتظر
Force allocutionnaire	قوة متضمنة في الفعل
Analogie	قياس
Valeur de vérité	قيمة الحقيقة
Etre (l')	الكائن
Massif	كتلي
Glossaire	كشف

Métonymie	كناية
Inaccompli	لا منجز
Non-comptable	لا منعدّ
Agrammatisme	لا نحوية
Non-être (le)	اللاكائن
Irréel	اللاواقعي
Ambiguïté	لبس
Langue	لسان
Ethnolinguistique	اللسانيات الأجناسية
Idiome	لسن
Langage	لغة
Mentalisme	لغة فكرية
Langage formelle	لغة مشكلنة
Jargons	لُغْويات
Parler	لهجة
Idiolecte	لهجة فردية
Lemme	ليم/ لَيْم
Passé simple	ماض بسيط
Passé composé	ماض مركب
Imparfait	ماضي الديمومة
Subordonnant	متبع
Locuteur	متكلم
Complément déterminatif	متمم تحديدي
Tropes	مجازات
Groupe	مجموع
Onomatopée	محاكية

Déterminant	محدّد
Déictiques	محدد دلائل حدوثية
Analyseur	محلل
Univers de croyance	محيط معتقدي
Syntagme	مركب
Syntagmatique/	مركبية
Compositionalité Terme	مصطلح - لفظ
Contrefactuel	مصطنع
Classificateur	مصنّف
Adéquation	مطابقة
Redondant	مطنب
Modalisé	معدّل
Hyperbole	مغالاة
Codé	مقنن
Critère	مقياس
Bureautique	مكتبية
Possessifs	ملكيات
Dictaphone	مملاة
Comptable	منعدّ
Procédure	منهج
Modèle	منوال
Marqué	موسوم
Objectivation	موضعة
Argument	موضوع
Argumental	موضوعي
Système	نظام

Sonorité	نغمية
Indéfini	نكرة
Structurel	هيكلي
Unité	وحدة
Médias	وسائط
Fonctionnalité	وظائفية

ب ـ فرنسي ـ عربي

A priori	قبلي
Acoustique	سمعياتي
Acte illocutoire	عمل تحقيقي
Adéquation	مطابقة
Adstrat	طبقة جانبية
Adverbe	رديف
Agglutinant	إلصاقي
Agrammatisme	لا نحوية
Allocution	توجه إلى مخاطب وهمي
Ambiguïté	لبس
Anacoluthe	انفصام التركيب
Analogie	قياس
Analycité	تحليلية
Analyseur	محلل
Anaphor (s)	ترداد ـ دلائل تردادية
Anaphorique	ترداي
Aphasie	حبسة
Apposition	تركيب بدلي

Argument	موضوع
Argumental	موضوعي
Assemblage	تجميع
Assertif	إثباتي
Assertion	إثبات
Autonymie	ذاتية الإحالة
Autonymique	ذاتي الإحالة
Auxiliaire	فعل مساعد
Balisge	تضبيط
Bureautique	مكتبية
Chiasme	تقاطع الألفاظ
Circularité	دائرية
Classificateur	مصنّف
Cliq	تمرطق
Clitiques	انضوائيات
Clivage	افتراع
Codé	مقنن
Cognitif	عرفاني
Combinatoire	توليف
Communication	تواصل
Complément déterminatif	متمم تحديدي
Compositionalité	مركّبية
Compositionnel	تركيباتي
Comptable	منعدّ
Conceptualisation	تصوّر
Connotation	حفاف معنوي/ دلالة حافّة

Contexte oblique	سياق إنحنائي
Contiguïté	جوار
Continuum	استرسال
Contrefactuel	مصطنع
Critère	مقياس
Débit	تدفق
Déclinaison	تصريف الأسماء
Décoder	حلقن
Déduction	استنتاج
Déformabilité	تغيّر الصورة
Déictiques	محدد دلائل حدوثية
Démonstratif	اسم الاشارة
Déontique	إلزامي
Déterminant	محدّد
Diachronique	زماني
Dictaphone	مملاة
Diflexivité	إزالة الإعراب
Discours	خطاب
Dyslexie	فصام
Echelle	سلّمية
Eclectisme	انتقائية
Elémentaire	أوّلي
Enclitique	إنضوائي لاحق
Enonciation	تلفظ
Ethnolinguistique	اللسانيات الأجناسية
Etre (l')	الكائن

Etymon	أصل
Evènementiel	حدثي
Extension	إحالة
Extension de sens	توسيع المعنى
Extraposition	تأخير
Fait	ظاهرة
Faux	باطل
Figement	تكلس
Flexionnel	إعرابي
Fonctionnalité	وظائفية
Force allocutionnaire	قوة متضمنة في الفعل
Généralité	تعميمية
Genre	جنس
Glossaire	كشف
Grammaticalisation	إنحاء
Groupe	مجموع
Hiatus	تتابع حركات متماثلة
Hiérarchie	رُتبية
Homogénéité	تجانس
Homologie	تشاكل
Hyperbate	قلب الترتيب المنتظر
Hyperbole	مغالاة
Hypéronymie	احتواء
Idéographie	تصويرية
Idiolecte	لهجة فردية
Idiome	لسن

Imparfait	ماضي الديمومة
Implication	اقتضاء
Implicite	ضمني
Inaccompli	لا منجز
Indéfini	نكرة
Indexical	تأشيري
Inférence	استدلال
Inférentiel	استدلالي
Infinitif	فعل لا مصرف
Insertion	إدراج
Intension	إفادة
Intensionalité	إفادية
Irréel	اللاواقعي
Isolant	عازل
Jargons	لُغْويات
Langage	لغة
Langage formelle	لغة مشكلنة
Langue	لسان
Lemmatisation	تلييم
Lemme	لَيْم
Les Indéfinis	أدوات التنكير
Locuteur	متكلم
Locutionalité	عبارية
Marqué	موسوم
Massif	كتلي
Mécanisme	آلية

Médias	وسائط
Mentalisme	لغة فكرية
Métonymie	كناية
Modalisation	تعديل
Modalisé	معدّل
Modaliser	عدّل
Mode	صيغة ـ وجهة
Modèle	منوال
Mondes potentiels	عوالم كامنة
Morphème	صيغم
Neutralisation	تحييد
Nominalisme	أسمائية
Non-comptable	لا منعدّ
Non-être (le)	اللاكائن
Normalisation	تقييس
Objectivation	موضعة
Onomatopée	محاكية
Opposition	تقابل
Palatisation	تحنيك
Paradigme	جريد
Paragrammatisation	اضطراب نحوي
Parler	لهجة
Parole	حديث
Passé composé	ماض مركب
Passé simple	ماض بسيط
Performatif	إنجازي

Pertinence	تميّز
Pluralité	تعدد جمعي
Polysémie	تدالّ
Possessifs	ملكيات
Postposition	تأخير
Prédictibilité	توقّعية
Préfixation	إسباق
Préposition	أداة/ تقديم
Présent générique	حاضر عام
Principale	جملة رئيسية
Procédure	منهج
Proposition	قضية - جميلة
Prosopopée	التوجّه إلى الغائب
Quantification	إكمام
Redondance	إطناب
Redondant	مطنب
Réductionnisme	إختزال
Robot	آلة مسيّرة
Robotique	آلية مسيّرة
Rythme	إيقاع
Saturer	أشبع
Sémiotique	دلالية
Sexe	جنس
Similarité	تشابه
Sonorité	نغمية
Sous - jacent	تحتي

Structure	بنية
Structurel	هيكلي
Subordination	تتبعية
Subordonnant	متبع
Subordonnée (s)	تبيعة ـ تبائع
Substantif	اسم محض
Substrat	طبقة تحية
Suffixation	إلحاق
Suite	تتابعية
Suite graphique	تتابعية خطية
Sujet	فاعل
Superstrat	طبقة فوقية
Synchronie	آنية
Syntagmatique	مركبية
Syntagme	مركب
Syntaxe	تركيبية
Système	نظام
Taxinomie	تصنيفية
Terme	مصطلح ـ لفظ
Thérapeutique	علاجية
Tournure	تركيب
Trait d'union	جرّة وصل
Tropes	مجازات
Unité	وحدة
Univers de croyance	محيط معتقدي
Valeur de vérité	قيمة الحقيقة

Valide	صحيح
Validité	صحة
Véridictionnel	حقائقي
Véridiction	حقائقية
Vrai	حق

قائمة مجملة للمراجع

من بين عديد مصنفات **التدريب على اللسانيات** نوصي باعتماد مصنف لأنه محرر باللسان الفرنسي، حديث، واضح ومتضمّن مراجع مفيدة وهو لـ: Soutet, Olivier. *Linguistique*. 3ème éd Paris: PUF, 2001 (Coll. premier cycle)

ومن سلسلة (Que sais-je?) كتاب: Perrot, Jean. *La Linguistique*. Paris: Presses universitaires de France, 1953 (Que sais-je? 570),

وهو أقدم من الكتاب السابق (ترجع الطبعة الأولى إلى عام 1953)، لكن أضيفت إليه بانتظام المستجدات المتعاقبة (الطبعة السادسة عشرة صدرت عام 1998)، ويوفر نظرة شاملة على اللسانيات الوصفية، واللسانيات العامة، واللسانيات التاريخية.

الكتاب الموجز لـ: Martinet, André. *Eléments de linguistique générale*. Paris: A. Collin, 1960. (Collection Armand Colin; 349),

الذي أصبح قديماً (نشر أول مرة عام 1960)، ولكنه ما انفك يُعاد نشره، ويمثل أداة مفيدة لفهم أبسط المبادئ (لكنّ جهازه

الاصطلاحي قد تقادم جزئياً: فالمؤلف يستعمل مثلاً مصطلح monème عوض morphème = صرفم).

تتوافر قائمات شاسعة جدّاً لكل جانب من الجوانب التي قدمناها، ومن المستحيل أن نعطي كشفاً عنها ولو مجملاً.

يتسنى التكميل الملائم للفصل المخصص **للسانيات النظرية** (*Linguistique théorique*) بتقديم أهم تيارات اللسانيات المعاصرة (التي أهملت هنا) بكتاب: Fuchs, Catherine et Pierre Le Goffic, *Les Linguistiques contemporaines: Repères théoriques*. Paris: Hachette, 1992 (HU. Linguistique),

فهو كتاب موثوق به، ويتضمّن إشارات مرجعية طيبة. وفي ما يخص **اللسانيات العامة** (*Linguistique générale*) فكتاب: Hagège, Claude. *La Structure des langues*. 6e éd. Paris: Presses universitaires de France, 2001. (Que sais-je?; 2006),

يمثل مرجعاً ثميناً. ولنا بالنسبة إلى **فلسفة اللغة** كتاب موجز جيّد لـ:

Auroux, Sylvain. *La Philosophie du langage*. Avec la collab. de Jacques Deschamps, Djamel Kouloughli. Paris: Presses universitaires de France, 1996. (Coll. premier cycle)

أخيراً في ما يخصّ **اللسانيات التطبيقية** (*Linguistique appliquée*) يوفر عنها نظرة شاملة المصنف الجماعي: Fuchs, Catherine. *Linguistique et traitements automatiques des langues*. Avec la collab. de Anne Lacheret-Dujour et de Bernard Victorri. [Paris]: Hachette supérieur, 1993. (HU. Linguistique),

إنّ الأفق المتوخى هنا هو أفق **عُلوميّة اللسانيات**، ونحيل في ما يخص **الإبِيستيمية** عامة إلى كتاب: Barreau, Hervé. *L'Epistémologie*. 5e éd. corr. Paris: Presses universitaires de France, 2002. (Que sais-je?; 1475),

وعلى كتاب: Carl Hempel, *Eléments d'épistémologie = Philosophy of Natural Science*. Trad. de Bertrand Saint-Sernin. 2e éd. Paris: A. Colin, 1996. (Collection cursus. Série philosophie),

الطبعة الثانية - (الطبعة الإنجليزية الأولى 1966).

لمحاولة فهم اللسانيات توجد مقاربة أخرى ممكنة طبعاً، فعوض تفضيل المنهجية كما فعلنا يمكن أيضاً أن تتناول **المجالات** الكبرى كلّ على حدى: الصوتيات والصوتميات، ودراسة أنظمة الرسم، والنحو وخاصة التركيبية والدلالية، ولسانيات النص، والأسلوبية. وإليك بعض عناوين مصنفات التدريب الفرنسية:

Carton, Fernand. *Introduction à la phonétique du français*. Paris; Bruxelles; Montréal: Bordas, 1974. (Etudes. Série de langue française)

Catach, Nina. *L'Orthographe française: Traité théorique et pratique avec des travaux d'application et leurs corrigés*. Avec la collaboration de Claude Cruaz et Daniel Duprez. [Paris]: F. Nathan, 1980. (Nathan université, information, formation; ISSN 0335-329X. Linguistique française)

Flaux, Nelly. *La Grammaire*. 2ème éd. Paris: Presses universitaires de France, 1997. (Que sais-je?)

Soutet, Olivier. *La Syntaxe du français*. 3ème éd. Paris: Presses universitaires de France, 1998. (Que sais-je?)

Nyckees, Vincent. *La Sémantique*. Paris: Belin, 1998. (Collection sujets; ISSN 1240-0831)

Adam, Jean-Michel. *Langue et littérature: Analyses pratiques et textuelles*. Paris: Hachette, 1991. (F. Références)

Molinié, Georges. *La Stylistique*. Paris: Presses universitaires de France, 1993. (Collection premier cycle; ISSN 1158-6028)

لنذكر أيضاً بعض النصوص التأسيسية للسانيات المعاصرة (بعضها صعب نشير إليه بحرف (d)[1]).

---

(1) هو أول حرف من كلمة difficile (صعب).

Austin, John Langshaw (1911-1960). *Quand dire, c'est faire = How to do Things with Words*. Introduction, traduction et commentaire par Gilles Lane. Paris: Editions du seuil, 1970. (L'Ordre philosophique). [*How to do Things with Words*, 1962].

Benveniste, Emile (1902-1976). *Problèmes de linguistique générale. 1*. Paris: Gallimard, 1966. (Bibliothèque des sciences humaines)

———. *Problèmes de linguistique générale. 2*. Paris: Gallimard, 1974. (Bibliothèque des sciences humaines)

Bloomfield, Leonard (1887-1949). *Le Langage = Language*. Traduit de l'américain par Janick Gazio; avant-propos de Frédéric François. Paris: Payot, 1970. (Bibliothèque scientifique). [*Langage*, 1933].

Chomsky, Noam (né en 1928). *Aspects de la théorie syntaxique = Aspects of the Theory of Syntax*. Traduit de l'anglais par Jean-Claude Milner. Paris: Editions du seuil, 1971. (L'Ordre philosophique; 13). [1965], d.

———. *Structures syntaxiques = Syntactic Structures*. Traduit de l'anglais par Michel Braudeau. Paris: Editions du seuil, 1969. [1957], d.

Frege, Gottlob (1848-1925). *Ecrits logiques et philosophiques*. Traduction et introduction de Claude Imbert. Paris: Editions du seuil, 1971. (L'Ordre philosophique)

Guillaume, Gustave (1883-1960). *Langage et science du langage*. Paris: A.-G. Nizet; Québec: Presses de l'université de Laval, 1964. d.

———. *Temps et verbes*. Paris: Champion, 1965; [1929], d.

Harris, Zellig Sabbettai (1909-1992). *Methods in Structural Linguistics*. Chicago: University Press of Chicago, 1951. d.

———. *Notes du cours de syntaxe*. Traduit [et adapté] de l'anglais par Maurice Gross. Paris: Editions du seuil, 1976. (Collection travaux linguistiques). d.

Hjelmslev, Louis (1899-1965). *Essais linguistiques*. [Préface de François Rastier]. Paris: Ed. de minuit, 1971. (Arguments; 47). [1937-1957], d.

———. *Le Langage: Une Introduction; augm. de degrés linguistiques = Sprojet*. Trad. du danois par Michel Olsen. Préf. de Algirdas Julien Greimas. [Paris]: Gallimard, 1991. (Collection folio. Essais; 171). [1963].

———. *Prolégomènes à une théorie du langage = Omkring Sprogteoriens Grundlaeggelse*. Traduit du danois par une èquipe de linguistes. Traduction revue par Anne-Marie Léonard. Suivi de: la Structure fondamentale du langage. Traduit de l'anglais par Anne-Marie Léonard. Paris: Editions de minuit, 1968. (Arguments; 35). [Ed. danoise, 1943], d.

Jakobson, Roman (1896-1982). *Essais de linguistique générale = Preliminaries to Speech Analysis 1*. Traduit de l'anglais et préface par Nicolas Ruwet. Paris: Editions de minuit, 1963. t. 3, 1973. (Articles publiés entre 1938 et 1972).

Jespersen, Otto (1860-1943). *Language: Its Nature, Development and Origin*. London: G. Allen & Unwin, 1922.

———. *The Philosophy of Grammar*. London: G. Allen & Unwin, 1924.

Peirce, Charles Sanders (1839-1914). *Ecrits sur le signe*. Paris: Editions du seuil, 1979.

Russel, Bertrand (1872-1970). *Signification et vérité = An Inquiry into Meaning and Truth*. Traduit de l'anglais par Philippe Devaux. Paris: Flammarion, 1969. (Science de l'homme). [1940].

Sapir, Edward (1884-1939). *Le Langage, introduction à l'étude de la parole = Language, an Introduction to the Study of Speech*. Traduit de l'anglais par Solange-Marie Guillemin. Paris: Payot, 1967. (Petite bibliothèque payot; 104). [1921].

Saussure, Ferdinand de (1857-1913). *Cours de linguistique générale*. Publié par Charles Bally et Albert Sechehaye; avec la collaboration de Albert Riedlinger. Paris: Payot, 1972. [1916].

Tesnière, Lucien (1893-1954). *Eléments de syntaxe structurale*. Préface de Jean Fourquet. Paris: C. Klincksieck, 1959.

Trubeckoj, Nikolaj Sergeevič (1890-1938). *Principes de phonologie = Grundzüge der Phonologie*. Traduit par J. Cantineau. [Nouvelle éd.]; [corrigée] par Luis J. Prieto. Paris: Klincksieck, 1976. (Tradition de l'humanisme; 7). [1939; trad. fr., 1949], d.

Whorf, Benjamin Lee (1897-1941). *Linguistique et anthropologie: Essai = Language, Thought and Reality*. Trad. de l'anglais par Claude Carme. Paris: Ed. Denoël, 1969. [1956].

Wittgenstein, Ludwig (1889-1951). *Tractatus logico-philosophicus, (suivi de) investigations philosophiques*. Trad. de l'allemand par

Pierre Klossowski. Introd. de Bertrand Russell. Paris: Gallimard, 1961. (Bibliothèque des idées). [1921]; [1936-1949].

بعض الأعمال الفرنسية (أو بالفرنسية) أحدث عهداً:

Culioli, Antoine. *Pour une linguistique de l'énonciation*. Paris: Ophrys, 1990.

Ducrot, Oswald. *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*. Paris: Hermann, 1972. (Collection savoir)

———. *Le Dire et le dit*. Paris: Ed. de minuit, 1984. (Propositions; ISSN 0246-554X)

Gross, Maurice. *Méthodes en syntaxe: Régime des constructions*. Paris: Hermann, 1975. (Actualités scientifiques et industrielles; 1365)

Haggège, Claude. *L'Homme de parole: Contribution linguistique aux sciences humaines*. Paris: Fayard, 1985.

Kebrat-Orecchioni, Catherine. *Les Interactions verbales*. Paris: A. Colin, 1990. 3 vols. 1992. 1994.

Kleiber, Georges. *Problèmes de référence: Descriptions définies et noms propres*. Metz: Université de Metz, centre d'analyse syntaxique; Paris: Klincksieck, 1981. (Recherches linguistiques; ISSN 0339-8749; 6)

———. *Problèmes de sémantique: La Polysémie en questions*. Villeneuve-d'Ascq: Presses universitaires du septentrion, 1999.

———. *La Sémantique du prototype: Catégories et sens lexical*. Paris: Presses universitaires de France, 1990. (Linguistique nouvelle; ISSN 0292-4226)

Lazard, Gilbert. *L'Actance*. Paris: Presses universitaires de France, 1994. (Linguistique nouvelle; ISSN 0292-4226)

Lemaréchal, Alain. *Les Parties du discours: Sémantique et syntaxe*. Paris: Presses universitaires de France, 1989. (Linguistique nouvelle; ISSN 0292-4226)

Martin, Robert. *Langage et croyance: Les Univers de croyance dans la théorie sémantique*. Bruxelles: P. Mardaga, 1987. (Philosophie et langage)

———. *Pour une logique du sens*[2]. 2e éd. rev. et augm. Paris:

(2) ترجمه إلى العربية الطيّب البكّوش وصالح الماجري وبالتعاون مع مؤسسة ترجمان بعنوان: **في سبيل منطق للمعنى** (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2006).

Presses universitaires de France, 1992. (Linguistique nouvelle; ISSN 0292-4226). [1ère éd., 1983].
———. *Sémantique et automate: L'Apport du dictionnaire informatisé*. Paris: Presses universitaires de France, 2001. (Ecritures électroniques)
Milner, Jean-Claude. *L'Amour de la langue*. Paris: Editions du seuil, 1978. (Connexions du champ freudien; ISSN 0337-1352)
———. *Introduction à une science du langage*. Paris: Ed. du seuil, 1989. (Des Travaux)
Pottier, Bernard. *Linguistique générale: Théorie et description*. Paris: Klincksieck, 1974. (Initiation à la linguistique. Série B, problèmes et méthodes; 3)
———. *Représentations mentales et catégorisations linguistiques*. Louvain; Paris: Peeters, 2000. (Bibliothèque de l'information grammaticale; 47)
———. *Sémantique générale*. Paris: Presses universitaires de France, 1992. (Linguistique nouvelle; ISSN 0292-4226)
Rastier, François. *Sémantique et recherches cognitives*. Paris: Presses universitaires de France, 1991. (Formes sémiotiques; ISSN 0767-1970)
———. *Sémantique interprétative*. Paris: Presses universitaires de France, 1987. (Formes sémiotiques; ISSN 0767-1970).
Wilmet, Marc. *Grammaire critique du français*. 3e éd. Bruxelles; [Paris]: Duculot, 2003. [1ère éd., 1997].

الفهرس

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ



المنظمة العربية للترجمة
ARAB ORGANIZATION FOR TRANSLATION
ORGANISATION ARABE POUR LA TRADUCTION

آخر ما صدر عن

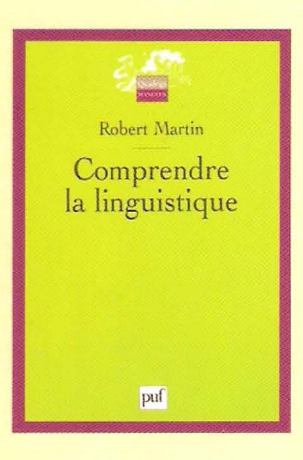
المنظمة العربية للترجمة

بيروت ـ لبنان

توزيع مركز دراسات الوحدة العربيّة

تحقيقات فلسفية	تأليف	: لودفيك فِتغنشتاين
	ترجمة	: عبد الرزّاق بنّور
دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها	تأليف	: جورج كانغيلام
	ترجمة	: محمد بن ساسي
في نظرية الترجمة: اتجاهات معاصرة	تأليف	: إدوين غينتسلر
	ترجمة	: سعد عبد العزيز مصلوح
لغات الفِرْدَوس	تأليف	: موريس أولَنْدر
	ترجمة	: جورج سليمان
التاريخ الجديد	إشراف	: جاك لوغوف
	ترجمة	: محمد الطاهر المنصوري
فكرة الفينومينولوجيا	تأليف	: إدموند هوسرل
	ترجمة	: فتحي إنقزو
إدارة هندسة النُظُم	تأليف	: بنيامين س. بلانشارد
	ترجمة	: حاتم النجدي
بُنيَة الثورات العلمية	تأليف	: توماس س. كُون
	ترجمة	: حيدر حاج اسماعيل

مدخل
لفهم اللسانيات



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم



المنظمة العربية للترجمة

«يتناول هذا الكتاب ـ بلغة عامة الناس، ومن دون أن يقتضي معارفَ سابقة ـ ما تحدّده اللسانيات لنفسها من غايات، وما تُلقيه من أنماط الأسئلة، وما تتوخاه من طرقٍ لتوفّـر لها بعض الأجوبة». إجمالاً، إنه يسعى «إلى إعطاء فكرة صائبة قدر المستطاع عن فنٍّ معقّد وعن أهدافه ومناهجه».

يقدّم الكتابُ المؤلَّفُ من ستّة أقسام : **اللسانيات الوصفية** (ما معنى الوصف في اللسانيات؟)، و**اللسانيات النظرية** (ما معنى التفسير؟)، و**اللسانيات العامّة** (ماذا ينبغي قبوله من المفاهيم الصالحة لجميع الألسن؟)، و**فلسفة اللغة** (ما هي العلاقات الجامعة بين اللغة من ناحية، والواقع، والفكر، والحقيقة، والفعل من ناحية أخرى؟)، و**اللسانيات التاريخية** (كيف ولماذا تتطوّر الألسن؟)، و**اللسانيات التطبيقية** (ما هي الفائدة التي تُجنى من هذا؟). وفي ذيل الكتاب تُعرض أسس الأسلوبية. إنه مدخل أساسي لعُلومية مجالٍ علمي.

- **روبيـر مارتان**: عضو في المعهد الأكاديمي (L'Institut)، وأستاذ متميّز في جامعة السوربون حيث درّس اللّسانيات العامّة واللّسانيات الفرنسيّة. من مؤلّفاته: *Pour une logique du sens* (1992), *Sémantique et automate, l'apport du dictionnaire informatisé* (2001).

- **عبد القادر المهيري**، أستاذ متميّز بالجامعة التونسية، درّس العلوم اللغويّة العربيّة. من مؤلّفاته: *Les Théories grammaticales de Ibn Jinnî*، و**من الكلمة إلى الجملة، بحث في منهج النحاة**. وقد حقق وترجم إلى الفرنسية كتاب **النمر والثعلب** لسهل بن هارون.

الثمن: 8 دولارات
أو ما يعادلها

ISBN 978-9953-0-1046-5

